

الدكتور مختار الأحمدي نويوات

عن اللسان.. وفي البيان

مقالات وافتتاحيات

منشورات
المجلس الأعلى للغة العربية



كتاب: عن اللسان.. وفي البيان
تأليف: الأستاذ الدكتور مختار نويوات
النوع: مقالات في الأدب واللغة
النّاشر: المجلس الأعلى للغة العربيّة - الجزائر
القياس: 23x15
عدد الصفحات: 296 صفحة

الإيداع القانوني:
ردمك:

منشورات
المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت - الجزائر
الهاتف: 25/24 07 23 021
النّاسوخ: 07 07 23 021
البريد الإلكتروني: sg.hcla@gmail.com




الدكتور مختار الأحمدي نويوات

عن اللسان.. وفي البيان

مقالات وافتتاحيات

منشورات
المجلس الأعلى للغة العربية



عن هذا الكتاب..

بقلم: عزالدين ميهوبي

حين تداولنا في أمر تكريم الأستاذ الدّكتور مختار نويوات، أجمع كلّ الذين شاركوا في جلسة إبداء الرأي، على أنّ أفضل ما يمكن أن يمنح للرّجل العالم في ذكرى اليوم العالمي للغة العربيّة هو نشر بعض ما كتب.. فارتأينا جمع المقالات والافتتاحيات التي نشرها في مجلّة «اللغة العربيّة» المدينة له دائمًا بحضورها الدّائم منبرًا للباحثين وخُدّام اللغة والأدب والفكر.

ولأنّ الرّجل، وهو من هو، زاهدٌ في نشر ما يكتب بين الفينة والأخرى، كونُه كرّس جهوده للبحث والتدريس والإشراف العلمي على الطلبة والأكاديميين، قلنا ماذا لو بادر المجلس الأعلى للغة العربيّة إلى إضافة لبنة أخرى لرصيد الأستاذ نويوات كتابًا يستفيدُ منه عموم المهتمّين بشؤون العربيّة وما ارتبط بها، والأدب وما يدور في فلكه، وسيّر الأعلام وما حوته من معلومات مفيدة، واقترحنا أن يكون عنوان الكتاب المتضمّن مقالات وافتتاحيات نُشرت في فترات متفاوتة «عن اللسان.. وفي البيان» وهي عصارة تعامله والتزامه الدائمين مع المجلس، وحرصه الكبير في أن تظلّ هذه الهيئة مثابة للمنافحين عن لغة الضّاد، والمدافعين عن الهويّة الوطنيّة، والسّاعين إلى حماية المجتمع من الهجنة والرّطانة والانفلات اللساني.

لن نغالي إذا قلنا في غير اعتداد إنّ كلّ فكرة يتضمنّها مقالٌ أو افتتاحية للأستاذ نويوات، عبارة عن مشروع كتاب مختزل في كلمات، فالرّجل يمتلك حسّ إنتاج «العصير» الفكري، وتركيز الرؤية في عدد قليل من

الجُمل، دون أن يُشعرك بالملل، ثم إنّ الكمّ الهائل من المعلومات التي يستقيها من مصادر عديدة، ومن اجتهاد قلّ نظيره، يجعل المقال منجزًا وفق معمار هندسيّ بديع، إذ يختار لكل فكرة ما يشتهي من ألفاظ، ولا يسعى إلى تنطّع أو دوران على الذات، كمن يدور بحبل على جبل، ليقول لك « كم السّاعة الآن ؟ »...

إنّ هذه الشذرات من فكر وعلم الأستاذ نويوات، هي غيضٌ من فيض، فالرجل عالم بكلّ المعايير، ويمنعه حياؤه وتواضعه من التباهي بذلك، وهو القائل في مقال له «لست من الذين يتنكرون لأساتذتهم ولا يذكرون إلا عيوبهم فلهم علي فضل كبير، ولست ممن لا يعجب بالأدب العربي قديمه وحديثه بل أفضّله على كل أدب.. إنما أهيب بالمسؤولين عن العملية التربوية أن يهتموا بالأولويات ويبسطوا التعليم ويتدرجوا من السهل إلى الصعب، وأن يجعلوا اللغة ممارسة لا حشو أدمغة بما لا غناء فيه». وما نقرأه في هذا الكتاب، إنّما هو محصّله جهد محمود لخدمة العربيّة وآدابها، وتذكير بمآثر من خدموها أمثال ابن أبي شنب والبشير الإبراهيمي وموسى الأحمدي نويوات وأبو العيد دودو، وفي ذلك تأكيدٌ على أنّ الجزائر بإسهامها القويّ في المشترك الحضاري العربي والإنسانيّ، إنّما هي حجرٌ صلدٌ وثابت في هذا البنيان، لذا وجب استحضار الذّاكرة كي تكون معلمًا للأجيال، ومنارة على رؤوس الأشهاد.. .

إنّ سعادة المجلس لكبيرة وهو يبادر إلى جمع هذا القدر من المقالات والافتتاحيات التي كتبها أستاذ الأجيال ومربّي النشء مختار نويوات، آملاً أن يجد فيها الدّارسون ما يلبّي شغفهم بالعربيّة، وما يفتح أمامهم أبواب التفكير في القيام بجهود مماثلة.. فشكرًا للأستاذ مختار الذي أتاح لنا فرصة شكره وتثمين صبره، وتقدير جهوده.. ملتمسين العذر إن تجرأنا وأضفنا

لاسمه، الأحمدي، إذ رأينا من المستحبّ حفظ هذا اللقب الذي حمله المغفور له بإذن الله، والدهُ العلاّمة والأديب الأريب الشيخ موسى الأحمدي نويوات، هذا العَلَم الذي حفر اسمًا عامرًا بالعلم والأخلاق والوطنيّة.. والمرءُ من معدنه لا يستغربُ.

والله وليّ التوفيق



اللغة العربية واستيعاب الثقافات

كثيرا ما يطرق أسماعنا في العصر الراهن أن اللغة العربية بعيدة كل البعد عن استيعاب الثقافات المعاصرة لفقدانها ما يؤهلها لذلك ولأنها مقصورة على الرسميات والمؤسسات التعليمية في مستوياتها الدنيا والوسطى وعلى الصحافة وبعض المنتجات الفكرية كالأدب ومبادئ العلوم والفنون.. مما لا غناء فيه.. وذلك ما جعلها غير طبيعية بل ميتة أو شبه ميتة لأن اللغة الحية في عرف العلماء لغة التخاطب.. لغة الشعب، بها يعرب عن حاجاته: المادي منها والفكري والروحي، ضاق أم رحب، سفل أم علا.

وهي.. فيما يرون، أو يزعمون، أفقر ما يكون إلى ما ندعوه اليوم بألفاظ الحضارة مهما كان ميدانها، فلا تستعمل إلا هجينة، مشوبة بما يشينها ويفقدها جمالها وعبقريتها إن كان لها عبقرية كما يدّعي أصحابها الداعون إلى إقحامها فيما لا قبل لها به: كالعلوم الدقيقة وأحدث مستجدات الاختراع العالمي وغير ذلك مما تضيق به مداركنا ولا تسعُه اللغة العربية.

ويقولون إن المصطلح العلمي أو الفنّي الذي خصص له لفظ واحد أصيل دقيق في اللغات الراقية تؤديه العربية بعدة ألفاظ إن أمكنها تأديته بأمانة وبمعنى لا لبس فيه، وإن واضع المصطلح الأجنبي مخترع منطلق من لغته يبتدئ اللفظ ابتداء وبكل حرية ويجبر غيره على إيجاد معادل لغوي لما اخترع في لسان قد يختلف اختلافا شديدا عن لسانه في طرائق التعبير أو في المفاهيم، فيعجز عن ذلك أو يتجشم صعابا ترهقه.

ومما يجعل اللغات الغربية الراقية كالأنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والروسية أكثر مرونة من العربية خلوُّها من الإعراب والموازين الصرفية المقيدة واعتمادها النحت ونظام السوابق واللواحق، الذي يضفي على مصطلحاتها الدقّة ويسهّل اختراع اللفظ.. ثمّ إنّها من فصيلة واحدة وذلك ما يسهّل لها الاقتراض في الميادين العلميّة وما يجعل اللفظ واحدا أو كالواحد إذا خضع للتطويع الذي تقتضيه خصوصيّات اللغة.

وكلّ ما ذكرنا ممّا يعاب على اللغة العربيّة وهميّ أو غير بريء، أو ناتج عن قلّة تروّ في إصدار الأحكام أو عن جهل حقيقيّ يحتاج إلى تبصير.

فتعريف اللغة الحيّة بأنها المتداولة في الأوساط الشعبيّة وفي الرسميّات وفي الفنون والعلوم تعريف مدرسيّ تجاوزه الزمن ومنطق الأشياء ومتطلّبات العصر ومقتضيات الحياة.. فما أكثر اللغات الجارية على السنة أهلها وعلى أقلامهم وهي لم تكد تتجاوز طور البدائيّة.. اللغة الحيّة هي الخاضعة لسنن الحياة، لقانون السير والحركة والتغيّر والتحولّ، شأنها في ذلك شأن كلّ كائن حيّ.. هي التي تنشد التطوّر والنضج وفقا لنظم معيّنة تقتضيها طبيعتها، والواقع والتاريخ يشهدان على ذلك.. لكنّها لا تتطوّر إلاّ بتطوّر الوجدان والفكر والبيئة والمجتمع لأنّها صورة لكلّ هذا وهو صورة لها.. اللغة الحيّة مجموعة حقب لغويّة متسلسلة متعاقبة يصل بينها عامل مشترك وهو مسايرة العصر وتيسير حاجات المجتمع العمليّة واللغويّة.



أمّا ما جدّ من ألفاظ الحضارة والمصطلحات العلميّة والفنيّة فقد أثبتت اللغة العربيّة على مرّ العصور وبما لا يقبل الشكّ أنّها قادرة على استيعابه.. لقد كانت في آخر العهد الأمويّ وفي أوائل العصر العباسيّ وجها لوجه مع العلوم الإغريقيّة والأدب الفارسيّ والحكمة الهندية فما



لبث العلماء برعاية الخلفاء والوزراء وكلّ غيور على دينه ولغته أن نقلوا هذه الثقافات إلى العربيّة وأثروا بها تراثهم اللغويّ والفكريّ.

وجعلوا من حركتهم مثلا يحتذى من آثارهم الإبداعيّة أساسا للنهضة الغربيّة التي نُباهَى بها اليوم.. ولم تعترضْ سبيلَهم العربية بل كانت خير عون لهم بما أوتيتْ من مرونة و « من ثراء يضرب به المثل » والعبارة لأحد المستشرقين الفرنسيّين.. وهاهي المجامع العلميّة والمجالس العليا التي نصبت نفسها لخدمة اللغة والوطن والعلماء والباحثون الأحرار يقتفون أثر القدماء وينهجون النهج نفسه للحاق بركب الحضارة.. لقد أنجزوا الكثير الكثير وما وجد أحدهم العربيّة عائقا.

وأمّا المصطلحات العلميّة الجديدة المأخوذة من اللغات المذكورة فكثيرها من المشترك لا يحدّد معناه إلاّ السياق مثل اللفظ fixation: هو من مصطلحات طبّ النفس التحليليّ وله دلالتان مفصّلتان في المعاجم الطبيّة لا يميّز بينهما إلاّ مجرى الكلام.. هذا بقطع النظر عن استعمال الكلمة في مجالات أخرى من اللغة العامّة.. ومثله في الاشتراك اللفظيّ myélodysplasie يطلق على داءين مختلفين ؛ وهو مكوّن من ثلاث كلمات يونانيّة رُكِّبَتْ تركيبا مزجيّا.. ومثل هذا كثير في مختلِف الفنون والعلوم.. والترادف كثير كذلك في المصطلحات الطبيّة والفلسفية وغيرهما.. لكنّ هذا الترادف لا يضير إلاّ ما يضير الترادف بين الجرّ والخفض عند النحاة.

والحقيقة أنّ الغربيّين لجأوا في الاصطلاحات العلميّة إلى اليونانيّة كما لجأ إليها الرومان وإلى اللاتينية لأنهما مصدر لغات غرب أوربا ولأنّ هاتين اللغتين تبْعِدان المصطلح عن الهالات المعنويّة التي يمكن أن تحيط به لو أخِذَ من اللسان اليوميّ المعاصر.. وبذلك يصير علَما





أو كالعلَم الذي يجهل معناه.. ومن يعرف دلالات المصطلحات المشهورة الجارية على الألسنة منذ أكثر من ألفي سنة مثل الأوكسجين والهيدروجين والأزوت والسيروم (sérum)؟ ومعناها على التوالي في لغاتها الأصليّة: مولّد الصدإ، ومولّد الماء، ومضادّ الحياة، وعصير الجبْن؛ ولذلك ترجمت قديما بالمصدئ والمُميه والقاتل، وقالوا المَصْل وهو عصير الجبن.. فهذه المصطلحات العلميّة في اليونانيّة مأخوذة من لغة الشعب إلاّ أنّ استعمالها على مدى العصور بدلالات محدّدة ضبطها وأضفى عليها العالَمية ونوعا من العَلَميَة.. وجاء الغربيّون فوجدوا في اليونانيّة واللاتينيّة مَعينا لا ينضِب وطريقة مثلى لوضع المصطلحات العلميّة بحيث تكون هذه المصطلحات المأخوذة من اللغتين القديمتين اللتين لم يعد يفهمهما إلاّ النزر القليل ممّن درسهما، تكون مقصورة على مدلولها.. فكانت لهم الحرّيّة المطلقة في استعمالها والتصرّف فيها كما شاءوا ويحدّدون لها معاني لم يقل بها أحد من أهلها.. ومن ذلك ما يدخل في باب النوادر.. ذكر محمّد كامل حسين في محاضرة ألقاها في مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة في جلسة 19 / 12 / 1955، متحدّثا عن المصطلح الطبّيّ agranul ocytosis وهو متكوّن من أربعة أجزاء: النفَس والحبيبات والخلايا والكثرة.. والنفس والكثرة يصعب جمعهما في كلمة عاديّة ؛ ثم إنّ النفَس منصبّ على الحبيبات، والكثرة على الخلايا، وليس من السهل أن يُحَدّد ذلك في لفظ مألوف.. وقد يكون المعنى مضحكا في اللغة العاديّة.. فرأى العالِم البولنديّ (متشنكوف) بعد استشارته لأحد أساتذة اللغات الكلاسيكيّة أن يضع لها لفظا يونانيّا فاقترح عليه الأستاذ المستشار كلمة «أوبسونين» ومعناها في اليونانيّة «أحْضُرُ للأكل» وهي في الاصطلاح شيء في الدم يَعْلَقُ




بالجراثيم فيجعلها أسهلَ هضما على الخلايا التي وظيفتها القضاء على الجراثيم.. ومثلُ هذا المصطلح اللفظ العلميّ anaphyaxie: تعني في الإغريقيّة «غيبة حارس المدينة» وتستعمل في الطبّ لوصف الصدمة التي تحدث للأرنب حين يُحْقَن بطريقة خاصّة.. وكذلك فعلوا حين أخذوا المصطلح libidoمن الهيلينيّة ومعناه اللذة.. فعلوا ذلك لبعد اللفظ اليونانيّ عن المألوف.. وعقّب محمد كامل حسين بأنّ أرسطو لو بُعث واطّلع على هذه المصطلحات لظنّ بالعلماء المعاصرين الجنون أو الجهل.. وأعقّب بدوري قائلا: لو أنّه بُعث وعرف وظائف أخرى للهيدروجين لا سيّما في الحرب العالميّة الثانية وما بعدها لسمّاهُ باعث الخراب ومبيد الإنسانيّة لا مولّد الماء كما يعني اللفظ في لغته.



وفي العربيّة من المصطلحات وغير المصطلحات ما يشبه ذلك من نسيان أصل الكلمة في اللغة وأخذها بالمعنى المعاصر الذي آلت إليه في تطوّرها بمختلف وسائل التطّور.. «هاتف» كان يطلق على الذي يُسمع صوتُه ولا يُرى شخصُه وهو مقترن في الغالب بعالم الأرواح.. والعامّة عندنا تسمّيه القائل، فأصبح يطلق على الآلة المعروفة ولا يخطر ببال أحد أصل معناه.. هذا إن كان يعرفه.. وكذلك القطار والإمام والأديب والفنان والسيّارة والقنبلة والذرة والدّبّابّة والمدرسة وغيرها من الألفاظ القديمة التي نقلت من معانيها الأصلية إلى دلالات قلّ من يعرفها، ومنها ما لا يجرؤ اللغويّ على شرحه لإمام أو أديب أو فنّان ولو كان بينهما وشائج قربى وروابط صداقة.

ومثل هذا كثير في اللغات الغربيّة المعاصرة، ننطق بالكلمة فنظنها واحدة في أصل وضعها.. واحدة في دلالتها البعيدة.. ولنأخذ بعض الأمثلة كاللفظ Tennis الدّالّ على اللعبة المشهورة في الأوساط الرياضيّة



المعاصرة، المكوّن من لفظين إنجليزيين . lawn tennis . ومعنى الأوّل (lawn) خضيرة (أرض خضراء).. أمّا الثاني فمأخوذ عن الفرنسيّة tenez (خذ أو خذوا) لأنّهم كانوا يباشرون هذا النوع من الرياضة على الخضيرة ويقولون: خذ !(tenetz) بإنجليزيّة القرن الرابع عشر الميلاديّ.

ويقال في علمي الكيمياء والطبّ benzoate , benzine , benzéne

وما قارب ذلك من الألفاظ العلميّة ذات الجذر الواحد والدلالات المتعدّدة.. وهذا الجذر أخذ قديما عن العربيّة «لبان جاوة» وتسميه عامّتنا «الجاوي» بحذف الموصوف (اللبان).. دخل اللاتينيّة في العصور الوسطى بعدّة أشكال مثل (benzoe) ومنه البنزين في العربيّة المعاصرة.. وكلّ ما اشتقّ منه في اللغات الأجنبيّة بأثر من التطوّر العلميّ.



ومن ذلك كلّ الألفاظ القديمة لا سيّما الأعلام أصلية كانت في لغتها أم دخيلة.. وقد بيّن Edward Sapri في مقال بعنوان «اللغة والمحيط» أنّ أسماء المدن كلّما قدمت استغلق معناها إلاّ على المتخصّصين في تاريخ اللغة، وأورد أمثلة لذلك منها Sutton , Norflk , Essex مبيّنا أنها مكونّة من كلمتين وأنّ أصلها على التوالي: South Town north folk saxon East وأن أغلب الناس لا يراها إلاّ لفظا واحدا كالسمن والجبن (Traduction française in linguistique page 78 les éditions de minuit).

والحقيقة أنّ الكلمات في اللغات الغربيّة يكثر فيها النحت والاختزال وتُرسم كاللفظ الواحد فيخيّل للسامع أو القارئ أنّها وحدة لا تتجزأ، شأنها في ذلك شأن الكثير من ألفاظ لغتنا الدارجة.. مَن مِن العامّة ينتبه إلى أنّ الفعل حشلف، بمعنى ازدرد، مركّب من حشّ + لفّ، وأن الأمّ عندما تؤنّب ولدها باللفظ «إلين !؟» تقصد «إلى أين تبلغ بك الوقاحة ؟» لو كانت المرأة تعرف دلالة «هاي فيك !» لما وضعت



يدها على ذقنها متوعّدة أحد أبنائها، لأنّ معنى العبارة: « سأحلق لحيتي إن لم أعاقبك على فعلتك ».. وبعبارة أخرى: « لست كاملة الرّجولة إن لم أعاقبك ».. واللحية في عرف العرب من كمال الرجولة.. كم من أساتذة الأدب العربيّ يعرف معرفة دقيقة معاني الأعلام القديمة كجرير والفرزدق والأخطل والأصمعيّ والأقيشر والحطيئة وأبي الأسود الدؤليّ والشنفرى ورؤبة والعجاج ؟ وغيرهم كثير.

وادّعاؤهم بأنّ العربيّة فضفاضة غير دقيقة تدحضه المعاجم العامّة كالصحاح والتهذيب ولسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس والمخصّص، ومعاجم المصطلحات العلميّة والفنيّة وبخاصّة ما كان بثلاث لغات، والدراسات الخاصة قديمها وحديثها وما أكثرها !قلنا مثلا: « الجدّ والجدّة والعمّ والخال، وعبّروا عنها بكلمتين، وسمّينا من فقد أباه يتيما، ومن فقد أمه عجيا، ومن فقد أباه وأمّه لطيما، واستعملوا للّفظين الأولين ثلاث كلمات وللثالث ستّا.. وسمّينا مشقوق الشفة العليا «أعلم» ومشقوق الشفة السفلى «أفلح».. ومنه قول الشاعر القديم:

وأخّرني دهري وقدّم معشرا
على أنّهم لا يعلمون وأعلم
ومذ أفلح الجهّال أيقنت أنّني
أنا الميم والأيّام أفلح أعلم

ولنا العلمة والفلح وليس لهم في مقابل هذه الألفاظ الأربعة إلا – bec ed – liévre فإن أرادوا أن يقولوا أعلم لجؤوا إلى ستّ كلمات (Qui a la lèvre supérieure fendue) وكذلك الأمر في « أفلح ».. والأعنش في العربيّة من له ستّ أصابع ويقابله في الإنجليزية polydactilius وفي الفرنسية polydactyle وكلاهما مصطلح غير دقيق، مركّب تركيبا

مزجيّا يعني جزؤه الأوّل (Poly) «متعدّد» لذلك أبدل الفرنسيّون منه السابقة SIX وتعني العدد 6 والحقيقة أنّ معظم المصطلحات العلميّة إمّا منحوت وإما مركّب تركيبا مزجيّا وإمّا مكّون من عدّة كلمات قد تبلغ الستّ والسبع.. ونظرة سريعة في معجم النبات تبيّن ذلك بوضوح لاسيّما ما كان مصطلحا علميّا بأتمّ دلالته ويكون حينئذ باللاتينية.

في العربيّة كذلك نظام السوابق واللواحق والدواخل وبه توسّع اللغة ويدقق في المعاني.. ومن أمثلة ذلك: وزر للسلطان: صار وزيرا له، واستوزره: جعله وزيرا أو طلبه للوزارة، حسب ما يقتضيه السياق، و توزّر له: صار وزيرا له يحمل عنه الأعباء.. وهو على المجاز خلافا لوزر.. وفيها النحت بأضربه، وهو قليل بالنسبة إلى اللغات الهنديّة الأوروبيّة، ولذلك دعا العلماء المعاصرون إلى التوسّع فيه لجعل اللغة أكثر مرونة لا سيّما فيما يتعلّق بنقل ما جدّ في العصر الحاضر من المعارف.. وقد بدأ النحت ينمو يوما بعد فصرنا نقول: قروسطي، نسبة إلى القرون الوسطى، ومجتمهني، بمعنى مختصّ بالمجتمع المهنيّ.. وكان العرب سبقوا إلى هذا النوع من التركيب.. قالوا: مشلوز (من المشمش واللوز).. وإمّعة (إني معك)، وعبدر (بنو عبد الدار) وعبدريّ (من بني عبد الدار وبلقين (بنو القين) وتيمليّ (من تيم اللات).. و مروزيّ (من مرو الشاهجان).. ومرقسيّ من امرئ القيس.. كما قالوا بأثر من الدّين أو خارجه: بسمل وحسبل (حسبي الله) ودمعز (أدام الله عزك) وكبتع (كبت الله عدّوك) ومشكن (ما شاء الله كان) وجعفد.. جعفل.. جعلف (جُعلت فداك) وتويّل (قال يا ويلي!) وأيّهه، صاح به (أيّها الرجل!) والأمثلة على ذلك كثيرة.

ومن وسائل العربيّة في الإيجاز ممّا تصعب ترجمته بلفظ واحد المثنّى الدالّ على كائنين غير متشابهين لكنّهما متلازمان أو بينهما علاقة شبه





أو غيره: القمران والسعدان (المشتري والزهرة) الخافقان أو المشرقان، والمشرقان والمغربان (أقصى الأمكنة التي تشرق وتغرب فيها الشمس صيفا وشتاء) والأعميان (السيل والحريق)، والأمرّان (الفقر والهرم)، والأقطعان (السيف والعلم) وما إلى ذلك ممّا يعد بالمئات وما صُنف فيه العشرات من الكتب.

ومنها ما دقّ معناه واختير له لفظ واحد أو لفظان ممّا لا نكاد نجد له مثيلا في لغات العالم المتمدّن: كالخثعمة وهي اجتماع قوم يذبحون ويأكلون.. ثمّ يجمعون الدم فيخلطونه بالطيب ويغمسون أيديهم فيه ويتعاهدون ألاّ يتخاذلوا.. وتجابّا: تزوج كلّ منهما أخت الآخر، والمثقّى من مات له ثلاث زوجات أو أكثر، وناء النجم سقط في الغرب مع الفجر وطلع آخر يقابله في الشرق.. فإذا ما انتقلنا إلى الألفاظ المشتقّة من الأعداد من الثلاثة إلى العشرة بصيغها المطّردة ودلالاتها القياسيّة وبحثنا عمّا يقابلها من الكلمات في اللغات الغربيّة لم نجد إلاّ النزر القليل منها لأنّهم ينقلونها تارة بخمسة ألفاظ أو ستّة.. وقد قمنا فعلا بالعمليّة.. ومثل هذه الكلمات الدقيقة في معانيها تعدّ بالمئات في المعاجم العربيّة.. أيقال بعد كّل ما رأينا أن العربيّة غير دقيقة في أصول وضعها؟



ولا نريد أن نظلم القوم أو نفضّل العربيّة على غيرها من اللغات.. فإن الألسنة متكافئة ولكلّ منها عبقريّته وطريقته في الأداء.. إنّما أردنا أن نرفع عن لغتنا التزيّد في القول ورميها بالعقم وهي الولود المنجاب.. ولم نقصد كذلك إلى تهوين عمل شاقّ كنقل العلوم والفنون في ظروف قاسية لا ترحم أحدا وفي عصر يتّسم بسرعة الإنجاز وباختراعات مذهلة لم تكن تحلم بها البشريّة ولا قبل الضعفاء والمستضعفين بله المتوقّفين الوالهين المشدوهين عن التحقيق بالمساهمة فيها وفرض وجودهم على



معاصريهم.. وكثيرا ما نجد في مطالعاتنا الباحثين في مختلف المجالات يصرّحون بصعوبة نقل مفهوم من المفاهيم أو تعبير أو مجرّد لفظ لعدم وجود ذلك في لسانهم.. وقد يكون الخطب أشدّ كلّما ابتعدت الحضارات وطرائق التفكير ووجوه التعبير.. وبقدر ما تختلف التجارب وأنماط الحياة والمحيط المتقلَّبُ فيه يختلف التناغم والتجاوب بين العقول والأذواق لاسيّما في الأدب والفنون.. لذلك كان نقل الآثار الأدبية الفنيّة من لسان إلى آخر وبجمالها الأصيل يشبه المستحيل إن لم يكن المستحيل نفسَه.. أمّا نقل العلوم مهما دقّت والتكنولوجيا على حداثتها وتنوّع ابتكاراتها فأقلّ وطأة.. والأمر نسبيّ على كلّ حال.. وللعربيّة ما للغات الغربيّة الحديثة الراقيّة من الوسائل التي تكفل لها النجاح في مواكبة الحاضر والأخذ بأسباب الحياة المعاصرة.. ولن يكون ذلك إلاّ بالإرادة الصادقة والعمل الدؤوب وتوحيد الجهود وتشجيع الكفاءات.

العربيّة من اللغات الساميّة تطوّرت عبر آلاف السنين تطوّرا طبيعيّا لا نعرف كنهه.. وكانت في الجاهليّة لهجات متباينة قرّبت بينها الأسواق التجاريّة كأسواق عكاظ وذي المجاز ومرّ الظهران والمفاخرات الأدبيّة التي كانت تعقد فيها ومواسم الحجّ وغير ذلك ممّا لا علاقة له بموضوعنا.. إلى أن تكونّت لغة مشتركة يسّرت التواصل اللغويّ بين العرب.. وهي إعرابيّة اشتقاقيّة تتصرّف إلى أقصى حدود التصرّف ؛ وذلك ما جعلها مرنة طيّعة.. وهي أيضا ثريّة يضرب المثل بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، لم يستطع أحد حصرها ولا معرفة مقدار ما لم يدوّن منها.. وكل نعلم أنّ ابن منظور جمع منها في « اللسان » ثمانين ألف مادّة وأنّ الفيروزأباديّ أورد في قاموسه ستين ألفا.

ويكمن ثراؤها في موازينها الصرفيّة وتعدد معانيها ومقدرتها الفائقة على



تفجير الدلالات وتأدية الفروق الدقيقة.. فيها المصدر بأنواعه الثلاثة، وما يفيد بمجرّد صيغته الفاعليّة والمفعوليّة والمكان والزمان والمرّة والنوع والآلة والتصغير والصفة والمبالغة والنسبة وفيها الفعل بموازينه التي تربو على الخمسين إن عددنا ما دُعي بالإلحاق من هذه الموازين.. ولكلّ وزن معان مطّردة تبلغ الأربعة عشر أحيانا كمعاني فعّل وأفعل، وببنائه للفاعل أو للمفعول.. وفيها التضمين وبخاصة في الحروف، وقد أسهب القدماء في دراسته كابن هاشم والهرويّ.

وكان الجاهليّون منذ عصور موغلة في القدم يهذّبون لغتهم ويصقلونها حسب أذواقهم وبطريقة عفويّة معتمدين في ذلك ما يجعلها خفيفة على السمع سهلة على اللسان سائغة جميلة.. لجأوا في ذلك إلى أساليب شتى من الإبدال والإعلال والحذف والزيادة والقلب والإدغام ومن تجنيبها عدم الانسجام في مفرداتها وتراكيبها وعدم اللّبس في التعبير، كما أثروها بوسائل متنوّعة من الاشتقاق والتوسّع في الدلالة وبالنقل وضروب التشبيه والمجاز والاستعارة.. وأخذوا الكثير عن غيرهم كما أعطوا الكثير.

تلك اللغة التي نزل بها الوحي، فزاد في ثرائها لأنها لم تسع مفاهيمه الجديدة عليها كلّ السعة.. فطوّعها وثبّتها ورعاها وكساها الخلود ومازالت في كنفه إلى يومنا هذا ولولاه لتطوّرت تطورا طبيعيّا واندثرت كغيرها من اللغات القديمة وأدال الله منها اللهجات المحليّة المعاصرة.

انتشر الإسلام فوحّد العرب ومهّد لهم السبيل لتأسيس دولة قويّة ومكّنهم في الأرض فنشروا عقيدتهم فاعتنقتها شعوب متباينة في أعراقها مختلفة في لغاتها متنّوعة في حضاراتها.. وما كاد يمضي القرن الأول الهجريّ حتّى تكوّنت إمبراطورية إسلاميّة مترامية الأطراف وفي أمسّ الحاجة إلى التطوّر الاجتماعي الثقافيّ والأخذ بأسباب الحضارة والذبّ



عن الدين واللغة وكانت تحاصرهما أديان ولغات سبقتهما إلى الوجود وإلى التمرّس بفنون الكفاح.. ونحن اليوم نعيش التجربة نفسها ونعاني ما عانوا من مشاقّ وندرك كما أدركوا أنّ الحياة للجدير بالحياة وأنّ البقاء للأصلح.. هبّ المسلمون للتعمّق في فهم دينهم تدعمهم في ذلك الدراسات اللغويّة والأدبيّة والتاريخية بالمفهوم القديم.. وما انتهى القرن الرابع الهجري حتى تأسست العلوم الإسلاميّة وجُمعت اللغة وقُعِّدت لها القواعد العامّة والخاصة وأُحصيت مفرداتُها وحُصرت تراكيبُها وعُرف مؤتلفُها ومختلفُها ومطّردها وشاذّها ودُرست مقاييسها وأسرار دلالاتها واتخذت القرآن منهجا فأخذت بمبدأ التوسّع في دلالة الألفاظ.. وكان ذلك فتحا جديدا على العلوم اللغويّة سمح بأخذ المصطلحات من البيئة مهما كان الفنّ ومهما كانت صعوبتُه.. فمصطلحات علم الكلام والأصول والفقه والحديث والنحو والصرف والعروض والبلاغة والموسيقى، وما إليها مأخوذة من اللغة اليومية العامّة، مستعملة في فنّها بمعان خاصة أعطتها الحركة العلميّة الغزيرة المتدفّقة طابع المصطلح الدقيق.. ولا أدلّ على ذلك من مصطلحات العروض الذي اخترعه الخليل واختار ألفاظه الخاصة به ممّا لا يجهل معناه اللغويّ عربيّ أصيل عريق في بداوته أو في حضارته.. من ذلك البحور وأسماؤها كالطويل والمديد والبسيط والهزج والكامل، والبيت وأجزاؤه كالشطر والصدر والعجز والعروض والضرب والصحيح والسالم والموفور والمعرّى والفصل والغاية، والتفاعيل وأجزاؤها كالسبب والوتد والفاصلة، والزحافات وأقسامها والعلل وأنواعها، والمعاقبة والمراقبة والمكانفة، والقوافي وحدودها كالمترادف والمتواتر والمتدارك والمتراكب والمتكاوس أو حروفها وحركاتها.. والمصطلحات البلاغيّة مأخوذة كلّها من اللغة العامّة بدلالات جديدة لا يعرفها إلا المتخصّص في الفنّ..





من ذلك البديع والحقيقة والمجاز والكناية والاستعارة والإيغال أو التبليغ والتورية والجناس والطباق والتصدير والمقابلة والتضمين والإجازة وما إليها ممّا يُعرف في أبواب البلاغة.. هل ينكر أحد أنّ هذه مصطلحات دقيقة لا يدركها إلاّ من درس الفنّ وأنّ العربيّ القديم لا يفهمها إلاّ بمعناها اللغويّ؟ ألم يُرْوَ مثلا أنّ كتاب العروض للخليل عندما اطّلع عليه أهل الأندلس لم يفهمه أحد منهم ما عدا زريابا علي ابن نافع نابغة زمانه في الموسيقى والغناء؟ ألا يبدأ المؤلّفون القدماء وكثير من المحدثين بتعريف المصطلحات في دلالتها أو دلالاتها اللغويّة ثمّ يذكرون معناها في فنّها.. ألا يعني لفظ «الحرف»، فيما كان يعني، مجردّ «الكلمة» اسما كانت أم فعلا أم حرفا، ثمّ صار في علم النحو مصطلحا دقيقا في أداء معناه؟ وهل يعرف غير المختصين أن اللفظ verbe في النحو الفرنسي أصل معناه في اليونانيّة «كلمة» لأن اليونان كانوا يعدّون الفعل أهمّ ألفاظ الجملة؟ وقد بقي هذا المعنى في تعابير فرنسيّة كثيرة.

أريد أن أقرّر مبدأ علميّا سبقني إليه الكثير وبرهنت عليه التجارب عبر القرون وبصفة خاصّة العصر الحاضر بحركته العلميّة المدهشة المذهلة التي ضيّقت علينا الخناق فجعلتنا لا نعدو طور الترجمة ووجدنا أنفسنا في قفص يصعب الخلاص منه إلاّ بجهد جهيد وببذل النفس و النفيس كما يقال.. فاللغة لا تكون حرّة طليقة منتفعة بكلّ طاقاتها إلاّ إذا كان أهلها علماء منتجين مخترعين يغترفون من موارد لسانهم بكلّ حريّة وبسهولة فائقة كما رأينا آنفا.. والحضارة الإغريقيّة أو الفارسيّة أو الهنديّة أو الرومانيّة أو الإنجليزية أو الألمانيّة لم تُعرف أصالة إلاّ بلغة أصحابها ولا تُصدّر إلاّ بهذه اللغة أو بالنقل المضني وكلا الأمرين أحلاه مرّ.

كانت الدواوين في العصرين الإسلاميّ والأمويّ باللغات الأجنبية المحلّية: بالفارسيّة في العراق وفارس، وباليونانيّة في الشام، وبالقبطيّة واليونانيّة في مصر، وكان كتّابها من الموالي.. وفي خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجّاج بن يوسف بدأ تعريب هذه الدواوين بالتدرّج، وبقي عمّالها من المعاهدين لكفاءاتهم الإداريّة، وأخذ العلماء على عاتقهم تحسين مستواهم في اللغة العربية وتوسيع أفقهم لِمَا كان لهم مجالات متنوعة في أعمالهم.. وقد بيّن ذلك عبد الحميد الكاتب في رسالته الشهيرة للكتّاب.. وممّا جاء فيها: «فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقّهوا في الدين وابدؤوا بعلم كتاب الله عزّ وجل، والفرائض، ثم العربيّة فإنها ثِقاف ألسنتكم واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسِيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم.. ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتب الخراج.. » وكل كتاب دُعي «أدب الكاتب» أو «أدب الكتّاب» في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة كان يرمي إلى هذه الغاية.. وبقيت العناية بتثقيف الكتّاب ورفع مستواهم إلى القرن التاسع حيث ألّف لهم القلقشنديّ أحمد بن علي (ت.. 838) كتابه الشهير «صبح الأعشى في قوانين الإنشا» أربعة عشر مجلّدا، تناول فيه فنونا عديدة من التاريخ والأدب ووصف البلدان والممالك (يرجع إلى مجلة المشرق، 516 / 9).

جاءت الدولة العبّاسيّة في القرن الثاني الهجريّ وكان الحضارة الإسلامية بمنجزاتها و بما اكتسبت من طاقات قطعت أشواطا بعيدة.. وكان العامل الدينيّ القويّ وامتزاج الشعوب المعتنق أكثر أفرادها للإسلام وتكاثر المولّدين وتجاور الأديان والثقافات في مابين السند وفرنسا وتتابع الفتوح وحاجة الدولة إلى التمكين لنفسها بأنجع السبل، كلّ ذلك

أحدث نشاطا ثقافيّا منقطع النظير وحركة فكريّة رعاها الخلفاء منذ عهد المنصور، والوزراء كالبرامكة ومن خلفهم والأمراء والولاة ومن لفّ لفّهم.. بل انتقل هذا النشاط بروحه السامية المتوهّجة الوثابة إلى الطبقة الممتازة من الشعب كلّه ورغب الناس في التعلّم والتعليم والتأليف والاطّلاع على الثقافات القديمة والحضارات المعاصرة ونقلها إلى الحضارة الجديدة وإلى اللغة العربيّة.. وأشرف الخلفاء أنفسهم على تنظيم هذه الحركة الفكريّة وتوفير الوسائل لها بإنشاء المراكز الثقافية كدار الحكمة على عهد المأمون وعلى اقتناء الكتب وعلى تسهيل نقلها بمكافآت قد لا تخطر اليوم ببال أحد منا.. أورد ابن أبي أصيبعة عن مصادر قديمة أنّ المأمون كان يعطي حنين بن إسحاق من الذهب زنة ما ينقل إلى العربيّة (عيون الأبناء، ص 260).. ومهما تكن صحّة هذه الرواية فإنها تبيّن مقدار تشجيع الخلفاء لحركة النقل.. وما أثبت ذلك إلاّ لأبيّن البون الشاسع بين مجتمع الأمس ومجتمع اليوم.. وكان النقلة يجوبون أقاصيّ البلاد للبحث عن الكتب النفيسة التي ينقلونها من لغاتهم الأصليّة كالهنديّة والفارسيّة واليونانيّة والسريانيّة الرومانيّة والقبطيّة.. ومنهم من تعلّم عدّة لغات ليقابل بين النصوص المترجمة عن لغة ثانية وبين النصوص الأصليّة.. أمّا ما نقلوا من آثار فلا يمكن حصره في هذه العجالة وليس من اهتماماتنا.. ومن أراد الاطّلاع عليه فليأخذه من مظانّه كالفهرست لابن النديم، وإخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطيّ، وعيون الأبناء في طبقات الأطبّاء لابن أبي أصيبعة والموسوعات والدراسات المفصّلة وهي وافرة في العربيّة وفي اللغات الأجنبيّة.

الذي يعنينا أنّ العلماء نقلوا في تلك العهود المئات من الكتب في شتّى ميادين المعرفة وألّفوا عشرات الآلاف منها، وأنّهم وجدوا في العربيّة





أداة طيّعة مرنه فإن استعصى عليهم شيء طوّعوه لها أو طوّعوها له والثّاني قليل، لكنّه زادها مرونة وأثراها بألفاظ وتراكيب جديدة.. أمّا المفردات التي لا يوجد لها ما يقابلها في العربيّة فتبنّوها بصيغتها الأجنبيّة وذلك قليل أو أعطوها الصيغة العربيّة –وهو الغالب – ويدعى اللفظ معرّبا.. وقد ألّفوا في الدخيل والمعرّب.. ومن ذلك «المعرّب» للجواليقيّ موهوب بن أحمد (ت 539)، و «المعرّب والدخيل» لمصطفى المدني (ذكره البغداديّ في «إيضاح المكنون»: 4 / 512)، وبيّنوا القواعد التي تضبطهما.. ومن الدخيل في مؤلفات ابن سينا الطبيّة الأرؤطيّ لما يسمّيه العرب الوتين أو الأبهر لأنّ ابن سينا لم يكن يتحرج كثيرا في استعمال الألفاظ الأجنبيّة ولو كان لها مقابل في العربيّة.. مع أنّ الأرؤطيّ لا يعدو أن يكون معناه» المعلّق «وكان يطلق قبل أرسطو على القصب الرئويّ فأطلقه صاحب المنطق على الشريان الرئيس في القلب (aorte).. ومن المعرّب المهندز أو المهندس والفلسفة وغيرهما كثير.. وليس من موضوعنا حصر الألفاظ الدخيلة والمعرّبة.. وأحدثت حركة النقل صيغا وتراكيب جديدة كالمصدر الصناعيّ مثل الإنسانيّة والمثاليّة والغائيّة والشخصيّة وإدخال أداة التعريف على الضمائر والحروف والجمل وغير ذلك ممّا لم تعهده العربيّة فقالوا: الأنا، والأنانيّة، والكمّ، والكميّة، والكيف، والكيفيّة، واللاّوعي، واللاّأدريّة وأصلها «لا أدري».. وفصلوا بين المبتدأ و الخبر بالضمير مثل «الاسم وهو ما دلّ على...».

دخلت اللغة العربيّة إلى الحضارات القديمة من بابها الواسع وخرجت قويّة واسعة فأصبحت لغة الدين ولغة العلم والفلسفة والأدب واضمحلّت بجانبها كلّ اللغات التي احتكّت بها بعد الفتوح.. وتأسّست حضارة عربيّة تطوّرت قرنا بعد قرن وشهد لها العالم بالنبوغ والعبقريّة وبأنّها كانت



أساسا للحضارة الغربيّة في أوّل نهضتها، لأنّ الغربيّين نسجوا على منوال العرب.. نقلوا إلى لغاتهم كلّ ما ورثوا وكلّ ما استباحوا من الآثار العربية.. وهم أول من ألّف في ذلك ومن اعترف بأن العرب لم يكونوا مجرّد نقلة للعلم القديم، بل كانوا السبّاقين إلى تمثّله بالمعنى العلميّ للكلمة والإفادة منه وتمحيصه ونقده نقدا بناء وتطويره تطويرا لا ينكره إلاّ مكابر أو جاهل.. يقول يوهان فك: «ولقد برهن جبروت التراث العربيّ التالد الخالد على أنّه أقوى من كلّ محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربيّة الفصحى عن مقامها المسيطر.. وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ أيضا بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنيّة الإسلاميّة ما بقيت هناك مدنيّة إسلامية» (العربيّة، ص، 234).



وهل كان من الممكن أن تستوعب العربيّة هذه الثقافات العميقة الراسخة في أسمى الحضارات البشريّة لولا تطوير أهلها لها وحدبهم عليهم وسهرهم على صفائها؟ ألم يرووا أنّ أعرابيّا دخل السوق ببضاعة لم يفلح في الترويج لها وسمع بعض الأعاجم يلحنون فتعجبّ من ذلك وقال: سبحان الله !يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح !« وهذا اللحن الناشئ عن دخول غير العرب في الإسلام واستعمالهم للعربيّة في التعامل الرسميّ أو عند الاضطرار كان الباعث على الدراسات اللغويّة التي مازالت تبهر الأجانب حتى قال المستشرق الفرنسيّ بلاشير: «لم أجد على وجه البسيطة من درس لغته كما درس العرب لغتهم..» وقال في النحو العربيّ «إنه نحو مثاليّ».

وجاء عصر الانحطاط العربيّ والنهضة الغربيّة فنقل الغربيّون حضارة العرب وبعض المصطلحات العلميّة المثبت أصلها في معاجمهم.. بل دخلت لغاتِهم ألفاظ يصعب التنبّه يصعب التنبّه إلى أنها مأخوذة من



العربية لما أصابها من تحريف تقتضيه طبيعة لغتهم مثل Vega (النسر الواقع) و arsenal (دار الصناعة) و Siropشراب و sorbet (شربة) tambour , tabouret وكلاهما من الطبل فيما تنصّ عليه المعاجم الفرنسيّة أو من الطنبور وهو من آلات الطرب ذوات الأوتار كالقيثارة، وهلمّ جرّا كما يقال.

واستيقظنا من سباتنا العميق في القرن التاسع عشر فوجدنا أنفسنا متأخرين بسبعة قرون.. وأحاط بنا الأعداء من كلّ جانب، وتتابعت علينا السنون، واستُعبدنا ووهنّا لما أصابنا واستكنّا وحوربت لغتنا في عقر دارها إلى أن صحونا من غفلتنا وحرّرنا بلادنا ولغتنا وسائر مقدّساتنا.. وبقي الجهاد الأكبر.

ظهرت الصحوة الأدبية اللغويّة في البلاد العربيّة في مصر على عهد الخديويّ إسماعيل باشا بن إبراهيم بن محمد علي الكبير، منشئ المكتبة الخذيويّة المصريّة والجاعل من العربيّة الفصحى اللغة الرسميّة للدولة، بعد حكم عثماني دام ثلاثة قرون ونصف كانت فيها السيادة للأتراك والتركيّة.. وتطور الأدب واللغة تطوّرا ملحوظا بالبلاد العربيّة وبخاصّة في لبنان وفي مصر.. ونشطت الحركة الثقافية بانتشار التعليم على نطاق واسع وبفضل التأليف وظهور الصحافة وإرسال البعثات إلى الخارج والاحتكاك بالأجانب والاطّلاع على المدنية الغربية عن كثب والشروع في نقل بعض آثارها وظهور فنّ المسرح.. لكنّ اللهجات المحلّيّة واللغات الأجنبيّة كانت تزاحم الفصحى وتكوّن خطرا حقيقيّا عليها.. يضاف إلى ذلك رغبة أكيدة عند المثقفين في الأخذ بأسباب التقدّم والرقيّ مع الحفاظ على الأصالة.

وكان لزاما على العرب أن يفكّروا في إنشاء مجامع علميّة على غرار الأكاديميّات في أوروبّا.. وكان أحمد فارس الشدياق أوّل من فكّر في





ذلك حوالي سنة 1870.. وغذّى الفكرة من جاء بعده، غذّوها بجهود متواصلة فأُسّست عدة مجامع خاصّة لم تلبث أن زالت لعدم دعم الدول لها.. ثم أُنشئ تباعا المجمع العلميّ بدمشق (1919) ومجمع اللغة العربية بالقاهر (1932) والمجمع العلميّ العراقيّ (1947) ومكتب التعريب1961 ومكتب تنسيق التعريب التابع للجامعة العربية 1964، وكلا المكتبين بالرباط، والأكاديميّة الملكيّة بالمغرب 1977 والأكايميّة الجزائرية الحديثة التأسيس.

وبما أن موضوعنا العربيّة ومدى استيعابها للثقافات رأيت أن أقصر الحديث عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ومهمّته الأساس تطوير اللغة العربيّة وتمكينها من مسايرة الحضارة المعاصرة مع المحافظة على أصالتها.. ومن أهدافه المرسومة وضع معجم تاريخيّ كبير للعربيّة، ومعاجم خاصّة للعلوم والفنون، ودراسة السيميائية العربيّة واللهجات المعاصرة.. أمّا ميادين نشاط لجانه التسع وفقا لاختصاص أعضائها واهتماماتهم فالعلوم الاقتصاديّة، والأصول العامّة، والرياضيّات، والعلوم الطبيعيّة، والكيمياويّة، والبيولوجيا والطبّ، والآداب والفنون، والمعاجم، واللهجات، والمجلّة، والمكتبة.. ولقد قدّم المجمع خدمات جلّى للثقافة وللغة العربيّة ووضع الآلاف من المصطلحات وألفاظ الحضارة في شتّى مجالات المعرفة إلاّ أنّ مشاكله عديدة وهي مشاكلنا كلّنا وأهمّها:

- انقطاع العرب عن الإنتاج العلميّ الأصيل منذ ما يناهز السبعة قرون.. وقد رأينا أنّ اللغة لا ترقى إلاّ برقيّ أهلها ولا تكون طليقة وأهلها مقّيدون، وأنّ مشكلة المصطلح لا تطرح بحدّة إلاّ في نقل ثقافة أجنبيّة.

- أنّ العلوم في تطوّر مستمرّ وأن ميادينها المتشعّبة تتّسع وتتعدّد بسرعة مذهلة.





- اختلاف اللغات المنقول عنها، والتأليف الفوضويّ، وقلّة التنسيق بين المؤلفين، وعدم رعاية الحكّام رعاية مباشرة للحركة الفكرية العلميّة مثلما رعاها الأوائل أمثال المنصور والرشيد والمأمون وبنو حمدان.

- أنّ القدماء كانوا في كنف دولة واحدة وكانوا أمكن منّا في اللغة العربيّة وأنشط إلى التأليف والبحث والتمثّل للعلوم المنقولة وتطويرها وأشدّ حرصا على الإبداع لا يعترضهم في ذلك معترض ولا يعوقهم في سبيل تحقيق آمالهم عائق إلاّ فقدان الوسائل المتوفّرة لدينا اليوم كالطباعة والوسائل السمعيّة البصريّة وسرعة التنقّل وكلّ ما جعل من العالم المترامي الأطراف رقعة صغيرة يسهل التواصل بين سكّانها.. وكان العلماء المسلمون يتنقّلون بين الأندلس وبغداد في مملكة واحدة لا يحتاجون إلى تأشيرة دخول أو مرور من صقع إلى آخر، وكانت المسافات بعيدة والأسفار مضنية لكنّهم كانوا يشعرون بأنهم في دار واحدة هي دار الإسلام ولا يعدّون أنفسهم غرباء لما كان يقدّم لهم إخوانهم في الدين من حفاوة تُنسيهم ما كابدوا من مشقّة في رحلاتهم الطويلة التي لم يكونوا يقصدون بها إلاّ طلب العلم واكتساب المزيد من المعرفة.



- أنّنا نُجابه اليوم أضعاف ما كان يجابه العرب والمسلمون وإن كنّا في نفس الوضع.. واجهوا حضارات توقّف أهلها عن الإنتاج كالحضارتين الإغريقية والفارسية أو ثقافات يسهل التغلّب عليها بالجدّ الجادّ والعمل الدؤوب والجهود المتضافرة المنظّمة.. وتفرض نفسها علينا ثقافات كثيرة معاصرة متطوّرة يوما بعد يوم كما أسلفنا، ثقافات ضنين أهلها بها علينا إلاّ بما يجعلنا تابعين لهم شئنا أم أبينا، ضاربين علينا بتفوّقهم طوقا نتخبط فيه، جاهدين في تفريقنا بما لا تحمد عقباه وقد نجحوا في ذلك نجاحا محققا.



- على الناطقين باللسان العربيّ أن يكونوا أكثر وعيا ممّا هم عليه اليوم ويحدّدوا غاياتهم بوضوح كامل ويوحّدوا جهودهم للدخول في الحضارة المعاصرة من بابها الواسع ولن يكون ذلك إلاّ بتوسيع المجالات الثقافيّة، والتفتّح على العالم المتمدّن تفتّحا حقيقيّا مع المحافظة على الأصالة، والإسهام في الإبداع العلميّ والتقنيّ باكتساب المهارات المؤهّلة لذلك.

صفوة القول أنّ اللغة العربيّة ثريّة إلى أقصى حدود الثراء مرنة طيّعة لها من المميّزات ما يجعلها قادرة على استيعاب الثقافات والحضارات المعاصرة كما استوعبت قديمها وخدمت به البشريّة بعدما تمثلته وطوّرته، لكنّها تابعة لأهلها ككلّ لغة.. فالمجتمع المتوقّف الراكد لغته متوقّفة راكدة.. واللغة الحيّة كما أسلفنا هي الخاضعة لسنن الحياة المتطوّرة تطورا مستمرّا بتطوّر الوجدان والفكر والبيئة والمجتمع.. والحقيقة التي لا مراء فيها أنّ اللغات متكافئة لا فضل لإحداها على الأخرى وأنّ العجز في الإنسان لا في اللسان.







اللغة والمحيط

د إدوارد سابير

كثيرا ما يرجع الباحثون معظم عناصر الثقافات البشريّة، على اختلاف عصورها وأماكنها، إلى المحيط الذي يتقلّب فيه أصحاب هذه الثقافات.. بل منهم من يقصر كلّ ظواهر فكر المجتمع وظواهر حياته على البيئة الطبيعيّة لتحكّمها في طباعه وطرائق تفكيره وفي لغته ومعطيات حضارته.. ولا أحاول أن أتّخذ موقفا بالقبول أو بالرفض من سلطان المحيط على الطباع وعلى الثقافة أو أبيّن العوامل التي تعترض سبيل هذا السلطان إن وجد.. لكنّني لا أرى مبرّرا لتعليل ثقافة بشريّة بمجرّد تأثير البيئة الطبيعيّة لأنّ البيئة الطبيعيّة لا تؤثّر بطريق مباشر إلاّ في الفرد.. فإذا ما بدا لنا أنّ هذا المجتمع أو ذاك صورة لبيئته ونتيجة لها وجب أن نعلّل ذلك بامتزاج العوامل الطبيعيّة المتحكّمة في الفرد وبتطوّرها وامتدادها إلى المجموعة التي ينتمي إليها.. ولا يعني ذلك أنّ تأثير البيئة ينتقل من الفرد إلى المجتمع.. إنّما الأقرب إلى الواقع أن نقول إنّ هناك عوامل متداخلة متكاملة مؤثرا بعضها في بعضٍ متطوّرة، وإنّ تأثير المحيط الطبيعيّ ولو في أبسط المجتمعات لا يخرج عن أمرين: إمّا أن تتبنّاه القوى الاجتماعيّة وتحميَه وإمّا أن تحوّره.. فلا مجال إذن لاعتقاد أنّ للبيئة السلطان المطلق على الثقافة والطبائع البشريّة.. ثمّ إن هذه العوامل الاجتماعيّة تتضافر مع العوامل الوراثية لتكوّن قوى متوازية تنتقل عبر الأجيال وتتطوّر متأثرة بالبيئة وبما يحدث للمجموعة في تاريخها.. وكلّ ذلك يزيد الأمر





تعقيدا ويجعل الدّارس عاجزا عن معرفة أصول الثقافة وإدراك تطوّرها في المجتمع أيا ما كان هذا المجتمع.. والأولى أن نخصّص لفظ المحيط للعوامل الطبيعيّة الخارجة عن إرادة الإنسان وعن قدرته.. فإذا ما تناولنا بالبحث علاقة اللغة بالمحيط وجب أن نوسّع دلالته ليشمل كذلك العنصر الاجتماعيّ لأنّ اللغة تصور المجتمع والبيئة الطبيعيّة التي تكتنف حياته.. فالمحيط بالمعنى الأول طبيعة البلاد من جبال ووهاد وسهول وهضاب وأنهار وشواطئ وغابات وصحارى وطقس، وما بها من معادن ومن مختلف النبات والحيوان.. والمحيط الاجتماعيّ يشمل أثر المجتمع في حياة الأفراد وفي أفكارهم.. وممّا يؤثر به المجتمع في الفرد الدّين والقيّم الخلقيّة والنظام السياسيّ والفنّ.



فإذا ما فرضنا، ولو بصفة مؤقّتة، أنّ للبيئة تأثيرا مباشرا على اللغة، فمن الطبيعيّ أن تعكس هذه اللغة العاملين الأساسّيين اللذين حدّدناهما.. والحقيقة أن العامل الطبيعيّ المحض لا قيمة له بل لا وجود له إلاّ متأثّرا بالعامل البشريّ فقد يكون في الطبيعة حيوان كثير ونبات لا حصر له وصخور ومعادن وتباين في طبيعة الأرض: جبال ووهاد وهضاب وسهول ومناطق بحريّة وفلوات وطقس شديد التقلّب، ولا تجد لذلك إلاّ أثرا باهتا في اللغة والمفروض أن تكون هذه اللغة صورة وفيّة لما يكوّن بيئتها وأن يوجد فيها من الألفاظ ما يدلّ على كلّ أجناس طبيعتها الصامتة والناطقة.. ذلك أنّ العامل الطبيعيّ الصرف تابع للعامل البشريّ في المجال اللغويّ.. فلا يهمّ اللغة إلاّ ما يهمّ المجتمع.. فالنبات الضروريّ لغذائه أو لعلاجه أو لزينته والحيوان الذي يقتات به أو يصحبه في حلّه وترحاله والأرض التي يتعامل معها مهما كانت طبيعتها، كلّ ذلك نجد له صدى في معجمه.. أمّا ما لا صلة له باهتماماته فلا أثر له في لسانه.



ما على الدارس إلاّ أن ينظر في معجم من معاجم لغة ما قديمها أو حديثها ليعرف نمط حياة أهلها وطبائعهم واهتماماتهم ومعارفهم وعاداتهم ومعتقداتهم ومثلهم العليا في فلسفة أخلاقهم.. ولنوضّح الفكرة بمثالين: بمجتمعين متباعدين في الموقع الجغرافيّ والمستوى الحضاريّ، وليس بينهما وشائج قربى من الناحية اللغويّة.. أحدهما من الهنود الحمر، بشاطئ من شواطئ جزيرة فانكوفير (Vancouver) بكولومبيا البريطانيّة، ولغته الفوتكا (Nootka)، وثانيهما الباسك، في الجنوب الغربيّ من فرنسا.. كلاهما في منطقة ساحليّة، يعيش بما يصطاد من الأسماك وما شاكلها.. هذه الظاهرة تجعل المجتمعين يهتمّان اهتماما بالغا بمنتجات البحر وبالتدقيق في تسميتها سواء أكانت من الفقريّات أم كانت من غيرها، وبوفرة الألفاظ الخاصّة بها.



وعلى عكس ذلك الناطقون بالبايوت (Paieute) لغة الهنود الحمر الجنوبيين، بولايات أريزونا (Arisona) ونيفادا (Nevada) ويوتا (Utah).. هؤلاء الهنود يقطنون هضابا قاحلة تتحكم في معيشتهم ويتعاملون معها معاملة يومية.. لذلك نجد لغتهم زاخرة بألفاظ دقيقة يراها غيرهم من الكماليات بل مما لا ينبغي الاعتداد به.. وما حاجة اللغة إلى تخصيص لفظ لكل صغيرة وكبيرة مما يتعلق بسطح الأرض كالحدود الفاصلة بين المياه، وكالمنحدرات والطرق الساحلية، والوهاد الرّمليّة والوهاد نصف الدائريّة والوهاد الدائريّة، والواسع منها والضيّق، والسهول بمختلف أشكالها، والتلال بشتّى أنواعها، والفلوات بضروبها، والهضاب بكلّ أصنافها، والوديان الجافّة والوديان المفعمة بالمياه، والثلوم الناتجة عن الأمطار والمسايل والسفوح، والمشمس وغير المشمس من المضايق والمنحدرات، وحزون السهول، وربى الهضاب، وغير ذلك ممّا لا يتصوّره



مجتمع متأثر ببيئة مخالفة لهذه البيئة، وممّا يجعله يعجب لمثل هذا الإغراق في التفصيل؟

فليس التفصيل والتدقيق البالغان حدّ المغالاة في النوتكا والبايوت الجنوبيّ وليدي البيئة الطبيعيّة بقدر ما هما ناتجان عن اهتمام الإنسان بمحيطه وبما له أوثق الصلات بمعيشته.. ولو لم يكن هنود النوتكا مثلا مهتّمين بالصيد رغم قربهم من البحر وكانوا فلاّحين لما وجدنا في لغتهم هذا العدد الهائل من الألفاظ المتّصلة بموارد البحر، وكذلك اللغة البايوتيّة المفعمة بالألفاظ التوبوغرافية تبيّن أن الطبيعة قاسية على أهلها بمفاوزها وجبالها ووهادها وقلّة أمطارها، فهم يتصارعون معها صراعا مريرا.. ومن كان في مثل هذه الحال احتاج إلى الحيطة والحذر ومعرفة الشارد والوارد من الضارّ والنافع معرفة دقيقة مفصّلة.



ذلك شأن لغات العالم على اختلافها وتلك طبيعة المجتمعات.. فالإنجليزي المتخصّص في علم النبات محتاج إلى تصنيف النبات تصنيفا علميّا وإلى معرفة فصائله وأنواعه وفروقه وتسمية كلّ نبتة باسم خاصّ.. والطبيب الذي يعالج بالأعشاب مضطّر إلى معرفة خصائصها والضارّ منها والنافع.. أمّا من لا يهمّه شيء منها فيجمعها مثلا في كلمة نبات أو عشب أو ما أشبههما.. والشعوب التي تشكو الفاقة والتي يلجئها الفقر إلى التغذّي بالنبات وجذوره تكثر في لغتها أسماء ما تقتات به لاحتياجها إلى تمييز النافع فيه من الضارّ والمغذّي من غيره وإلى التقصّي في البحث لتوسيع موارد رزقها وتنويعها.. بل تخصّص اسما لكلّ حالة من أحوال النبات أثناء نموّه تبعا لحاجتها إليه لذلك نجد كثيرا من قبائل الهنود الحمر بولايتي كاليفورنيا وأرجون (Oregon) يعنون بالبلّوط وما شاكله ويبالغون في تسمية أنواعه.



ومن هذه القبائل من يسمّي الشمس والقمر باسم واحد ولا يفرق بينهما إلاّ بالسياق فإذا ما اعترضنا عليهم بأنّ بينهما فرقا كبيرا وبأنّ منطق الأشياء يقضي بأن يكون لكلّ منهما لفظ خاصّ عابوا علينا جمع أنواع النبات في كلمة واحدة، في اسم الجنس (النّبات)، وهي لا تمتّ إلى الواقع بصلة.. فالتعميم والتخصيص البالغان حدّ الإفراط يرجع كلاهما إلى العامل البشريّ.. وبتعبير آخر، كلّما ضعفت عناية المجتمع بمحيطه الطبيعيّ كثرت الألفاظ العامة.. وكلّما اشتدّ اهتمامه به وكان ألصق بحياته تعدّدت الأسماء الخاصّة في معجم لغته.. فالذي لا تهمّه فصائل الحيوان وفروعها يسمّي حشرة أو دودة ما ليس إنسانا ولا حيوانا من ذوات الأربع ولا سمكة.

بين الكلمات فرق جلّي في وضوح المعنى الأصل.. منها ما لا يقبل التحليل مثل «أسد» لأنّ دلالته لا ترجع إلى مجموع مكوّنات أحرفه (ا.. س.. د) إذ لا معنى لها منفردة.. ومنها المركّب من عناصر ذات دلالة وفيه معنى زائد على الأصل كأسد الشرى (أسد +الشرى).. فإذا ما وجدنا زيادة على المعنى الأصل دلّ ذلك على أنّ هذا النوع من الأسود جديد على البيئة.. ثمّ إنّ التجربة والدراسات اللغويّة بيّنت أنّ العبارة تتطوّر عبر القرون فما كان مركّبا.. زال تركيبه وغمض معناه، لأنّه في حال تركيبه يمكن تحليله وإرجاعه إلى عناصره، ويكون لهذه العناصر دلالات معينة.. وإذا اتحدت أجزاؤه اتحادا كليّا أصبح لفظا واحدا لا يستطيع إرجاعه إلى أصله المركّب إلا المتخصصون.. وقد يستعصى الأمر حتى على الضليع منهم.. يظهر ذلك جليّا في أسماء الأماكن مثل (Essex)[1]

1 . محافظة بشرق أنجلترا .

و (Norfolk)[2] و (Sutton)[3] ، لا يرجعها إلى أصلها إلاّ المتمكّن من تاريخ اللغة الأنجليزي.. يعرف أن أصلها على الترتيب (East Saxon) و (north Folk) و (south Town) أمّ غير المختصّ فلا يراها إلاّ كلمة واحدة كزبدة وجبن.

والفرق بين شعب متماسك، واحد في جنسه، عميق الصلة ببيئته، لأنه عرفها منذ عهود بعيدة، وبين آخر حديث العهد بمحيطه أنّ أسماء الأماكن عند الأول لا يدرك معناها و عند الثاني واضحة يرجعها إلى أصلها الخاصّ والعامّ مثل (Newtown)[4] (المدينة الجديدة) و (Willrwood)[5] (الخشب البرّيّ أي الغابة) و (Millcreek)[6] (جدول الرحى).

هذا هو الغالب لأن لطبيعة اللغة دخلا كبيرا.. فأسماء الأماكن في كثير من لغات الهنود الحمر تبقى واضحة المعنى جليّة العناصر لأنّ هذه اللغات تركيبيّة، بينما يتطوّر شكل هذا النوع من الأسماء في الأنجليزيّة تطوّرا سريعا يطمس معالمها.

نستنتج ممّا سبق أنّ في وسع الدّارس المحنّك أن يبرز من اللغة مميّزات المحيط طبيعيّا كان أم بشريّا ومقدار تأثر المجتمع بعوامل هذا المحيط.. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من ذلك لا سيمّا شرادر (Shrader).. درسوا لغات هنديّة أوروبيّة تنتمي كلّها إلى فصيلة واحدة واختاروا معظم الألفاظ المشتركة بينها أو بين عدد كبير منها وحاولوا أن ينفذوا إلى النموذج الأولي الافتراضي لهذه اللغات، وإلى حضارة

---

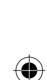
2 . محافظة بالجنوب الشرقيّ من أنجلترا .

3 . موضع يقع جنوب أنجلترا .

4 . Town= مدينة ؛ new= جديدة .

5 . Wild= بريّ ؛ wood= خشب ، غابة

6 . Creek= جدول ؛ mill= رحًى




المجتمع القديم الذي كان لسانه هذا النموذج، وإلى ثقافته ومعارفه، لأنّ اللغة ديوان المعارف والتصوّرات.. فعلوا ما يفعل عالم الحفريّات في التنقيب عن الآثار ليحصل على وثائق تاريخيّة تفرض نفسها على كلّ باحث ولا يمكن أن يدحضها أحد.. لقد بالغ بعض هؤلاء الباحثين في اللغات الهنديّة الأوروبيّة لجمع ما بينها من ألفاظ مشتركة دالّة، بالغوا في الأهداف التي طمحوا إليها وإن كان عملهم لا يخلو من فائدة.. وليس في وسعنا ردّه ردا مطلقا لأن الكلمة لا تندثر باندثار اللغة الأصل بل غالبا ما يُكتب لها البقاء الطويل بعدها، لكنّ دلالتها أو دلالاتها الأصليّة تتطوّر بتعاقب الأزمنة والحضارات عليها.. ويبقى مع ذلك أنّ الجهود التي تحاول الوصول إلى اللغة الأمّ تعترضها عقبات يصعب تذليلها لما بين اللغات الحديثة واللغة الأصل من عصور سحيقة موغلة في القدم، كما يعسر فيها جمع المادّة الضروريّة للأطوار الثقافيّة التي لها أهمّيّة بالغة ودلالة حقيقيّة تسمح باكتشافات إيجابيّة مجدية.

وإذا كنّا غير محتاجين إلى المقارنة بين هذه اللغات لمعرفة البديهيّات كأن نتساءل مثلا: هل كان للناطقين باللغة الأصل آباء وأمّهات أو كان لهم فمّ فإنّنا لا نستغني عنها لمعرفة وجود لفظ «الملح» في لسانهم واستعمالهم لهذه المادّة مثلا.. ومع ذلك تبقى المشكلة مطروحة لأنّ المجتمعات يؤثر بعضها في بعض بالمعاملات التجاريّة والغزو وامتزاج الثقافات، وما إليها.. ووجود اللفظ في لغة أو مجموعة لغات لا يعني أنّه أصيل فيها.. غير أنّ معرفة اللغات المدروسة في مجاليها الصوتيّ والصّرفيّ التركيبيّ معرفة دقيقة شاملة تيسّر التمييز بين الأصيل والدخيل، بيد أنّ الدراسات اللغويّة المقارنة في أمريكا مازالت ضحلة لم تعط نتائجها بعد.. وستكون مجدية بمضاعفة الجهود وتضافرها.. وإننا نرجو



الكثير من البحوث المعمّقة الجارية الآن في شمالي أميركا والتي تدرس الألجونكينيّة[7] (algumakin) والسيويّة[8] (le sioux) والأثباسكانيّة[9] (l'athabaskan).. فاللفظ (oko – tl) (صنوبر دقيق الورق) في النوتكية والكلمة (oyo – mp) (تنوب) في البايوتية يوحيان بانتمائهما إلى جذر واحد (oko).. ويدل في الأوتوية[10] الأزتية[11] على نوع من الصنوبر أو من التنوب هذا مثال مما يمكن استنتاجه بمقارنة اللغات بعضها ببعض إن كان المثال نافعا في مثل هذه المتاهات.

لئن كانت البيئة الطبيعية تميز الشعب وتظهر جليا في لغته فإن هذه الظاهرة أوضح في المحيط الاجتماعي.. فكثير من عناصر البيئة الطبيعية أو معظمها منتشر في الكرة الأرضية، مهما كان المكان والزمان، وذلك يحد من تنوع المادة اللسانيّة لأن تصوّراتها وليدة هذه البيئة.. أمّا المعارف فتتصوّر في اتجاهات عديدة وفي تباين مستوياتها من شعب إلى آخر فالثقافة الأنجليزيّة أو الفرنسيّة بأوروبا أو أميركا، الثريّة بتصوّراتها، الآخذة في كلّ اتجاه، واللغة التي هي وعاء ومرآة لها لا تقابلان، بأيّة حال من الأحوال، لا بثقافة شعب بدائي ولا بلغته.



هذا إن كان ثراء اللغة يعني الثراء في التصورات وفي الأخذ بأسباب العلوم والفنون.. أمّا إذا كانت اللغة لا تتجاوز في دلالتها نظامي الصرف والتركيب. وهو الشائع في استعمال اللفظ. فالأمر بخلاف ذلك، لأنه كلّما تطوّرت المعارف كان النظام الصرفيّ أو التركيبيّ أقلّ تعقيدا.. ولا أدلّ على

7 . . حيث يصاد بالخطاف algumakinأصلها لغة من لغات الهنود بأميركا الشماليّة

8 . تحريق للفظ nadoweissiw = الثعبان الصغير أطلق بعض الهنود الحمر هذا الاسم على قبيلة أخرى بأميركا الشماليّة وتطلق كلمة siouxمعرفة على لغتهم .

9 . الأتباسكانيّة لغة من لغات الهنود الحمر القاطنين بمنطقة الأتباسكان بكندا

10 . أو اليّوتوية ، لغة الهنود اليوت (Utes)يقطنون الولاية المشتقة من أسمهم يوتا (Utah)في الجبال الصخرية بغرب الولايات المتحدة .

11 . قبائل الأزت الأصليون كانوا يقطنون المكسيك ووسط أميركا الشماليّة ، وكانت لهم حضارة أصيلة أمّا قاعدة ملكهم فمدينة مكسيكو Mexicoالحالية



ذلك من تاريخ الأنجليزيّة أو الفرنسيّة ومقابلة نصوصهما القديمة بنصوصهما المعاصرة.

وممّا يزيد المشكلة تعقيدا أنّ هذه القاعدة نفسها غير مطّردة وأن كثيرا من لغات الشعوب غير المتحضّرة جدّ بسيطة في نظاميها الصرفيّ والتركيبيّ.. فلا يمكننا القول إذن بأنّ بساطة اللغة تساير دائما تشعّب المعارف وثراءها.

فهل هناك علاقة أخرى غير اللغة تربط بين المجتمع والبيئة الطبيعيّة والاجتماعيّة؟ من الباحثين من يزعم أنّ بين النظام الصوتيّ للغة وبين الناطقين بها أوثق الصلات، وأنّ القاطنين بالمناطق الجبليّة يتأثّرون بقسوة الطبيعة وخشونة العيش.. وذلك ينعكس على لغتهم فنجد في نظامها الصوتيّ غلظة عسيرة على السمع، بينما يكون نظام اللغة الصوتيّ مستساغا في بيئة يتمتّع أهلها بنعومة العيش ووفرة الرزق.. هذه النظريّة يمكن نقضها بسهولة مهما بدت معقولة.. نعم !قد نجد في لغة أهل القوقاز مثلا نظاما صوتيّا عسيرا يصوّر قسوة الطبيعة، وعلى العكس من ذلك، من الممكن أن نحسّ في غيره من المناطق بنظم صوتيّة أعذب في السمع تمثّل محيطا طبيعيّا أرحم.

وممّا يبطل هذه النظريّة أنّ سكّان السواحل من أهالي الشمال الغربيّ بالولايات المتّحدة يكسبون رزقهم بأوفر وسيلة وبقليل من الجهد من بيئتهم البحريّة الزاخرة بمنتجات المحيط الهادي، المعروفة بطيب مناخها وسهولة أرضها، ومع ذلك لا نجد نظام لغتهم الصوتّي أقلّ خشونة من نفس النظام في لسان أهل القوقاز.. والطبيعة أشدّ ما تكون قسوة على الإسكيمو القاطنين بغروينلند (Groenland) وأميركا الشماليّة، لكنّ في نظام لغتهم الصوتيّ نوعا من الليونة والسهولة مماّ لا تنفر منه الأذن بل





ممّا تستطيبه.. وقد تعمّ هذه الظاهرة معظم لغات الهنود الحمر إلاّ أنّها عند الإسكيمو أوضح.

وهناك لغات مختلفة على وجه البسيطة، مستعملة في مناطق متشابهة من حيث بيئتها الطبيعيّة، متقاربة في نظمها الصوتيّة، غير أنّ هذا التقارب لا يرجع إلى المحيط الطبيعيّ . والأدلّة على ذلك متوفّرة . إنما هو نتيجة عوامل سيكولوجيّة خفيّة يصعب توضيحها.. وتشبه إلى حدّ كبير العناصر الثقافيّة التي تنتقل من حضارة إلى أخرى وتدبّ في مجموعها دبيب الروح في الجسد فبعض لغات الهنود الحمر مثل التلينجيتيّة[12] (tlingit) والهيدويّة[13] (haida) والتسمشيانيّة (tsimshian)[14] والكواكيوتليّة (kwakiutl)[15] والساليشيّة (salisih)[16] متشابهة في نظمها الصوتيّة لا لكون الناطقين بها يعيشون في بيئات جغرافيّة تكاد تكون واحدة، بل لأنهم متجاورون، ومن شأن المتجاورين أن يؤثر بعضهم في بعض على المستوى السيكولوجيّ.

فإن عدلنا عن هذه الملاحظات العامّة التي تنفي الصلة بين المحيط الطبيعيّ وبين النظام الصوتيّ في جملته أمكننا أن نأتي بأمثلة قويّة الدلالة تبيّن من جهة أنواعا كثيرة من التشابه الصوتيّ بين لغات مستعملة في بيئات طبيعيّة شديدة التباين، تعمرها مجتمعات متباعدة في المستوى الثقافيّ، ومن جهة أخرى اختلافات صوتيّة لا تقلّ أهميّة عن أنواع التشابه السابقة بين لغات متقاربة في المحيط الطبيعيّ، متجاور أصحابها، ممثلة لثقافة واحدة.. فالنبر النغميّ، كعنصر دلاليّ مفيد، يوجد في الصينيّة

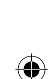
12 . لغة مجموعتين من الهنود الحمر بألسكا

13 . لغة من لغات الهنود الحمر بأسكا .

14 . لغة مجموعة من الهنود الحمر بجنوب التلنجيت والهيدا

15 . لغة مجموعة من الهنود الحمر على الساحل الشماليّ من المحيط الهادي .

16 . لغة مجموعة من الهنود الحمر على الساحل الشماليّ من المحيط الهادي .




ولغات جنوب شرق أسيا، المجاورة لها، وفي الإيويّة (ewe)[17] وغيرها من لغات غربيّ إفريقيا، وفي الهوتنتيّة (hottento)[18] ، بجنوب إفريقا، وفي السويديّة بأوروبا، وفي التيويّة (tewa)[19] بالمكسيك الجديد، وفي التاكلمويّة (takelma) بجنوب غرب الأرغون (oregon) [20]أي في نسق شامل من البيئات والثقافات المعروفة.. والصوائت الخيشوميّة لا توجد في الفرنسيّة والبرتغاليّة فحسب بل نصادفها كذلك في الإيويّة (ewe)[21] والإيروكويّة والسيويّة (sioux).. والحروف القذفيّة[22] (الحروف الشديدة التي تلفظ بانغلاق الحبال الصوتيّة معا فاسترخائها معا كذلك) معروفة في كثير من لغات هنود أميركا غرب الجبال الصخريّة الأميركيّة وفي السيويّة والجيورجيّة وفي غيرها من لغات القوقاز.. والدعك[23]، كعنصر مفيد، يطبع عددا كبيرا من لغات الهنود الحمر بل يطبع جلها.. وهو أيضا في الدانماركيّة وفي الليتونيّة.. بغرب روسيا.. وهناك أصوات جدّ خاصّة كالحاء، وهي جشّاء، والعين، وفيها اختناق، وكلاهما في العربيّة.. وفي النوتكا[24] (nootka) ما يشبههما إلى حدّ كبير.. وفي إمكاننا تعداد مثل هذه الظواهر إلى أبعد مدّى.. وفي نظير ذلك نرى اختلافا شديدا بين النظامين الصوتيّين في الفرنسيّة والأنجليزيّة مع أنّ الناطقين بهما جدّ متقاربين في الميدان الثقافيّ.. ونلاحظ في أميركا مجموعتين من القبائل الأصليّة وثيقتي الصلة من الناحية الثقافيّة: قبائل اليوروكوا

17 . نسبة إلى الإيويّن : يقطنون جنوب غانة ، بإفريقيا الغربيّة ، وهم قوم يتعاطون الفلاحة ؛ يقدر عددهم بنحو430000 . فرضوا لغتهم على من جاورهم .

18 . لغة الهوتانتو ، وهم قوم يقطنون القسم الجنوبي من ناميبيا . تنقسم لغتهم إلى أربعة فروع أساس .

19 . المكسيك الجديد هو الولاية السابعة والأربعون في الجنوب الغربيمن الولايات المتحدة .

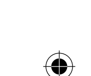
20 . إحدى الولايات المتحدة في الشمال الغربي المطل على المحيط الهادي . oregon

21 . لغة أصلية لعشرة فروع مستعملة في عدة نواح من الولايات المتحدة في الشمال والجنوب الشرقي

22 . سُميت قذفية لتشبيهها بما يقذف بقوة ويقابلها في الفرنسيةconsonnes éjectives glottalisées

23 . الدعك نوع من تحقيق الهمز ، به يختف معنى الكلمة مثل أسأم وأسام

24 . لهجة من لهجات الواكشانية ، وهي فرع من لغة يستعملها الهنود الحمر بالساحل الشمالي من المحيط الهادي .

(Iroquois) ومجاوريهم من قبائل الألجنكين (Algonquins) الشرقيّين فنلفيهما تستعملان لغات مختلفة كلّ الاختلاف على المستويين الصوتيّ والشكليّ.. واليوروك (yuroks) والكاروك (karoks) والهوبا (Hupas) قبائل ثلاث تقطن صقعا واحدا من شمال كاليفورنيا الغربيّ وتكون وحدة ثقافيّة متماسكة كلّ التماسك لكنّ بين لغاتهم بونا شاسعا في الميدان الصوتيّ، وهلم جرا.. لم يبق لنا، فيما يظهر، إلاّ التسليم المطلق بعدم التلازم بين المحيط الطبيعيّ الاجتماعيّ من جهة وبين النظم الصوتيّة من جهة أخرى، سواء أتعلّق الأمر بالجانب السمعيّ أم تعلّق بتوزيع مختلف العناصر الصوتيّة.

قد يستهوينا أن نعزو انعدام هذا التلازم إلى أنّ كلّ نظام صوتيّ هو، إلى حدّ ما، وليد الصدف، عرضيّ، وبعبارة أوضح إلى أنه يمكننا أن نعدّ تطوّر النظم الصوتيّة آليّا إلى أقصى حدود الآليّة، خارجا عن نطاق التفكير الواعي، قليلا ما يقبل التأثر بعوامل المحيط، وأنّ الصيغميّة[25] لها، بطريقة أو بأخرى، علاقة بمخزون التصوّرات الذي يكوّن، على وجه التقريب، المخزون الذهنيّ للمجتمع، لأنّ الصيغميّة تكشف عن بعض طرائق تفكير الناطقين باللغة.. وبما أنّ هذا المخزون الذهنيّ خاضع حتما للمحيط الطبيعي الاجتماعيّ ليس من المستحيل أن يكون بين هذا المحيط وبين البنية النحويّة نوع من التلازم.. غير أنّ واقع الأشياء ينفي مثل هذا التلازم كما نفاه في الفقرة السابقة.. ذلك أنّ محتوى الصيغميّة من جهة مقولات منطقيّة أو سيكولوجية فكريّة تؤدّيها أساليب نحويّة، ومن جهة أخرى طرائق شكليّة تمكّن من التعبير عنها.. هذا التباين الصريح بين المجموعتين في ظواهرهما الصرفيّة التركيبيّة قد يكون

25 . الصيغميّة لفظ اختاره بعض اللسانيين العرب مثل عبد السلام المسدي لترجمة كلمة (morphology) الإنجليزية أو (morphologie)الفرنسية لأن لفظ الصرفية لا يطابقهما كل المطابقة



راجعا إلى أنّ إحداهما تأثرت بلغة مجاورة لها خلافا للثانية.. فالتكرار مثلا جد منتشر في لغات الهنود الحمر مع شدّة الاختلاف في التصوّرات المعبّر عنها بهذا التكرار الذي لا يعدو مستوى الشكليّة المحضة الواسعة الانتشار.. وبالمقابل نلحظ في هذه اللغات أيضا مبدأ الاستنتاج وبعبارة أخرى ما يدرك بعمليّة استنتاجيّة لا بتجربة مباشرة وما يمكن أن يؤدّى بطرائق شكليّة عديدة.. نحن إذن أمام مقولة فكريّة كثيرة التواتر يعبّر عنها بطرائق نحويّة مختلفة.

نظرة فاحصة، على عجل، في لغات عدّة تكشف لنا عن أمثلة من التشابه متعدّدة واضحة في السياقات الصوريّة الصرفيّة التركيبيّة ومن التماثل أو التطابق الواضح أيضا في التصورّات المعبّر عنها بأساليب نحويّة.. وليس في هذه الأمثلة ما يؤكد أن لها علاقة ما بمكوّنات المحيط هذه الأنواع من السياقات الصوريّة المميّزة، كالتغييرات الصوتيّة الصرفيّة في جذور الأفعال أو الأسماء[26] وكالعناصر التي تزاد في وسط الكلمة الأصليّة فعلا كانت أم اسما[27] نلحظها في اللغات الهنديّة الأوروبيّة وفي اللغات الساميّة وفي التاكلمويّة واليانويّة[28] (yana) من ناحية وفي الماليزيّة والمونخميريّة[29] (mon – khmet) والسيويّة من ناحية أخرى.. وذلك يعني أنها موجودة في أصقاع من العالم جد مختلفة.. والجنس (التذكير والتأنيث) مقول فكريّ يعبّر عنه بوسائل نحوية نجده في اللغات الهندية الجرمانيّة وفي اللغات الساميّة وفي الهوتانتويّة (بإفريقيا الجنوبيّة) وفي الشينوكويّة (بكولومبيا السفلى).. من الممكن أيضا أن نضيف إلى



26 . يقصد أنّ أصل الكلمة تنشأ عنه ألفاظ مختلفة الدّلالة إذا تغيّرت صورته بالحركات أو وفقا لقواعد صرفية ، مثل قلْبَ ، قلَبَ ، قُلِبَ (أصابه القُلابُ) ، قُلُبُ ، قَلَبُ ، قالِب ، مقلوب ، قَلوب (كثير التقلب)

27 . يقصد بها الحروف التي تتخلّل أصل المادّة اللفظيّة مثل المادّة علم يزاد فيها أحرف حسب الدلالة فيقال مثلا : عِلْم ، علَّمَ ، عالِم ، عالَمَ (بارى في العلم) ، عُلام (باشق) ، عَلاَّم ، عَيْلم عُلَيْم ...

28 . من فصائل اللغة الهوكانيّة بكاليفورنيا (الولايات المتّحدة) .

29 . من فصائل اللغات الهنديّة الصينيّة .



ما سبق الأحوال التركيبيّة وبخاصّة الدّالّة على الفاعل والمفعول والتي توجد في اللغات الهنديّة الجرمانيّة وفي اللغات الساميّة وفي اليوتيّة، أو نذكر كذلك في الكواكيوتليّة والشوشونيّة[30] (shoshone) والإيروكوازيّة والهوتنتويّة والميلانيزيّة التثنيّة والجمع المقصيين أو المتضمنين، في الضمير الخاصّ بالمتكلّم ومعه غيره[31].

عدم التلازم بين اللغة والمحيط، الذي ذكرنا في الفقرة السابقة تؤيّده الفروق الصرفيّة التركيبيّة التي تشاهد في لغات متجاورة تستعملها مجتمعات تتقلّب في أجواء طبيعيّة وبشريّة تكاد تكون واحدة.. فقبائل السيوك والساليش بكولومبيا السفلى وبالساحل الغربيّ من ولاية واشنطن تكوّن وحدة ثقافيّة في محيط طبيعيّ متجانس، لكنّ بين لغتيهما فروقا صرفيّة تركيبيّة كبيرة.. ففي اللغة الساليشيّة تكرار كثير تراعى فيه أغراض نحويّة، بينما يقل التكرار في الشينوكية وإن وُجد فلا يخدم أيّ غرض نحوي.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد الشينوكيّة تفرّق بين المذكّر والمؤنّث فيما يتعلّق بالجنس وتخصّص له نظاما محكما لا تحيد عنه لا في الأسماء ولا في الأفعال، بينما يقتصر التفريق بين المذكر والمؤنث في ساليشيّة الساحل على الضمائر ويزول بالتمام في لهجاتها الداخلية.. وبين الميدوية واليانوية، وكلتاهما من لغات الوسط الشرقي بكاليفورنيا، اختلاف جذري عجيب في النظام الصرفي.. فالميدوية مفعمة بالسوابق الصرفية، وتستعمل التكرار إلى حد ما لأغراض نحوية، واليانوية خالية من السوابق الصرفية ومن التكرار لكنها تتميز عن الميدوية بطريقتين: أولاهما أن حديث النساء غير حديث الرجال من الوجهة

30 . من لغات الهنود الحمر بالكولورادو) Colorado)

31 . المثنّى أو الجمع المقصي ، عند علماء اللسانيّات ، ضمير المتكلّم ومعه غيره (نحن أو نا) المقصي للمخاطَب ، الدالّ على المتكلّم والغائب مثل أنا وهو ، أنا وهما ، أنا وهم ... والضمنيّ ما تضمّن المتكلم والمخاطب (أنا و أنتَ ، أنا وأنتِ) ؛ فإن قلت لأحدهم '' خرجنا '' فالضمير في '' خرجنا '' يدلّ على المتكلم و المخاطب دون الغائب .



اللغوية الصورية، وثانيتهما أن فيها المئات من اللواحق الصرفية.. ومن هذه اللواحق ما يحمل طابع الفعل إلى درجة تسمح بعدّه فعلا حقيقيّا زيد في آخر الكلمة لا مجرّد كاسعة.. وفي العالم القديم تختلف المجريّة عن اللغات الهندّية الأوروبيّة المجاورة لها بخلوّها ممّا يميّز المذكّر من المؤنّث وباعتمادها مبدأ التناغم الحركيّ لدلالات نحويّة مع أنّ هذا التناغم كان في أصله سمة صوتيّة.



قد يظهر مخيبا للأمل، من وجهه نظر معيّنة، ألاّ نجد أيّة علاقة بين الخصائص الصوتيّة والصرفيّة التركيبيّة للغة ما وبين محيطها.. أيصحّ أنّ الأسس الصوريّة للّغة لا تعكس أيّ شيء من ثقافتها التي يعبّر عنها محتواها؟ الحقيقة أننا إذا ما تقصّينا الأمر اتضح لنا أنّ بعض عناصر هذه الثقافة، على الأقلّ، مرتبط بما يؤدّيه من وسائل نحويّة: هذا صحيح لا سيمّا في اللغات التركيبيّة التي تفيد من سوابق ولواحق جمّة لها معنى محسوس إلى حدّ ما.. ففي الكواكيوتليّة والنوتكويّة لواحق خاصّ تفيد بكلّ وضوح أنّ بعض الأحداث وقع في الساحل أو على صخوره أو في البحر نفسه، بينما لا تأبه اللغات في معظمها إلى مثل هذا التدقيق، بل تراه عديم الفائدة.. سمة مثل هذه تعكس في اللغتين طبيعة المحيط الطبيعيّ والمصالح الاقتصاديّة الناتجة عنه.. وشبيه بذلك ما نلاحظ من أنّ شراء شيء ما، أو اتّخاذ وليمة بموادّ غذائية معيّنة، أو إقامة مأدبة رهانيّة مقدسة (potlach) على شرف أحد زعماء القبيلة، أو طلب هدّية خاصّة للاحتفال ببلوغ فتاة، يعبّر عنه في النوتكويّة بلواحق لغويّة، وهذا ما يجعلنا نستنتج أنّ لكلّ ذلك دلالات خاصّة في حياة القبيلة وأنّه من المكوّنات المهمّة في ثقافتها.. وهناك نوع آخر من ارتباط اللغة بمحيطها وثقافة مجتمعها نلاحظه في الكواكيوتليّة والنوتكويّة والساليشيّة: فهي تستعمل



للتمييز بين صنوف الأشياء سلاسل عدديّة مختلفة.. هذا النوع من التعبير اللغويّ يشعر على الأقلّ بأنّ لأصحاب هذه اللغات طرائق حسابيّة دقيقة في هذا الميدان وتؤكد بأنّ لقبائل ساحل المحيط الهادي، كما عرفناهم، رغبة شديدة في التملّك وغيرة متأصّلة على ما يملكون.. يمكننا أن نواصل إلى أبعد حدّ، منطلقين من أمثلة بهذه القوّة من الدّلالة للحصول على سمات لغويّة صرفيّة تبيّن ما للّغة من علاقة وثيقة بالمحيط الطبيعيّ و بالثقافة.. فكلّما وجدنا في لسان من الألسنة تمييزا بين الجنسين تؤدّيه وسائل صرفيّة تركيبيّة تجلّى لنا في كلّ الأحوال أنّ للمجتمع الناطق بهذا اللسان موقفا من المرأة خاصاّ.. وهذا المثال يبيّن، بما يكفي، مدى ما يؤدّي إليه مثل هذه البراهين من الإفراط في التخيّل.. فإذا أمعنا النظر في الأحوال الأكثر احتمالا والتي توضّح الروابط المتينة بين الثقافة والأشكال الصرفيّة التركيبيّة رأينا أنّ هذه الروابط لا تكمن في الشكل بل في مضمونه وأنها في آخر المطاف وبعد التحليل الكافي تقوم على المحيط وعلى المعجم اللغويّ.. والذي يسترعي اهتمامنا في الميدان الصرفيّ وفي لسان النوتكا أنّ بعض اللواحق التي أشرنا إليها والتي تجعل من الأسماء أفعالا لا تكون إلاّ في أواخر الأسماء المجرّدة: في أواخر الجذور الاسميّة.. وهذا في الواقع وفي حدود معرفتنا عمليّة سيكولوجيّة يصعب أن نرى فيها علاقة ولو جزئيّة بالثقافة أو بالمحيط الطبيعيّ.. والطريقة الخاصّة التي تجعل من الاسم فعلا أو تغيّر دلالة لفظ تغييرا ملموسا بزيادة لاحقة لا تهمّ إلاّ قليلا عالم اللسانيّات.

نحن إذن مضطرّون إلى التسليم ـ وقد يكون ذلك على مضض ـ بأنّ المحيط لا ينعكس إلاّ في المعجم اللغويّ وبأنّه عديم الصلة بأيّ عنصر آخر من عناصر اللسان.. وبما أنّ الأمر كذلك يحقّ لنا أن نتساءل عن



الأسباب التي جعلت كلّ هذه الأنماط الصوتّية والصرفيّة التركيبيّة المختلفة منتشرة عبر العالم.. قد يكون بإمكاننا أن نجد حلاً لمشكلة علاقات اللغة بالثقافة وبالمحيط وقد يكمن هذا الحل في وتيرة التطور الثقافي واللغوي.. فالناطقون باللغة أكثر إدراكا لمعالم ثقافتهم منهم للظروف التي تحدث تغيّرا في لسانهم.. ومن هذا الفرق السيكولوجي بين المظهرين الثقافي واللغوي في تسلسلهما (والذي لا يسعنا تحليله) ينتج أن التطور الثقافي في معظمه عملية شعورية أو من السهل أن تصبح كذلك وأن التحولات اللغوية مردُّها (إن كان لها في الحقيقة مرد) إلى التأثير الخفي للعوامل السيكولوجية الخارجة عن الإرادة وعن التأمل.. هذا يؤدي بنا إلى أن نستخلص أن التطورين الثقافي واللغوي لا يسيران بنفس الوتيرة، فليس من الممكن أن نجد بينهما علاقة سببية وثيقة.. كل الدلائل تثبت ذلك فيما يظهر.. وهذا أيضا يخولنا أن نقرر - إن كان لزاما علينا أن نقرر - إمكان وجود ارتباط بين المحيط والنمط اللغوي في إحدى مراحل الحضارة، البدائية.. لكن هذا الارتباط لا تعكسه أيه لغة معاصرة، لأن العلاقة بين الثقافة واللسان لا تلبث أن يصيبها التدهور فالاضمحلال لسبب بسيط وهو اختلاف الظواهر الثقافية عن الظواهر اللغوية في الخصائص وفي سرعة التطور.. وذلك ناتج عن طبيعة كل منهما.

هاهي في الجملة وفي تصورنا طريقة تطور الثقافة واللغة: مجتمع بدائي، لا تكاد تظهر فيه نواة لغوية أو ثقافية، يسلك في غالب الظن مسلكا مطابقا لسيكولوجية جماعية يحددها من ناحية جنسه البشري ومن ناحية أخرى لغته.. وعلى أساس هذه السيكولوجية الجماعية، مهما كانت اتجاهاتها، تنمو الثقافة واللغة نموا بطيئا.. وبما أن كلا منهما يحدده في الأساس، وفي هذه المرحلة، عوامل الجنس البشري والمحيط



الطبيعي، فإنها تبقيان متوازيتين على وجه التقريب، بحيث يعكس نظام اللغة النحوي مظاهر النشاط الثقافي.. وبعبارة أخرى لا تكون المفردات اللغوية نفسها صورة لبعض العناصر الثقافية المنفصلة فحسب، وهذا صالح لكلّ اللغات وفي جميع المستويات من التطوّر الثقافيّ، بل يمكننا القول بأنّ الأنماط النحويّة وتطوّرها رمز لما يناسبها من التفكير ومن النشاط في المجال الثقافيّ وأنّ اللغة تبقى، إلى أمد بعيد، مرتبطة بالثقافة متأثرة بها.. لكنّ هذا التلازم لا يدوم.. فالسيكولوجيّة الجماعيّة تتحوّل شيئا فشيئا وينتج عن ذلك نوع من التغيّر في لغة المجموعة البشريّة وفي ثقافتها.. ثمّ إن اللغة والثقافة لا تعبّران تعبيرا مباشرا لا عن سيكولوجيّة الجنس البشريّ ولا عن محيطه الطبيعيّ لأنّهما تابعتان قبل كلّ شيء لسلطان التقاليد، به حياتهما وبه نموّهما.. وذلك ما يفسّر أنّ التحوّلات الحتميّة التي يفرضها الزمن على الثقافة واللغة تقاومها نزعة المحافظة على المكتسبات وتحدّ من سرعة تطوّرها.. هذه عقدة المشكلة.. فالعناصر الثقافيّة الرامية إلى تلبية حاجات المجتمع المباشرة والتي يعيها الفكر وعيا كاملا لا تتطوّر بسرعة تفوق السرعة التي تتطوّر بها المادّة اللغويّة فحسب بل إنّ شكل الثقافة الذي يعطي لكلّ عنصر أهميّته يتحوّل بلا انقطاع.. أمّا مكوّنات اللغة فهي كذلك عرضة للتحوّل لكنه تحوّل بطيء لكون عناصرها لا تلتئم بسهولة ولأنّ تصنيفها النحويّ خاضع خضوعا تامّا للاّشعور.. فالنظام النحوي تقضي طبيعته بالمحافظة على أسسه، وإن شئت قلت بأنّ نزعة المحافظة أبرز وأقوى في الأسس الشكليّة اللغويّة منها في أصول الثقافة.. والنتيجة الحتميّة الأولى لذلك أنّ الصلة بين اللغة والثقافة تتلاشى وبطول المدّة تزول فلا تكون الأنماط اللسانيّة ممثّلة للظواهر الثقافية.. وهذا مرتكز نظريّتنا.. والنتيجة الثانية أنّ الأشكال اللغويّة تعكس، فيما تعكس،





مراحل سابقة من الثقافة ولا علاقة لها بالثقافة المعاصرة لها.. لا نزعم أنّ اللغة والثقافة تبلغان حدّا لا يكون بينهما فيه أيّ ارتباط مهما كان نوع هذا الارتباط.. إنّما نقول إنّ شدّة اختلافهما في وتيرة تحولاتهما تجعل من شبه المستحيل تبيّن ما بينهما من وشائج.

وبالرغم من كون الأنماط اللغويّة لا تساير الظواهر الثقافيّة، كلّما تسارعت أشكال الثقافة إلى النموّ صاحب ذلك نموّ أسرع في الأشكال اللغويّة فإن أردنا أن نبلغ بهذه النظرية حدودها المنطقيّة القصوى كانت النتيجة الحتميّة التي لا تقبل الجدل أنّه كلّما تحوّلت الظواهر الثقافيّة بسرعة واكب ذلك تطوّر لغويّ أشدّ سرعة.. وهذا يخالف العقيدة السائدة القاضية بأنّ المجتمعات الحضاريّة المتقدّمة أكثر محافظة على لغاتها من الشعوب البدائيّة.. نعم! من المحتمل أنّ النزعة الرّامية إلى إحداث تغييرات سريعة في اللغة موازية للتطوّر الثقافيّ المتشعّب يقاومها عنصر من العناصر الأكثر أهمّيّة في ثقافة متطوّرة، وأقصد به نظاما ثانيا من الرموز اللغويّة الخاضعة بحكم الضرورة لنزعة المحافظة على القديم، نزعه تفرض نفسها على النظام الموجود لأنّها أشدّ تأثيرا.. وأعني بالنظام الثاني استعمال الكتابة ومع ذلك يظهر لي أنّ هذه المفارقة الصوريّة التي خلصنا إليها تتضمّن جزءا من الحقيقة.. فلا يصحّ في نظري أن نعدّ التطور الثقافيّ السريع في أوروبا الغربيّة خلال العشرين قرنا الأخيرة نتيجة لتطوّرات لغويّة جدّ سريعة في ظاهرها.. ليس لي حجج دامغة تفصل القضيّة، لكنّني أشكّ في أنّ الكثير من لغات القبائل البدائية وقع له من التغيّر ما وقع للغة الإنجليزية في الفترة نفسها.



هذا التفسير الافتراضيّ المحض لعجزنا عن وجود روابط بين اللغة والمحيط يمكن تلخيصه في مثلٍ نضربه: رجلان انطلقا في سفر وفي



نفس الاتجاه، وكان كلّ منهما يحمل من الزاد ما يقوّم أوده.. بقيا متلازمين برهة من الزمن طويلة، لا يشعر أحد منهما بنصب.. وبطول المدّة بدأ يظهر ما بينهما من تباين في احتمال متاعب السفر، والقدرة على المغامرة، وتعرّف الوجهة الصحيحة، وغيرها من العوامل، فتخلّف أحدهما عن الآخر وسلك مسلكا مغايرا وأخذت الشقّة في الاتساع بينهما.. ذلك شأن العديد من الظواهر التاريخيّة، تكون في حقبة من الحقب متلاحمة أو مرتبطة ارتباط السبب بالمسبّب، ثمّ يدركها النزوع إلى أن يبتعد، شيئا فشيئا، بعضها عن الآخر.



الإحالات

حاولت في هذا النصّ أن أقرّب المضمون إلى القارئ وبخاصّة من لا يعرف من اللغات غير العربيّة وأن أجعله واضحا في ذهنه.. ولذلك ابتعدت ما استطعت عن الترجمة المحاذية للنّص ّمحاذاة تامّة وفضّلت الأسلوب العربيّ المألوف.. بيد أنّي لم أغفل ولو أحرّف فكرة أساسا من الأفكار الواردة في المقالة، وهي فصل من كتاب (la jean – Eile Boltanski) (Nicole Sousbielles).



* إدوارد سابير (Sapir Edward) من علماء اللسانيات والبشريات (Anthropologie) ومن أصل ألماني ولد سنة 1884 بمدينة لوانبورج (lauenbourg) على نهر الألب (Elbe) وتوفي عام 1939 بمدينة نيوهافن (New Haven) قريبا من نيويورك.. هاجرت أسرته إلى الولايات المتحدة ولما يبلغ الخامسة من عمره زاول دراسته الابتدائية والثانوية بنيويورك، وبجامعة كولومبيا.. درس اللغة الألمانية وتابع عدة سنوات بهده الجامعة محاضرات مواطنه فرانتز بواس (Frantz Boas)

وهو الذي وجهه إلى الاهتمام بلغات الهنود الحمر وثقافتهم بعد ما عمق معرفته باليونانية واللاتينية والجرمانية، فشغل منصب أستاذ بكندا (1910 – 1925) فشيكاغو، وعني في الوقت نفسه بدراسة اللغات الهندية الشمالية دراسة ميدانية في المجالين الشكلي والوظيفي.. سمح له ذلك بتأسيس طريقة لدراسة اللغات تعتمد التصورات الذهنية والتصنيف.. وقد بسطها الأميركي (Worf) في كتابة «اللغة بين الفكر والواقع».. 1956 وكان لسابير الأثر البالغ في الدراسات اللسانية الأميركية وهو الذي مهّد المجال التركيبي للنظريات التحويلية التي طورها هاريس (Harris) وتشومسكي (Chomsky).







الإصلاح الاجتماعي والوطنية
عند البشر الإبراهيمي

شخصيّة جزائريّة فذّة متميّزة ممتازة، واسعة الأفق، متعدّدة الجوانب، ثاقبة الفكر وقادّة الذهن، غزيرة المعرفة، مستنيرة نيّرة، وقفت حياتها على خدمة الوطن الجزائريّ بخاصّة والأمة العربيّة الإسلاميّة بعامّة، بالدعوة إلى الصلاح والإصلاح وبالتمكين للّغة العربيّة، أهمّ دعائمهما، ونشرها في ديارها وغير ديارها بما أوتيت هذه الشخصيّة من مواهب قلّ نظيرها، مواهب فكريّة فطريّة غذّاها جهد دؤوب، ومراس لا يعرف الملل، وهمّة عالية وإخلاص صادق وتفان في قضيّة ملكت عليه مشاعره وأنارت سبيله فأنار لها سبيل مواطنيه.

ومن البديهيّ أن تكون للقارئ فكرة عامّة وجيزة، يسمح بها المقام، عن الوسيلة التي عبّدت له الطريق الذي سلكه فمكّنه، فيما بعد، من تصوّر الغاية المثلى التي وهب لها حياته ومن التمكّن من ناصية اللّغة العربيّة وتطويعها، بما يدعو إلى التقدير والإعجاب، فيما خاض من مجالات علميّة وثقافيّة واجتماعيّة، وبما جعل أدباء المشرق العربيّ يلقبونه ب « جاحظ القرن العشرين ».

ليس لي من مصدر أرجع إليه في عرض جد موجز لصلة العلاّمة محمّد البشير بالتعلّم، في صباه المبكّر، إلاّ الوثيقة المكتوبة بخطّ يده والتي شرّف والدي بها فبقيت محفوظة بمكتبة الأسرة.. أوجز مضمونها بما يناسب الموضوع.





بعد ذكر تاريخ ميلاده بمدينة بجاية (13 شوّال 1306 / 12 جوان 1889) وإيراد جزء من نسبه بيّن أنّه حفظ، أوّل ما حفظ، كلام الله، وأنّ عمّه محمّد المكّي عُني به عناية شديدة.. حفّظه العديد من المتون في مختلف الفنون النحويّة والفقهيّة واللّغويّة.. وكان رزق حافظة قلّ نظيرها في القوّة، وسرعة فهم لا تجارى.. ذكر رحمه الله في مخطوطته أنّ عمّه لشدّه حدبه وعطفه عليه توجّس خيفة من عواقب هذا النضج المبكّر، فكان لا يكلّفه الحفظ إلاّ بمقدار، ولا يجيب طلبه المزيد من الحفظ.. ترك ذلك أثرا بالغا في نفسه فاعترف لعمّه بالجميل وبرجاحة العقل طول حياته.. وما إن بلغ الرّابعة عشر من عمره حتى كان يحفظ غيبا الكثير من المتون في «مجموعها» والنصوص الأدبيّة ولا أعرف بالضبط ماهي ؛ وسيظهر ذلك جليّا في كتاباته.



وفي السنة 1912 يمّم المدينة المنوّرة لمتابعة دراسته بها.. وفي طريقة إليها توقّف بالقاهرة حيث اختلف مدّة ثلاثة أشهر إلى الجامع الأزهر، وبها أيضا حضر دروس الوعظ والإرشاد بالدار التي كان أسّسها رشيد رضا حديثا وخصّصها لهذا الغرض.. ولست أدري لماذا غادر مصر إلى المدينة المنوّرة.. تابع بالمدينة دروس التفسير والحديث وتعمّق فيهما واهتمّ بالأنساب فنال قسطا منها.. وأكثر من الاختلاف إلى المكتبات العامّة والخاصّة يطالع بها أمّهات الكتب في شتّى ميادين التراث العربيّ الإسلاميّ فنما فيه شغف المطالعة واكتسب مزاياها من إنعام النظر فيما يقرأ وتعمّق في النصوص واجتناب للسطحيّة فيما يستعرض ومن تدبّر في الأمور.. والظاهر أنّ دروس رشيد رضا بالقاهرة وبعض أساتذته بالمدينة المنوّرة أثّرت فيه وهدته إلى المبدإ الذي يوصي به علماء التربية المعاصرون ويجملونه في المقولة الشهيرة: «لا يتعلّم التلميذ القراءة إلاّ إذا



حقّقت له عدم الانقطاع عنها طوال حياته».. وعلى هذا القياس يمكننا القول بأنّه ـ رحمه الله !ـ كان يعرف القراءة.

غادر محمّد البشير المدينة المنوّرة إلى دمشق وقضى بها سنتين (1917 – 1918) شغلهما بالتدريس في المدرسة السلطانيّة، وبلقاء بعض العلماء والشخصيّات البارزة ومنها رشيد رضا وبهجت البيطار.. وبالشام توفي والده.. وفي سنة 1918 عاد إلى الوطن.. وقصد قريته «رأس الوادي» يغادرها في بعض مآربه إلى مدينة سطيف.

وفي سنة 1931 أسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الإمام عبد الحميد ابن باديس وكان الشيخ البشير من دعائمها البارزين.. وهب حياته لبرامجها الإصلاحيّة ولتحقيق غاياتها مع ثلّة من أعلامها الأفذاذ وممن تخرج على أيديهم أو على أيدي غيرهم بالجزائر وما جاورها.



ولما توفي الإمام ابن باديس ـ رحمه الله ـ (16 أفريل 1940) خلفه على رئاسة الجمعيّة إلى أن وافته المنيّة بالجزائر العاصمة (10 محرّم 1385 / 20 مايو 1965) بعد فترة تناهز العشر سنوات (1952 – 1962) قضاها بالشرق الأوسط والشرق الأقصى يعرّف فيها بالجزائر وبما تعانيه من الاستعمار الفرنسيّ وبما تبذل جمعيّة العلماء من جهود في مجال الإصلاح المناوئ للاستبداد الأجنبيّ، المكافح للبدع، ويعبّد الطريق لبعثة الطلبة الجزائريّين التي أسّسها وأعانها لمتابعة دراستها بمختلف الأقطار العربيّة والرجوع إلى الوطن لمتابعة ما بدأت الجمعيّة من إصلاح وللرّقع من مستوى الثقافة العربيّة.. وبفضل تلك البعثات تمكّن بعض الطلبة من متابعة دروسهم بالجامعات الغربيّة والأمريكيّة ومن العمل العلميّ الذي يدعو إلى الإعجاب وتفخر به الجزائر.. ومنهم من كرّمه المجلس الأعلى كعادته في تقدير الجهود العلميّة وتشجيعها.



سبق سفره إلى المشرق مأدبة عشاء أقامتها سنة 1952 شعبة جمعيّة العلماء بباريس على شرف الوفود العربيّة الإسلاميّة في منظّمة الأمم.. وقد ألقيت في تلك المأدبة ثلاث خطب أولاها لعبد الرحمن عزّام الأمين العامّ للجامعة، وثانيتها لفارس الخوري رئيس الوفد السوريّ، وثالثتها للشيخ البشير الإبراهيميّ، ارتجلها فشُدِهَ الحاضرون لما سمعوا ولم يكونوا يتصوّرون أنّ في الجزائر من يرتجل خطبة بالفصحى فيبهر الحاضرين بقدرته الفائقة على تفتيق المعاني وببيانه الساحر الذي لا يصدّق أحد أنّه إبداعٌ مرتجل.. ولمّا وصل إلى المشرق وحاضر وخطب في الأوساط العلميّة بلغ الإعجاب به كلّ مبلغ.

أمّا مؤلّفاته فطبع منها ثلاثة مجلّدات تتضمّن محاضراته وخطبه ومقالاته الصحفيّة وكلّ ما ناوَأَ به الحكومات الفرنسيّة المتعاقبة مدافعا عن الشعب المضطهد في دينه وثقافته وحياته السياسيّة الاجتماعيّة ومحاربته للبدع والفساد وما له صلة مباشرة بالإصلاح الدينيّ والثقافيّ وفي هذا الإطار تدخل تربيته للأجيال وخدمة للغة العربيّة، كما تتضمّن أرجوزة بديعة بعنوان «رواية الثلاثة» و«رسالة الضب». وله أرجوزة ملحميّة في ستّة وثلاثين ألف بيت (36,000) عرض فيها تاريخ الإسلام والجزائر والجوانب الاجتماعيّة الدينيّة للمجتمع الجزائريّ.. وهي ملحمة نقديّة رائعة بأسلوبها الممتع ومقدرة صاحبها في النظم على بحر الرجز، تتكشّف عن موهبة قلّ نظيرها، ورسائل أخرى لغويّة ودينيّة لا يتّسع المقام لذكرها ولا للحديث عنها لأنها غير مطبوعة.

أمّا ثقافته فتبدو سعتها في مضمون آثاره وفي أسلوب قلّما يجارى.. فيه عرف محمّد البشير القراءة الحقيقيّة فطبعت حياته وكانت ميزته وغذاءه الفكريّ إلى أن لحق بربّه، وجعلت منه العالم الفذّ والأديب

المرموق.. وقد بيّن فضلّها عليه في آثاره وفيما كان ينصح به الشباب وإخوانه من أعضاء جمعيّة العلماء الجزائريين.

والمتصفّح لآثاره المطبوعة، المعمل فكره في مؤلّفاته ومحاضراته ودروسه في مختلف النوادي والملتقيات في الوطن وخارجه ومقالاته الصحفيّة، يدرك بوضوح أنّ القرآن والحديث والسيرة النبويّة والأصول والفروع وعلم الكلام والفلسفة الإسلاميّة والمذاهب الدينيّة سنيّها وشيعيّها والحركات الصوفيّة وتاريخي المشرق والمغرب قديمهما وحديثهما والأدب العربيّ شعره ونثره والأمثال والقواعد والبلاغة كما وردت في الميداني وغير الميداني كانت من كبريات اهتماماته وممّا يجيد توظيفه في إبداعه.. وما قولك في رجل يحدثك بكلّ تفصيل عن الغزالي وابن تيميّة وابن المعلّم (الشيخ المفيد عند الشيعة) وعن الحركات الفكرية الباطنيّة والاثني عشريّة وينقد بسهولة وجدارة كبار المفسّرين من القدماء والمعاصرين كفخر الدّين الرّازيّ محمّد بن عمر (ت.. 606 هـ) في كتابه الشهير «مفاتيح الغيب، والآلوسيّ الكبير محمود بن عبد اللّه الحسينيّ (ت.. 1270 هـ) صاحب» روح المعاني «(في عشرين جزءا)».

قلنا إنّ الشيخ البشير تأثّر بكثرة ما حفّظه عمُّه في صباه المبكر وبما أخذ من دروس بالمدينة المنوّرة وبوفرة ما طالع بها ـ أو بعد مغادرته لها ـ من كتب لا سيمّا بعض آثار ابن تيميّة وابن قيّم الجوزيّة وأبي حامد الغزالي (ت.. 505 هـ) في المشهور من آثاره ك «المنقذ من الضلال» و «إحياء علوم الدين» و «فضائح الباطنيّة» و «المستصفى من علم الأصول»، يراه أحسن وأوفى ما كتب في أصول الفقه.. أخبرني والدي بذلك.. تستشف مطالعاته من آثاره وأسلوبه ومقدرته في الفائقة على




المناظرة وعلى التعليل الذي يبهرك حين تقرأ مقالاته في «عيون البصائر» وفي غير العيون.

وقد يكون عرف القليل أو الكثير من تعاليم «أهل التوحيد، وإخوان من أطاع الله» وهو الاسم الذي ارتضاه الوهّابيّون لأنفسهم.. أفترض ذلك ولا أجزم به لأنني وجدت في كتاباته ما يدلّ على تقديره لجهودهم ومذهبهم الذي يقول فيه «إنه يذيب البدع كما تذيب النار الحديد» ويقول: وجهت أسئلة من العامّة إلى هؤلاء المفترين من علماء (السنّة) عن معنى الوهّابيّ فقالوا هو الكافر بالله ورسوله «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا» (العدد التاسع من جريدة السنّة باسم «كاتب نقّاد» من جمعيّة العلماء، و« آثار الشيخ البشير الإبراهيميّ: 1 / 52).

أمّا مشاركته الفعّالة في إنشاء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين فكانت عاملا أساسا.. روى أنّه بعد ما رجع من سوريا بسنوات زاره الشيخ عبد الحميد ابن باديس بمدينة سطيف ليعرض عليه فكرة إنشاء «جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين» وكانا درسا الفكرة بالمدينة المنوّرة مدة ثلاثة أشهر.. يقول الشيخ البشير في إحدى محاضراته:

«زارني الأخ الأستاذ عبد الحميد بن باديس – وأنا بمدينة سطيف أقوم بعمل علميّ – زيارة مستعجلة في سنة أربع وعشرين ميلاديّة فيما أذكر.. وأخبرني بموجب الزيارة في أوّل جلسة وهو أنّه عقد العزم على تأسيس جمعيّة باسم» الإخاء العلمي «يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة المدينة العلمية، وتكون خاصة بعمالتها، تجمع شمل العلماء والطلبة وتوحّد جهودهم، وتقارب بين مناحيهم في التعليم والتفكير وتكون صلة تعارف بينهم، ومزيلة لأسباب التناكر والجفاء.. وذهب يقصّ عليّ من فوائدها ما لم أنكره ذوقا وإحساسا وإن كنت استبعدته عملا وواقعا

لاعتبارات ذهبت بذهاب واقعها.. ولم أكاشف الأخ الأستاذ بها خشية أن أثبطه – وما التثبيط من شيمي ـ ولم يزل كلامه يقنعني حتّى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أخي.. وتنازعنا الحديث في منافع هذه الجمعيّة، فتكشّفت لنا عن فوائد لا تحصى.. » (آثار: 1 / 119 – 120).

وفي تلك الجلسة طلب الشيخ عبد الحميد ابن باديس من صديقه أن يضع للجمعيّة قانونها الأساسيّ فوضعه في اللّيلة نفسها وعرضه عليه ففرح به واتفقا على أعضاء الإدارة.. ولمّا رجع إلى قسنطينة عرض الفكرة على الأعضاء فأقرّوها كما أقرّوا القانون بعد تعديل طفيف.. لكنّ بعض الأحداث عطّلت المشروع فلم تر الجمعيّة النور حقيقة إلاّ سنة 1931م (آثار: 1 / 120).



لم تكن فكرة إنشاء جمعيّة العلماء بنت الساعة، بل كانت تختمر في الأذهان وبخاصّة في ذهن المصلح الجزائريّ الكبير بتأثير من أعمال الشيخ محمّد عبده وتلميذه رشيد رضا جامع جزء من تفسيره ومؤسّس مجلّة المنار، وكان لها على ندرة قرّائها بالجزائر ـ كما يقول الشيخ البشير ـ صدى واسع في أوساط المثقفين الراغبين في الإصلاح إصلاح مجتمعاتهم وبعثهم إلى الوجود الحقيقيّ وزرع بذور الفضائل فيهم بتبصيرهم بحقائق الدين ومعالمه الكبرى ومراميه القصوى.

يستشف ما أقول من شهادة الشيخ البشير الإبراهيميّ الواردة في محاضرته الطويلة التي ألقاها بنادي الترقّي بالعاصمة في شهر سبتمبر سنة 1935 والتي يفصّل فيها الحديث عن بدء تفرق المسلمين في الدّين (الكلام في القدر والخوض في الصفات، وظهور أصحاب المقالات في العقائد، وإحداث بدعة التأويل، وتوفر الدواعي لظهور المذاهب الفقهيّة والمذاهب الكلاميّة



والمذاهب الصوفيّة في أزمنة متقاربة، وأثر الفلسفة اليونانيّة والحكمة الهنديّة والفارسيّة في ذلك، وطغيان شرور العصبيّة للمذاهب الفقهيّة والمذاهب الكلاميّة في جميع الأقطار الإسلاميّة، والبرامج العقيمة التي مازالت في الأزهر والزيتونة والقروييّن تدرس علم التوحيد بطرائق عقيمة أيضا: تعتمد التلقين ولا تفتق ذهنا والمتون البالية التي تجاوزها الزمن، وآثار الطرق السيّئة في المجتمعات الإسلامية وتعويدها الإخلاد إلى الجمود والتصديق بالخرافات والبدع الفاسدة المفسدة للفطرة الرائضة على الذلّ والمهانة والخضوع وأذكوا فيها العداوة والبغضاء وجرؤوا المستعمر عليها في العالم الإسلاميّ كلّه لأنّ الطرق منتشرة في البسيطة وإن كانت شرورها بعيدة عن البساطة) (آثار: 1 / 94).

لم تنحصر الجمعيّة في ولاية قسنطينة كما أريد لها في أوّل أمرها بل عمّت ربوع الوطن فبقي ابن باديس بقسنطينة يفسّر القرآن ويتابع ما كان يزود به طلبته من دروس في اللّغة والأدب، وأوفد الطيب العقبي إلى العاصمة يقوم بدروس الوعظ والإرشاد بنادي الترقّي، وأرسل البشير الإبراهيمي إلى تلمسان فأسّس دار الحديث حيث كان يقوم باكرا بشرح الموطأ للإمام مالك ومساء بتفسير القرآن، يتخلّل ذلك دروس في العربيّة وآدابها أو مجالس للوعظ والإرشاد.

أمّا ما تكفّلت به جمعيّة العلماء وعاهدت الله على إنجازه فإصلاح الأمّة، ولا يُصلح إلاّ الفاسد كما يقال وكما قال الشيخ البشير الإبراهيميّ في العديد من مقالاته.. ويمكن الإصلاح في الرجوع إلى القرآن والسنة ينبوعي الدين الحنيف وفي فهم مقاصدهما بالوسائل الناجعة.. فالقرآن ليس كتابا أنزل للحفظ والتلاوة بغير فهم روحه، ولا يكتفى فيه بمجرّد فهم مفرداته وتراكيبه والاستدلال به على إرساء مذهب أو تقرير عقيدة.



ذلك ما جعل الشيخ البشير يتصدّى لنقد كتب التفسير التي ظهرت قبل النّصف الثاني من القرن التاسع عشر فيما صدّر به الطبعة الأولى من «مجالس التذكير» للشيخ عبد الحميد ابن باديس.. يرى المفسّرين أصنافا ويعدّ تآليفهم أبعد ما يكون عن روح القرآن وتعاليمه السامية الباعثة في المسلم التوحيد المطلق، والفضيلة بأسمى معانيها وأوسعها، وما يكفل السعادة في الدارين والعزّة بين الأمم والكرامة والتقدّم وسعة المدارك والأفق الرحب، وبعبارة أوجز كلّ ما تفتقر إليه الأمة العربيّة الإسلاميّة في العصر الراهن.. المفسّرون، كما عرفناهم من آثارهم، أصناف وطرائقهم في التفسير عديدة.

فالمحدّثون يلتزمون التفسير بالمأثور فإن اختلفت الروايات رووا المتناقضين وتركوك في حيرة، ومقلّدو المذاهب ينتصرون لها بالتّأويل إن اضطرّوا إليه، وأصحاب المعاني، ومعظمهم من اللّغويّين والنحاة، يتكلمون غالبا على الألفاظ المفردة وأوجه الإعراب، والإخباريّون يستهويهم القصص فيحشون كتبهم بالإسرائيليّات، وأصحاب المذاهب العقليّة يركّزون على إثبات الصفات أو نفيها وعلى الغيبيّات، والباحثون في أسرار التراكيب لا يهمههم إلاّ توجيه الأعاريب ونكت البلاغة، والمقتصرون على الأحكام والعبادات يجدون ضالّتهم في استنباط المادة الفقهيّة وما تفرّع عنها.

يعدّ هذه الفترات وهذه الأنماط من تفسير القرآن وهؤلاء المفسّرين عوامل خمود وركود وضربا في حديد بارد وجهودا ضائعة وحبرا جافّا أكثر منه سائلا.. ولم ير بشائر من النور وإرهاصا لفهم صحيح يفي ببعض ما للقرآن من حقّ على أهله إلاّ في «فتح القدير» في التفسير للشوكانيّ اليمنيّ محمد بن علي (ت.. 1250 هـ) صاحب المائة وأربعة عشر مؤلفا، وفي «روح المعاني» للألوسيّ الكبير، و «لفّ البيان في مقاصد القرآن» لصدّيق حسن خان البخاري الهندي.




ثمّ «كانت المعجزة بظهور الإمام عبده، إمام المفسرّين بلا منازع، وأبلغ من تكلّم في التفسير.. بيّن هدي القرآن كخير ما يبيّنه أحد، وغاص في أعماقه فوفّق بين آياته وآيات الأكوان.. بوجوده وجد علم التفسير وتمّ، ولم ينقصه إلاّ أنّه لم يكتبه بقلمه كما بيّنه بلسانه، لأنه مات دون ذلك، فخلفه» ترجمان أفكاره محمّد رشيد رضا فنشر طريقته في تفسيره «المنار» وضمّنه الكثير ممّا ورد على لسان شيخه وإمامه لكنّه توفي قبل أن يتمّه.

ويخلص إلى أن إمامة التفسير انتهت بعد محمّد عبده في العالم الإسلاميّ كلّه إلى الشيخ عبد الحميد ابن باديس منشئ النهضة الإصلاحيّة العلميّة بالجزائر بل بالشمال الإفريقيّ كلّه.. ويقرّر أنّه وُهب حاسّة زائدة وقريحة وقّادة وذكاءً مسرفا وبصيرة نافذة وبيانا ناصعا واطلاعا واسعا وباعا مديدا في العلوم النفسيّة الاجتماعيّة.

وكان الإمام ابن باديس زار الشيخ البشير بتلمسان سنة 1935م –وهي السنة التي توفّي فيها رشيد رضا في حادث سيّارة، وتمنّى عليه أن يعينه في التفسير مكررا: «إنّ الكتابة عليك أسهل منها عليّ».. فيجيبه الشيخ البشير: «ليس لإكماله إلاّ أنت»، فيجيبه: «لو تعاونّا وتفرّغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيرا يغطّي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت من مراجع توفّرت لرشيد رضا ولم تتوفّر لنا ومن غير أن نكون بالقاهرة.. ويأسف البشير لكون أخيه ابن باديس لم يكتب أماليه في الدين ولم يأخذ تلامذته على كثرتهم شيئا ممّا سمعوا.. إنّما دُوّن شيء من تفسيره فيما كان يصدّر به مجلة «الشهاب».

هذه نظريّته في التفسير وهذا مذهبه الذي كان يطبقه يوم كان يفسرّ لطلبته بتلمسان كتاب الله ويشرح لهم موطأ الإمام مالك ويقوم بالعديد

من الخطب في الوعظ والإرشاد في دار الحديث وفيما تيسّر له من الأماكن لأنّ سلطات الاحتلال منعته من اتخاذ الجامع الأكبر منطلقا للإصلاح رغم إلحاحه في الطلب

يرى أنّ الإصلاح الحقيقيّ الذي يبعث الأمة من جديد ويبعث فيها روح الحياة الكريمة الفاضلة ويخلّصها من العبوديّة والاستكانة للاستعمار البغيض دعامته كتاب الله وسنّة نبيّه (ص) بشرط أن يُفهما على حقيقتهما وألاّ يُفصلا عن اللّسان العربيّ، لأن الدين واللّسان وحدة لا تقبل التجزئة.. ويكررّ في العديد من مقالاته أنّ الأمة الجزائريّة «تفاخر بالإسلام لأنها قطعة من المجموعة الإسلاميّة العظمى وتفاخر بالعربيّة ترجمان هذا الدّين ومستودع الحكم ولسان الشعور والخيال» وأن اللغة العربيّة التي نزل بها القرآن تمازج الدّين ويمازجها، فمن جهلها ولم يتبيّن خفاياها ويغص في أعماقها جهل أسرارها وغاب عنه الكثير من حقائق الدّين.. ولعلّ خير ما أشاد فيه بعبقريّة العربيّة خطبة طويلة ارتجلها بحضرة الإمام عبد الحميد ابن باديس يبيّن فيها فضل لغة القرآن على العلم والمدنيّة، وأثرها في الأمم غير العربيّة.. وكان الإمام طلب منه أن يكتب في الموضوع فطرقه ارتجالا ببيان ساحر وبلاغة أخّاذة وضلاعة في الثقافة العربية والتاريخ قلّ نظيرها وسعة في الأفق مدهشة حتى ليُقسم من لا يعرفه أن مثل هذه الخطبة الفذّة المرصّعة بكلّ أنواع المجاز والسجع من المستحيل أن تكون مرتجلة.



كانت أهم دعامة يؤسس عليها إصلاح المجتمعات نشر التعليم والثقافة في مجتمع يعد مثقفوه الحقيقيّون آنذاك على الأصابع.. وقد بذل الشيخ ابن باديس في ذلك جهودا مضنية بقسنطينة جمعت حوله تلامذة أُشربوا حبّ العربيّة وأخذوا عنه مبادئها، وتابعوا دراستهم بجامع



الزيتونة، ورجعوا إلى الوطن ينشرون ما أخذوا عنه وعن غيره.. لكنّهم لم يكونوا في درجة الأعلام المنشئين للجمعيّة أمثال أستاذهم ابن باديس والبشير الإبراهيميّ والطيّب العقبيّ ومبارك الميليّ والعربيّ التبسّيّ وأنّى لهم المقدرة على نشر الإصلاح كما نشره هؤلاء الأعلام والاستماتة في طلب المزيد كما طلبه من ذكرنا من الأقطاب.

غادر الدنيا عبد الحميد بن باديس سنة 1359 / 1940 فخلفه البشير الإبراهيميّ على رئاستها.. كان الإرث ثقيلا لكنّه كان الأقدر على تحمّله لغزارة علمه وسعة أفقه وضلاعته في اللغة العربيّة، ومقدرته الفائقة على الخطابة والإقناع ولقلّة نظرائه في الحجاج.. حقّق ما كان يراود الرئيس من الأحلام فأسّس معهد ابن باديس الذي قصده طالبو العلم من أقصى القطر إلى أقصاه، وعيّن لنشر العربيّة وتعليم بعض فنونها التقليديّة به خيرة من وجدهم بالجزائر.. وكان رحمه الله يتعهّدهم بالزيارة والنصائح ويناوئ الاستعمار في سبيله وسبيلهم ويحاول توسيعه وتوفير المسكن لأساتذته والمطعم والمبيت لتلامذته وتموينه بما يكفل له البقاء والازدهار.. ويخصّص لأحوال المعهد ولبرامجه في التعليم وتحسينها ولأساتذته وطلبته العديد من المقالات في جريدة البصائر، يشرح فيها أوضاعه العلميّة والماديّة الإيجابيّ منها والسلبيّ، وأوضاع أساتذته، ويتّصل خارج المعهد ببعض الشخصيّات العلميّة راغبا منها في أن تعين إدارة المعهد بدروس تزوّد الطلبة بمعلومات عصريّة توسّع مداركهم وتكمل ما في البرامج من نقص، دروس كانوا محرومين منها.

وقد نجح في ذلك أيّما نجاح في سنة 1949: تطوّع له الدكتور عبد القادر بن شريف بإلقاء دروس في حفظ الصحّة واستعان في ذلك بأشرطة سينمائيّة «لقيت من الطلبة إقبالا يفوق الحدّ» وتطوّع الصيدليّ



علاّوة عبّاس (أخو الزّعيم فرحات عبّاس) بدروس أسبوعيّة في علم وظائف الأعضاء وتركيب الجسم، والأستاذ محمّد الجيجلي بحصص في علم الجغرافيا، ومحمّد بن عبد الرحمن بأخرى في علم الحساب.

وكان يعدّ معهد ابن باديس مرحلة أولى تهيّئ لـ « شهادة الأهليّة » (هكذا يسميّها) وتسمح للتلاميذ بمتابعة دراستهم بجامع الزيتونة.. والحقيقة أنّه كان يرى ذلك فترة مؤقتة ويطمح إلى إنشاء ثلاثة معاهد بالمدن الكبرى من الوطن: الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان، معاهد تُجهّز بالإطارات البشريّة الكافية في العدد المؤهلة للمهنة بالكفاءة العلميّة والإخلاص في العمل، وتُزوّد بالمال اللازم لتسييرها، حتّى يؤوي كل معهد منها ألف تلميذ.. ويعطي الحلّ لهذه المشكلة العويصة في مثل تلك الفترة ولذلك المشروع الطموح آنذاك.. يقول: «ولو تكافأت جهود جمعيّة العلماء في هذا السبيل وجهود الأمة وتوافقت على هدف واحد منه لبرز هذا العمل الجليل في سنة واحدة من الزمن؛ وإنّه لعمل جليل حقّا، نراه نحن ويراه ذوو العزائم معنا قريبا، ويراه المثبّطون والعاجزون بعيدا، وما هو ببعيد إلاّ عن هممهم ...» (عيون البصائر، ص 272).. يرى هذه المعاهد مؤسسات لتعليم ثانويّ تخوّل تلامذتها لمواصلة دراستهم بكلّية حقيقيّة تُشاد لتعليم الآداب العربيّة والعلوم الإنسانيّة والتجريبيّة على غرار الكلّيات الغربيّة لا جامعا عاجزا عن التخلّص من آثار عصور الانحطاط، يقرّر متن الأجرّوميّة لتعليم قواعد النحو «كما هي الحال بجامع الزيتونة» ويقصر الفقه على «المختصر» في فقه المالكيّة لخليل بن إسحاق الجنديّ (ت.. 776) (والعامّة تمسّيه «سيدي خليل») وعلى العديد من شارحيه كما هي الحال في الزوايا وكان يقول في بعض مجالسه الخاصّة: «لو بعث خليل لكان أوّل ما يفعل تمزيق كتابه» وينعى على





الزيتونة والقرويّين تدريس المنطق من كتاب «السلم» وما يضاهيه من مؤلّفات لم تعد صالحة للعصر، وعلى الجامعة الجزائرية اختيار «كتاب الزّمخشريّ» بشرح «المفصّل» لتعليم النحوي نافيا أن يوجد بالجامعة الجزائريّة الفرنسيّة من هو قادر على تدريسه (الآثار: 1 / 55 – 61، 2 / 220 – 224، 263 – 274، – 302 – 305 ...).

وكان تأسيس الكلّية فكرة للشيخ عبد الحميد ابن باديس رغب أشدّ رّغبة في تحقيقها فطلب من الشيخ البشير أن يُعدّ مشروعها وبرامجها ففعل.. وأعجب الإمام بذلك فيما يقول الشيخ البشير.. إلاّ أن القدر عاجلهما قبل تحقيق المشروع.. وقد حققته بعدهما الحكومات الجزائريّة المستقلّة.



واهتمّ بنشر التعليم العربيّ الابتدائيّ فشجّع على تأسيس الجمعيّات بالقطر كلّه وعلى بناء المدارس ورعايتها والتكفّل برواتب المعلّمين وتحسين أحوالهم والإحسان إليهم لأنّهم مربّو الناشئة ومعدّو رجال المستقبل والمحافظون على اللّغة والدّين والناشرون للفضيلة ؛ كما دافع عن حقوقهم المهضومة وندّد بالعراقيل التي وضعتها سلطات الاحتلال في سبيلهم رامية بذلك إلى محاربة التعليم العربيّ في بلد عربيّ مسلم لا يستقيم دينه إلاّ بلغته ولا يحافظ على هويّته إلاّ بالحفاظ على مكوّناتها.. حاربته الحكومات الفرنسيّة المتتابعة بـ «الدّيكريات» الظالمة، والتعبير للشيخ البشير، والقوانين المحلّيّة المتعسّفة التي ظاهرها رحمة وباطنها من قبله العذاب.. وكان طوال رئاسته لجمعية العلماء يناقش هذه القوانين وهذه القرارات المحلّيّة الواحد بعد الآخر منافحا عن الدين الإسلاميّ وعن العربيّة التي عدّت لغة أجنبيّة في وطن عربيّ مسلم ويطالب بترسيمها وتعميمها على المؤسسات التعليميّة في جميع المستويات.. ويحرّر في



ذلك «رسائل مفتوحة» إلى رؤساء الجمهوريّة الفرنسيّة (آثار: 2 / 69)..
ويخصص في «عيون البصائر» وبعناوين مختلفة ما يربو على الثلاثين مقالا للمطالبة بفصل الدين عن الحكومة وبتسليم أوقاف المسلمين إلى المسلمين لتسيير مساجدهم ومؤسسّاتهم التعليميّة وبرفع اليد عن العدالة لأنّ العدالة في الإسلام لمن يدين بالإسلام ولا يحاربه؛ كما يفضح مناوأة الاستعمار للغة العربيّة ومحاربتها بكلّ وسيلة مبطنة يكشفها في آثاره بوسائل يجيدها ويمزج فيها الجدّ والجدل المفحم بالسخريّة المرّة.

وفي آثاره، لا سيّما المقالات الصحفيّة منها، يُهيب بالمعلّمين أن يكونوا في مستوى مهامّهم بالاستقامة في سيرتهم وبالاستعداد لمهنة التدريس بالمثابرة على تحسين مستواهم العلميّ وتوسيع أفقهم المعرفيّ بالمطالعة الدائبة المثمرة المتدبّرة.. وألاّ يقنعوا بالسطحيّات والقشور في المتون وشروحها ومحشياتها التي أرهقهم أساتذتهم بها في الزيتونة وغير الزيتونة، والتي حفظوها فما شحذت لهم قرائح ولا فتقت لهم ذهنا ولا أطلقت لهم لسانا.. إنّما يكفيهم من كتب القواعد مثلا ما قوّم اللّسان بيسر.. أمّا أن يَدرسوها ويُدرِّسوها طوال حياتهم فإنّ ذلك مضيعة للوقت وعبث يعوقهم عن الدراسة المثمرة وعن التأليف – بَلْهَ الإبداع– فيما تنتشر به الثقافة ويزدهر به العلم.. ويبيّن لهم، كما فعل الجاحظ وابن خلدون والمنفلوطيّ قبله، أنّ العربيّة لا تنحصر في متون النحو والصرف وأن التلميذ محتاج إلى ممارستها في النصوص يحفظها ويستثمرها فيما يكتب ويجريها على لسانه حتّى يطوّعها له ويجعلها عادة؛ فالعادة إن استحكمت صارت طبيعة ثانية ويوصيهم بألا يقطعوا تلامذتهم عن حياتهم اليوميّة وعن عصرهم فإنّ من انقطع عن عصره مات ودفن قبل مجيء أجله.. يقول في سلسلة مقالات بعنوان «إلى





أبنائنا المعلّمين الأحرار»: امزجوا لهم العلم بالحياة والحياة بالعلم يأت التركيب بعجيبه، ولا تعمروا أوقاتهم كلّها بالقواعد، فإن العكوف على القواعد هو الذي صيّر علماءنا مثل «القواعد»، وإنما القواعد أساس، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتمّ البناء؟ «(الآثار: 2 / 292).. وهو بهذا التعبير، وعلى عادته، يتلاعب بالكلمات مستغلاّ الاشتراك اللفظيّ في» القواعد « الدالّة على قواعد اللغة، وعلى أعمدة البنيان، وعلى النساء: سُمّين كذلك لقعودهن بالبيت وإذا ما ذهبنا بالمعنى إلى أقصى حدوده عرفنا المقصود المرّ الذي لا يشرف علماءنا.

يحث المعلّم والمتعلّم للعربيّة على ممارسة التعليم الحقيقيّ في مظانّه: في نماذج الأدب الرفيع من شعر ونثر وفي التاريخ العربيّ والعالميّ والحضارات القديمة والمعاصرة وفي الفلسفة وعلم النفس الفرديّ والاجتماعيّ وفي النظم العالميّة.. يريد منه أن يوسّع أفقه لتتسع مداركه وأن يكون مواطنا حقيقيّا مشرّفا لأمته داخل الوطن وخارجه وكان رحمه الله !خير مثال لذلك في شمال إفريقيا وفي المشرقين الأوسط والأقصى.

يرى المعلّمين الأحرار، المنتمين إلى جمعيّة العلماء، الواقفين حياتهم على نشر المعرفة واللغة والخلق الحميد وعلى إصلاح أمّة خانها من أسلافها من خان عهد الله فأورث أسلافه خموله وخنوعه والرّضا بالواقع المر والإخلاد إلى الرّاحة والتواكل، يراهم في ميدانهم ومدارسهم مرابطة ثغور يدفعون عن أوطانهم أذى من استباحها وعن مجتمعهم خطر المضلّلين المنتسبين إلى الإسلام وما هم من الإسلام في شيء، ويحضّهم على عدم التقصير في الواجب لأن التقصير فيه جريمة من جميع الناس، وجريمتان من المعلّم الحرّ الذي لا وليّ له ولا نصير إلاّ جده وكده.. ويدعوهم إلى الإخلاص في عملهم لأنهم رعايا أبنائهم أبناء

الأمّة وفلذات أكبادها.. فمن أوجب واجباتهم إدارة نقوس تلاميذهم على الدّين وحقائقه، وألسنتهم على اللّسان العربيّ وحقائقه «ورياضتهم على حبّ العربيّة وفهم أسرارها، وإعدادهم» للحياة الشريفة بعد أن يجتثّوا من نفوسهم بقايا آثار المنزل الجاهل والأب الغافل ... « ونصائحه للمعلّمين الأحرار كثيرة لا يتّسع المقام لاستيفائها وتعاليمه تنطلق من فكر ثاقب ودراية ماكنة بأسس التربية.

ولم يكن متعصبّا للثقافة العربيّة الإسلاميّة فقد كان بصيرا بمضارّ التعصّب في شتّى مظاهره.. يقرّر في كلّ مواقفه أن التعصّب الأعمى سبب انحطاط المسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة.. ويدعو إلى التفتّح على اللّغات والحضارات البشريّة في سيرها التاريخيّ وآثارها في تقدّم البشريّة وإلى القدرة على استنباط مقوّماتها.. كما يدعو إلى معرفة اللّغات بما يمكّن من الإفادة منها لأن التقدّم مبنيّ على الأخذ والعطاء.. ويضرب مثلا بالعرب.. لم يكونوا إلاّ بدوا لا يكادون يعرفون من الحياة إلا النزر القليل فلما جاء الإسلام ووحدهم وقوّاهم وجدّوا في الفتوح اختلطوا بغيرهم فرحُبت بهم الأرض وعرّب المسلمون من معارف اليونان والفرس والهند ما تمثّلوه وطوروه فكان أساس النهضة الغربيّة الأولى.. كما يضرب مثلا بالمستشرقين الذين جمعوا تراثنا وترجموه وما زالوا يترجمونه إلى لغاتهم مع عدم احتياجهم اليوم إلى الكثير منه لتقدّمهم الواسع في ميادين العلم والمعرفة.. وينعى على مواطنيه الجهل بتراثهم وتراث غيرهم والعزوف عن أسباب الحياة الكريمة والتفاعس عن أخذ من غيرهم ما ينفعهم وعن الخمول الذي تركهم في الحضيض المزري (آثار، 1 / 257 – 265).

وفي مقال بعنوان «الأمّية» يبيّن مضارّ الأمّية، الوخيمة على الشعب، معدّدا ما تجلب من أمراض فتاّكة ورذائل فاضحة.. يقول: «ومن الأمثلة

الصريحة التي لا تحتاج إلى ترتيب الأقيسة في الاستدلال عليها – نقيصة الأمّية– فإنّها لا تفشو في أمّة وتشيع بين أفرادها إلاّ فتكت بها وألحقتها بأخسّ أنواع الحيوانات ومكّنت فيها الجهل والسقوط والذلّ والمهانة والاستعباد » (آثار، 1 / 140).. ويقارن بيننا وبين الشعوب المتقدّمة في الأخذ بأسباب المعرفة، وأولّها معرفة القراءة والكتابة ويرسم لمواطنيه بعض الوسائل لمحو الأمية، محذّرا إيّاهم من الركون في ذلك إلى الاستعمار فإنّ الأجنبيّ أصل البلاء.. ومقاله المنشور سنة 1355 هـ في العدد 26 من جريدة البصائر، بعنوان « لا يبني مستقبل الأمة إلاّ الأمة » يؤكّد ذلك (آثار، 1 / 163 – 167).

وممّا يؤكد سعة أفقه وبعده عن العصبيّة الجنسيّة مقاله الذي نشره بجريدة الشهاب في شهر سبتمبر 1929 بعنوان « الإنسان أخو الإنسان » والذي يبسط فيه معاني هذه الأخوّة ولوازمها ونتائجها في العصر الحاضر.

ويرسم للشباب الجزائري أقوم السبل للإنسانيّة الكاملة في سلسلة من المقالات اختار لها من العناوين «الشابّ الجزائريّ كما تمثله لي الخواطر » (عيون البصائر: 578 – 586).. وأراها في بلاغتها لا تقلّ عن حكم المتنبّي الرائعة ببلاغتها وقوّة تأثيرها في النفس وسموّ معانيها.. بل أراها، في شمولها وأبعادها المترامية الأطراف، صالحة لكلّ أمّة ولكلّ عصر.. وأجدها سحرا حلالا يلج القلوب بلا استئذان.

ينصح الشباب بأن يكون تّواقا إلى الحياة الفاضلة، طموحا إلى المعالي، مترفّعا عن الصغائر، مقداما على عظائم الأمور، متمرّدا على القيود، أبيّا للضّيم، غير هيّاب ولا وجل، ذكيّ الفؤاد، حازما في أموره، يرعى للأخ حرمة الدّم وحرمة الإنسانيّة لأن الإنسان أخو الإنسان ولأن الوطن جزء من مجموع الأوطان.. ويحثّه على ترك التواكل وعلى



العمل الدؤوب لصالحه وصالح المجتمع ضاق أو اتّسع.. يرى الشابّ الجزائريّ: كالماء يمرؤ فيكون هناء ويسخن فيكون عناء «.. وأرى الشيخ البشير بهذا التعبير يتذّكر الشاهد البلاغيّ ويذكرّ به:

أنا مثل المـاء سهل سائغ
وإذا سُخّن آذى وقتل

يختم كل مقالة من المقالات الثلاثة بالجملة: «يا شباب الجزائر ! هكذا كونوا أو لا تكونوا».. ويخصّص لواجب المثقّفين نحو الأمّة محاضرة طويلة ألقاها في الأربعينيّات بأحد نوادي تلمسان وبطلب من الأستاذ عبد السلام مزيان –رحمه الله –رجا منه أن يبيّن للمنتدين سبل التقريب بين ألوان الثقافات الرائجة في الجزائر والتأليف بين أفراد المثقّفين المتنافرين المتباعدين تباعد اللّغات التي تعلّموها وأثّرت في عقولهم وسلوكهم.

يذكّر بنبذة من تاريخ الأمّة في أوج عزّتها ومناعتها ووفرة علمائها وغزارة إنتاجهم واختلاف مشاربهم فيما يتعاطون من نشاط لا يقصدون به إلاّ خدمة المعرفة.. ويبيّن أنّ هذا الاختلاف لم يكن ينال من وحدة الأمّة، فقد كان فيها من عوامل الوحدة ما يقيها من الأخطار.. ثمّ يتطرف إلى دلالة لفظ الثقافة عند العرب القدماء وعند المحدثين من العرب والغربيّين وإلى مكوّناتها وميادينها وأثرها في حياة صاحبها وفي الأمم، ومنزلة المثقفين في الأمم الحيّة.. ويبيّن أنهم في هذه الأمم المصطفون والسادة والقادة والذابّون عن عزّة أوطانهم ومجدها والحافظون لتوازنها والمثل الأسمى في العلم والطموح والأخلاق.

يخلص بعد ذلك إلى أن ثقافتنا ناقصة في العدة والعدد وأنّ الجزائر تعاني من «ثقافتين مختلفتين تتجاذبان الأمة من أمام ومن خلف»:

إسلاميّة أكبر عيوبها الجهل المطبق بأحوال العصر ولوازمه، وأوروبيّة قوامها اللّسان الفرنسيّ والجهل الفاضح بحقائق الإسلام وأخلاقه وآدابه وبتاريخ الأمة، واحتقار اللغة العربيّة والعزوف عن تعلّمها.

يدعو المثقّفين إلى إصلاح أنفسهم ومجتمعهم، وإكمال نقائصهم العلميّة ومؤهلاتهم الثقافيّة، وإلى أن تتلاقح الأفكار وتتقارب مهما كانت لغة الاختصاص، وأن يصحح المقياس الذي تقاس به درجة الثقافة، موضّحا لمن يفخر بالثقافة العربيّة أن «الثقافة ليست الكتابة بعربيّة صحيحة في جريدة أو القدرة على الخطابة في مجتمع»، وللمتخرّجين من المعاهد والجامعات الفرنسيّة أنّ الثقافة ليس بالشهادات، وينعى عليهم العزوف عن التخصص في الفلسفة أو علم النفس أو الأخلاق أو فلسفة الاجتماع والتشريع والآداب وَكَلَفَهم بموادّ الطبّ والصيدلة وغير ذلك ممّا يجلب المال بوفرة وسهولة.




ويختم مقاله الضافي بدعوة المثقّفين مهما كان انتماؤهم إلى الامتزاج بالأمة والتحبّب إليها ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية وإيصال النفع إليها ورفع الأمّية عنها وحثّها على العمل ونبذ الكسل وتصحيح فهمها للحياة...

ويخصّ أعضاء البرلمان والنوّاب بسلسلة مقالات يدعوهم فيها إلى الاتحاد ونبذ الأنانيّة والتناحر والنزاهة وإخلاص عملهم للوطن وتحقيق استقلاله وحرّيّته ولمحاربة سياسة الاندماج في جميع مظاهرها ومقاومة التجنّس، وعلى الدفاع عن العربيّة وعلى السعي لإخراج الأمة من أميّتها.. ويورد عن بعض الساسة أنهم «يقولون: لا علم بدون استقلال فيعاكسون سنّة الله التي تقول لا استقلال بدون علم» (انظر مثلا: آثار: 2 / 41 — 43 – 192).. وهذه بالضبط نظريّة محمّد عبده.

أمّا رسائله العلميّة والأدبيّة ونظمه في الإخوانيّات وفي النقد الاجتماعيّ وأسلوبه البديع فيطول بنا الحديث إن تناولنا منه ما يخدم الأجيال واللّغة العربيّة ولذلك آثرنا أن نخصّه بكلمة ثانية.

وصفوة القول أنّ الشيخ البشير كان كصديقه الإمام ابن باديس ركنا من أركان النهضة الحديثة في الجزائر بالأجيال التي تخرّجت على يده وبما غرس في النفوس من هدي وبما رسم من مناهج تدعو المواطن إلى القيم الساميّة والفضيلة والصلاح والإصلاح والعيش الكريم والتخلّص من العقائد الفاسدة المفسدة ومن المهانة والاستعباد والاستقلال بأموره وتدبير شؤونه.







أصحيح أنّ العربيّة من أصعب اللغات ؟
(مشكلة تعلم العربيّة وتعليمها)

عرفته منذ زمن طويل فعرفت فيه الصدق في القول، والإخلاص في العمل، والرّغبة الشديدة في اكتساب المعرفة ما وجد إليها سبيلا ومهما كان مجالها.. درس العربيّة والفرنسية كما درسهما أترابه من جيل ما قبل الاستقلال وتمرّس بهما وأشرف على تعليمها منذ الستّينيّات.. وشغل مناصب عديدة في التربية والتعليم فاكتسب بذلك خبرة صالحة رسّخت معتقداته وثبّتت آراءه بل جعلته صعب المراس، قويّ الحجّة، لما له من بعد نظر ولحدّة ذكائه.



من آرائه الثابتة أنّ العربيّة من أصعب اللغات في مضمون معاجمها، وكثرة صيغها، ووفرة دلالات ألفاظها، وصعوبة قواعدها.. ومن حججه في ذلك أنّ المتعلّم في بلادنا وفي غير بلادنا من الأقطار العربيّة، ينفق العشرات من السنين في تعلّمها فلا ينال منها إلاّ النزر القليل وإن أسعفه الحظّ في اكتساب جزء صالح منها فبعد جهد جهيد، ولا تجده مع ذلك يسلم من اللحن.. ويهاجر بعض طلبتنا إلى أنجلترا أو إلى ولايات المتّحدة ويختلفون إلى مراكز التعليم العصريّ المكثف فيتزوّدون، في فترة لا تتجاوز نصف سنة، بما يمكّنهم من متابعة دراستهم في إحدى الجامعات الإنجليزية أو الأمريكيّة المرموقة.. فإن لم يكونوا طلبة اكتسبوا مبادئ تتطوّر بالاحتكاك والاستعمال اليوميّ إلى أن يصبحوا قادرين على استثمارها في كثير من الميادين لا سيّما في مجال اهتمامهم مهما تنوّع.



قلت لصاحبي: هذا للعربيّة لا عليها، بل هو لكلّ اللغات إن أردنا أن نطبّق قاعدة علميّة والعلم يتّسم بالشمول كما قرّر ذلك أرسطو وكما لاحظنا في دراستنا فالطلبة الذين تشير إليهم، من الجزائر أو من غير الجزائر، درسوا الإنجليزيّة سنين عديدة ـ قد تتجاوز العشر ـ في الأساسيّ والثانويّ والجامعيّ إن كانت من الاختصاص الذي اختاروا في المرحلة العليا.. تعلّموها بطرق عصريّة تعرف مبادئها وأشرف عليهم أساتذة أكفاء بالمعنيين اللغويّ والإداري.. لكنهم لا يمارسون هذه اللغة في صميم كيانها وفي شتّى مظاهرها إلاّ في بلادها مع أهلها وبفضل أهلها.. وما يقضي حامل الإجازة الجامعيّة في اللغة الإنجليزية سنة كاملة بأنجلترا إلاّ لهذا الغرض.. فالمبدأ الأوّل الذي نستخلصه ممّا سبق أنّ اللغة ممارسة يوميّة قائمة على أسس صحيحة.



هذه الممارسة اليوميّة غير المنقطعة هي التي تساعد الرّاشدين الأجانب على اكتساب مبادئ من الإنجليزيّة تمكّنهم من تحسينها بأفضل الوسائل إن وجدوا إليها سبيلا.. وأفضلها على الإطلاق الممارسة الموجّهة المتنوّعة.. إلا أنّ هؤلاء الراشدين الأجانب يعانون في أوّل الأمر، لأنّ لعامل السنّ دورا كبيرا، ولا ينطلقون بنجاعة ما لم يلتزموا في كلّ حين اللسان الذي يريدون إتقانه.. وهذا يؤكّد مرّة ثانية أنّ اللغة ممارسة.

إن كان هذا صحيحا في اللغات كلّها فلم لا يصحّ في اللسان العربيّ ؟ هاهي ذي اللهجات الدّارجة بشتّى فروعها ووجودها شاهدة على مبدإ الممارسة في اكتساب اللغة.. يتمرّس كلّ منا بلهجته المحلّية ويستعملها استعمالا صحيحا، دقيقا في تعبيره، واضحا في دلالاته، عميقا في مؤدّاه، مشرقا في ديباجته، بالغا في بعض الأحيان أقصى حدود الروعة في



بلاغته.. هي لهجتنا تخامر أعماقنا وتعرب عن خبايا نفوسنا وترتاح ألسنتنا إليها كما ترتاح هي إلى ألسنتنا فيصفو جرسها ويحلو نغمها.. ولا نعرف أحدا علّمنا نحوها وصرفها وبيانها وبديعها مع أنّ لها بديعا وبيانا وصرفا ونحوا.. شأنها في ذلك شأن العربيّة قبيل الإسلام وبُعيده، بلهجاتها وفيضها الغزير ممّا نجد في المعجمات المطّولة المشهورة وفي الآثار الأدبيّة الكبرى.. ينشأ العربيّ وغير العربيّ في في حضن الناطقين بها في مدن وبواد لا تعرف مدرسة ولا جامعة ولا نحويّا ولا عروضيّا، فما يبلغ أحدهم سنّ الرشد ـ إن لم أقل الحلم ـ حتى يبهرك بتمكّنه من فنون القول نثرا وشعرا ويستبي لبّك ببيانه ويخاطبك بلسان عربيّ مبين لا يتطرّق إليه اللحن ولا تشينه الهجنة والعيّ.

إلى مثل هذه الملاحظات استند بعض علماء الغرب في دعوتهم إلى إلغاء مادّتي النحو والصرف من التعليم المدرسيّ في اللغات التي لا يكاد يوجد فيها فصيح وعامّيّ وفي اقتراحهم طرائق طبيعيّة في تعلّم اللغة وتعلميها.. وسأعود إلى هذه القضيّة ببعض التفصيل.. إنّما أريد أن أعطيك مثالا حيّا يبيّن لك الفرق بين ما يمارس يوميّا وبين ما لا يصادف إلاّ لماما.. كنت في ملتقى تربويّ مع أساتذة التعليم الثانويّ من الأقطار العربيّة: مشرقيّها ومغربيّها.. وقادنا الحديث إلى تدريب التلميذ يوميّا على تصريف الأفعال وتخصيص خمس دقائق في كلّ حصة.. لذلك وبيّنت لهم أنّ هذه الطريقة الشفويّة أنجع الطرق لترسيخ القواعد وأنّ الإفراط في التصريف كتابة وعلى فترات متباعدة مضيعة للوقت ومدعاة للفشل.. وأعطيتهم أمثلة من تصريف الأفعال لأوضح لهم أنّ للعربيّة قواعد ثابتة في هذا الباب خلافا للفرنسيّة مثلا.. حتّى إنّ المعاجم الفرنسيّة تبيّن في مداخلها كيف يصرّف الفعل، ولا يوجد ذلك في المعاجم العربيّة.. لكنّني





لاحظت في أثناء مداخلتي أنّ الأساتذة لم يتعوّدوا في المرحلة الابتدائية هذه الطريقة فبقيت لهم ثغرات في تصريف الأفعال.. من ذلك أنّ بعضهم كان يقول: «أمحوي» وأنّني لم أجد منهم من استطاع تصريف «وجل» و «ود» و «يسر» في الأمر كانوا كلّهم يقولون «اِوجَلْ» – «اِوْدَدْنَ» – «أُيْسُرْ» فسألتهم: «أتقولون موزان، وموعاد ومولاد، وموراث، وموقات، وموسر، وموقن»؟ فأجابوا بلسان واحد: «بل نقول: ميزان، وميعاد، وميلاد، وميراث، وميقات، وموسر، وموقن.. » فقلت لهم: إنما عرفتم ذلك لكثرة دورانه على ألسنتكم ولأنّ الولد الصغير نفسه يقول: «عمّي فلان يسرق في الميزان» أترون أنّ الممارسة اليوميّة هي التي تقيكم الزلل وتجعلكم تقولن بسجيّتكم: ايجَل – اِيْدَدْنَ – أُوْسُرْ.. فاجعلوا التصريف في العربيّة سليقة في تلامذتكم بالطريقة التي ذكرت لكم، فهي التي توخّاها معي أحد المعلّمين في المرحلة الابتدائية ومنذ نعومة أظفاري.

لم تحافظ العربيّة على المكانة التي كانت لها قبل نهاية القرن الرابع الهجريّ على أكثر تقدير حتى في البوادي النائية عن التأثير الأجنبيّ والتي كان يستشهد بلغتها ولم يبق فيها من يجرؤ على أن يقول معتزا بملكته اللغويّة وعفويّة خطابه (طويل) :

ولست بنحوي يلوك لسانه
ولكن سليقيّ أقول فأعرب

فقد امتزجت القبائل العربيّة بالشعوب الأعجميّة وامتزجت بذلك الثقافات واحتكّت اللغات وتأثّر بعضّها ببعض تأثّرا بالغا نتج عنه لهجات دارجة تطوّرت تطوّرا طبيعيّا وفقا لسنن الحياة ومازالت ولن تزال تتطوّر بتطوّر الحضارة أو الحضارات البشريّة إلى أن يرث الله الأرض ومن

عليها.. ففقدت الكثير من سماتها وطرأ عليها الجديد في المستويات الصوتيّة والصرفيّة والإعرابيّة والتركيبيّة.. ولا عجب في ذلك.. فالفرنسيّون لم يعودوا يفهمون نصوص رابليه (Rabelais)، من كتّاب القرن السادس عشر، والإنجليز المعاصرون لا يفقهون شيئا من شعر شكسبير.

لكنّ العربيّة تطوّرت أيضا في كنف القرآن فرعاها وحافظ على أسسها البارزة فبقيت لغة إعرابيّة اشتقاقيّة لم تفقد إلاّ ما لا يُعتدُّ به من معياريّتها التي كانت لها أيام الجاحظ أو أبي حيّان التوحيديّ أو الشريف الرضيّ.. مَنْ مِن المثقّفين يرى فرقا كبيرا بين لغة أبي تمّام والبحتريّ ولغة البارودي وشوقي وبينهما أكثر من ألف سنة.. وقد يقال هذه علامة الجمود اللغويّ، وأراه معجزة إن كنّا نؤمن بالمعجزات، وقوّة إن عرفنا كيف نستثمر القوى لصالحنا وصالح لساننا.. والحقيقة أنّ الفصحى، وإن لم تفقد سماتها الأساسيّة، تطوّرت على مرّ العصور بتطوّر الحضارة البشريّة وباستيعابها لمختلف الفنون والعلوم الأجنبيّة وبجهود أصحابها في الإسهام بقسط وافر في تطوير هذا التراث العالميّ.. تخلّصت العربية في مسيرتها الطويلة ممّا أثقل كاهلها من الآلاف المؤلّفة من الألفاظ التي لم تعد بحاجة إليها وتبنّت أخرى ضروريّة لحياة أهلها.. والناظر في «لسان العرب» مثلا يشعر لأول وهلة بذلك.. فلا يجد فيه الألفاظ المستحدثة بعد القرن السابع أو القديمة التي أخذت بعده دلالات جديدة.



هذه اللغة الأساس المشذّبة المهذّبة هي التي نريد أن نعلّم أبناءنا الضروريّ منها بعد إثرائه بما لا مناص منه في العصر الراهن من ألفاظ الحضارة التي يفرضها علينا واقع حياتنا بلسان ليس منا ولسنا منه.. أمن الحكمة أن نعلّم الولد نصوصا وألفاظا لا تمتّ إلى واقعه بصلة وأن نسلك في ذلك مناهج عتيقة ظهرت إلى الوجود منذ أحد عشر قرنا على أقل



تقدير ؟ أمن المعقول أن يعجز أحدنا عن تسمية معظم ما يباشر صباح مساء في معزله وخارج منزله وندّعي أنّ تعليمنا بخير والحمد الله وأنّنا أبناء عصرنا ؟ ألا نقول: prise و interrupteurو balcon و fauteuil و canapé وغير ذلك مماّ لا حصر له ؟

قرّرت مبدأين: أنّ اللغة ممارسة كالرماية والسباحة في البحر وسياقة السيّارة وغيرها وأنّ من الضروريّ أن تكون ابنة عصرها.. فهل هي كذلك في مدارسنا ؟ أزعم أنّ من الأمر على غير ما قرّرت، وأنّ الخلل يمكن إصلاحه بتكثيف الجهود وتضافرها، والصبر على العمل الشاقّ المتواصل، ووضوح الهدف أو الأهداف، وتحرّي الوسائل الناجعة.. ولن يتحقّق ما نصبو إليه إلاّ إن تحقّقت شروطه وذلك يستدعي زمنا جدّ طويل لطول عهدنا بالإنتاج الفكريّ الغزير الذي كنا فيه مثلا لغيرنا ولتعاقب المحن علينا فكان ما كان.. ولمّا آل إلينا أمرنا وجدنا أنفسنا أحوج ما نكون إلى غيرنا، و « المكسوّ بشيء الناس عريان » كما يقوم المثل العاميّ.. فاضطررنا إلى تكوين إطاراتنا على عجل وإلى الرضا بالموجود.. وانطلقت مؤسساتنا على علاّتها.. ولا أريد أن أظلم مواطني من المعلّمين فليسوا بمسؤولين عن وضع التعليم في بلادنا.. إنمّا سلكوا مناهج أقحموا فيها غير معبّدة وحملوا ما لا يطيقون لكنّ المسؤولين عن ذلك غير مسؤولين كذلك لأن « الضرورة تبيح المحظورات » ولأن قوانين الوجود لا ترحم المتوقّف.



والمتعلّم ؟ – صبيّ فمراهق يختلف إلى المدرسة ليكتسب موادّ محدّدة ببرامج ملزمة وطرائق تربويّة قليلا ما يجرؤ المعلّم على التصرّف فيها.. ومن هذه الموادّ اللغة العربيّة بجميع مكوّناتها ووسائل اكتسابها.. وبما أنّها، في مستواها الفصيح، إعرابيّة اشتقاقيّة فالقواعد عمود فقرها، ولذلك يولي



المربّون النحو والصرف كلّ اهتمامهم ظنا منهم أنهما المدخل الوحيد إلى العربيّة وأن تصوّرهما لا ينبغي أن يختلف عمّا كان عليه في القرن الثالث.. فإن عرف التلميذ مواضع الرّفع والنّصب والجرّ والتقديم والتأخير، والحذف والتقدير، والإعراب المحلّي والإعراب التّقديريّ، والعامل والمعمول، والمعرب والمبنيّ، والإعلال والإبدال، وتصريف الأفعال على اختلاف أنواعها، وغير ذلك من الأبواب المبسوطة في كتب القواعد، عرف العربيّة وسبر أعماقها وكان من أقدر الناس على امتلاك ناصيتها وتطويعها لقلمه ولسانه.. لذلك نجد القواعد غالبة على دراسة العربيّة ونجد المعلّم يغرق في بسط ما لا يفهمه التلميذ على حقيقته وما يشقّ عليه فيتبرّم به بل يراه مادّة ليست من العربيّة في شيء.. وكثيرا ما ظهر لي كذلك فيما حضرت من دروس في التعليم الثانوي.. وأذكر أنني كنت أكتب على السبورة أمثلة ليس لها من العربية إلا الشكل ولا ينتبه لا الأستاذ ولا التلميذ أنها لا تصح لبعدها عن المنطق وعن الاستعمال الفصيح ومن أمثلة ذلك: «وصلت إلى المدرسة وصولا» و «كتب المعلم الدرس كتابة».

مع أن الولد في هذه السن لا يخطئ في استعمال المفعول المطلق في خطابه اليومي.. فكثيرا ما نسمع أحدهم يقول فيمن أوسع آخر ضربا: «هرسه تهراس» وسمعت من يقول في معتوه: «يمشي مشية ماركان».. ألا يعرف مثل هؤلاء الأولاد المفعول المطلق بنوعيه: المؤكد والدال على النوع ولا يخطئ في استعماله لأنه في العامية يصدر عن عفوية ودراية؟ ولا ينتبه في القسم إلى أن «قمت قياما» و «مشيت مشيا» جملتان غير عربيتين لأنهما لا معنى لهما.. وأرى أن مثل هذا ناتج عن قلة تمرس المعلم بالعربية بكثرة المطالعة، وقلة إعمال الفكر فيما يطالع، واكتفائه بل إخلاده إلى نصوص أو أمثلة من الكتاب قليلة الحظ



من اللغة الرصينة.. ولا أقصد بالرصين ما كان قديما، فكثيرا ما أكدى القديم وأجدى الحديث، إنما أعني به ما كان وثيق الصلة بالأساليب العربية الصحيحة.

هذا النحو الذي انحرف عن سبيله وابتعد عن غايته وصار مادة مستقلة بنفسها مترامية الأطراف ومجالا للاختلاف وتشعب الأفكار هو الذي ثار عليه الجاحظ ورمى أصحابه من معاصريه بالعجز عن تحبير صفحة واحدة مما يعتد به في الكتابة.. وثار عبد القاهر الجرجاني على ما آل إليه من تمحل وعلى الاشتغال فيه بما لا ينفع الناس وعلى ابتعاده عما يخدم العربية في أصالتها ويبين أسرار تراكيبها وروعة بلاغتها.. وجاء ابن مضاء القرطبي (ت.. 592) فتعمق في دراسة النحو وألّف فيه ثلاثة كتب لم يبق منها إلاّ «كتاب الرّدّ على النحاة».. وفيه حمل حملة عنيفة على مذاهب النحو القديمة وعاب عليها التعقيد والغموض والتمحّل في التعليل وقلّة الجدوى ودعا إلى تبسيط النحو وجعله أكثر وضوحا وتأسيسه على دراسة اللغة في ملامحها الحقيقيّة البارزة.. وقرّر ابن خلدون بعده أنّ اللغة ملكة وأنّها تكتسب بالممارسة ووفرة المحفوظ لا بمعرفة القواعد المجرّدة وتهكّم المنفلوطيّ مؤسّس النثر المعاصر ومعبّد سبيله، تهكّم في «النظرات» بطريقة تعليم النحو على عهده وبمن يعدّ القواعد أهمّ وسيلة لتعليم العربيّة وتعلّمها.. وجاء الشيخ البشير الإبراهيميّ، وكانت معاهد التعليم في النصف الأول من القرن العشرين تحصر تدريس العربيّة في حفظ متون النحو لا سيّما «الأجرّوميّة» و «قطر الندى» و «ألفيّة» ابن مالك «فقال بأسلوبه الساحر المتميّز: » وإذا أنفقنا أعمارنا في القواعد فمتى يتّم البناء "؟ بل عدّ أنّ هذا المسلك لا خير فيه فقال في موضع آخر من البصائر: «وإذا أنفقنا أعمارنا في القواعد بقينا قواعد».





ومهما يكن من أمر فقد كثر المتبرّمون بطرائق النحو التعليمي في مؤسّسات الأقطار العربيّة وأرجعوا إليها ما نشكو من ضعف في مستوى المعلّمين والتلاميذ ودعوا إلى تيسير النحو بالتفكير في تصور جديد له وتطويعه لمقتضيات العصر ونشره بوسائل جديدة من المستحدثات العلميّة.. وقد حاول بعضهم تبسيط المادّة النحويّة القديمة بحذف ما لا داعي إليه وإضافة ما أهمل القدماء، وبإعادة التبويب، وبالتركيز على الاستعمال اللغويّ في الكلمة والجملة والنّص لّتخليص النحو من هيمنة الإعراب وتوسيع مجاله.. ومن أبرزهم مصطفى إبراهيم صاحب «إحياء النحو» وشوقي ضيف مؤلّف «تجديد النحو» و«تيسير النحو التعليميّ قديما وحديثا».. وقد سبقهما جيل لم يزد على أن قدّم المادّة القديمة بأسلوب جديد وأمثلة حديثة خالية من الشواهد الشعريّة المعقّدة أو المرويّة بما يخدم الغرض بله الموضوعة.. وهذا الجيل مصطفى الغلايينيّ ورشيد الشرتونيّ وأحمد الهاشميّ وإبراهيم الأبياريّ وغيرهم من علماء مصر ولبنان.. وقد نصّوا في مؤلّفاتهم على أنّهم صاغوا ما ورد في ألفّية ابن مالك وشرحوها بأسلوب سهل واضح مناسب لأبناء عصرهم.. ومن المؤلفات اللافتة للنظر «الأحرفية أو القواعد الجديدة في العربية» ليوسف السّودا.. قرّر فيه صعوبة العربية لصعوبة نحوها وتعقيده وبنائه على أسس غير سليمة كالعناية بالشكل دون المعنى، والخطإ في التسمية والتعريف، وفلسفة اللغة.. واقترح تجديدا جذريّا اعتمد فيه الدراسات المقارنة فأخضع النحو العربيّ إخضاعا تامّا وبمهارة فائقة إلى التصوّرات الغربيّة الموروثة عن اليونان والرومان.. سمّى النحو «أحرفّية»، وكثيرا ما يستعمل اللفظ «غراماطيقا»، ومعناه في اليونانيّة «معرفة قراءة الحروف»، حروف الهجاء.. ومنه عنوان كتابه «الأحرفيّة».. ويدعو




الفاعل ونائب الفاعل «الفعيل» لأنّ صيغه فعيل في العربيّة تكون إمّا بمعنى فاعل مثل سميع وعليم وخبير وبصير وإمّا بمعنى مفعول كذبيح وقتيل وطريح.. وهو بذلك يحصل مصطلح يعادل كلمة: SUJET بالفرنسية مثلا (من subjectus اللاّتينيّة ومعناه خاضع لـ ...) ويسمّي المفعول به «التميم (.complement). والجملة الفعلية عنده ما كان فيه فعل لا ما بدئ بفعل، وهو تصوّر غربيّ.. واقترح حذف أبواب كثيرة من النحو وتعديل أخرى فيه.. والحقيقة أنّ هذا الكتاب جدير بالعناية رغم ما فيه من التأثّر المفرط بالثقافة الغربيّة.. أمّا الخطأ في التسمية والتعريف الذي يعيبه على النحو العربيّ فلا يخلو منه النحو اليونانيّ أو اللاتينيّ أو الأنجليزيّ أو الفرنسيّ ... فالفعل يقابله في اللغات الغربية المجاورة: Verbo – verb – verbe حسب اللغة المقصودة، من اللاتينيّة verbumوأصل معناه» الكلام، النبرة الصّوتيّة، الكلمة ".. سمّوا الفعل «كلمة» لأنهم يعدونه أهمّ عناصر الجملة، ومنه في التعبير الديّني: leverbe de Dieu(كلمة الله: عيسى بن مريم).. والفاعل في النحو العربيّ تقابله ألفاظ مأخوذة من subjectusاللاتينيّة كما رأينا، وتدلّ في معناها الأصليّ على المفعوليّة لا على الفاعليّة فإذا ما بحثنا عن اللفظ phrase الذي يقابل «الجملة» وجدناه من اللاتينيّة phrasis بمعنى طريقة التعبير، أخذ عن اليونانيّة phrazien (شرح).

أردت أن أبيّن أنّ المصطلحات في أيّ فنّ من الفنون غالبا ما تكون بعيدة عن معناها الأصليّ وأنّ عامل الزمن والاستعمال هما اللذان يجعلانها تكتسب دلالة تستقرّ عليها فتصبح نوعا من العلم شأنها شأن الإنسان عند ما يولد يدعى «صالحا» على سبيل التيّمن.. فإذا ما شبّ على الرّذائل واكتساب المعاصي لم يغيّر اسمه.. ذلك ما وقع للفظ





« حرف » في النحو العربيّ.. لم يكن يعني عند سيبويه سوى كلمة يتحدّد معناها بالسياق ولذلك قال: « فالكلم اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل» يريد: وكلمة جاءت لمعنى وليست باسم ولا فعل.. وكذلك عرفته المعاجم، فكثيرا ما يقول الأزهري في كتابه « تهذيب اللغة »: وأنا واقف في هذا الحرف «، يقصد به الكلمة التي لم يتبيّن معناها.. لكنّه بكثرة الاستعمال وبشيء من التوهّم دلّ على المصطلح المعروف فصار أحد أنواع الكلمة الثلاثة.



لست أقصد بما سبق أنّ النحو العربيّ خال من العيوب وأنّ تحسينه في مضمونه وشكله محظور، فذلك هو الجمود بعينه، الجمود المناقض لنواميس الطبيعة ومنطق الأشياء.. إنما أخالف من لا يفّرق بين اللغة وبين النحو ويظن أن قواعد العربيّة هي المسؤول الأوّل عن ضعف مستوانا وعجزنا عن اكتساب لغتنا بكلّ بساطة وبدون إضاعة الوقت.. وذلك ما نفرّنا من لساننا ورمانا في أحضان ألسنة غيرنا.. ليس أدلّ على ذلك مما روى إحسان عبد القدّوس في مجلة روزا اليوسف ووافق عليه مؤلّف « الأحرفيّة » (ص 15 – 16) من أنّ مؤنس بن طه حسين عميد الأدب العربيّ وقرينته ليلى العلايلي حفيدة أمير الشعراء أحمد شوقي لم يجدا إلى فهم اللغة العربيّة سبيلا.. وراح إحسان عبد القدّوس يقّرر في تهكّم مرير أنّ مؤنسا « يعرف عن بالزاك وموباسان وبول سارتر أكثر ممّا يعرف عن نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف الشارونيّ ... وليلى لا تتكلّم اللغة العربيّة إلاّ كما أتكلم أنا الإيطالية ... » وأرجع ذلك إلى أنّ « أساطين اللغة العربيّة، ومن بينهم طه حسين، لا يريدون أن يعترفوا بالتطوّر، ولا يريدون أن يسمعوا وقع خطوات الزّمن وهي تدوس على تعليمهم وقواعدهم اللغويّة، ولا يريدون أن يحسّوا بأنّ اللغة العربيّة أصبحت



بين أيديهم ثقيلة الدّم، معقدّة النغم، بحيث لا يستطيع الجيل الجديد المتحرّر، المنطلق في أنغام الفرنسيّة والأنجليزيّة، أن يستسيغها.... ».

لا طه حسين ولا شوقي، فيما أعلم، أنفقا العمر في تعلّم القواعد العربيّة.. فبم حظي الأوّل بالعمادة والثاني بالإمارة؟ أظنّ أنّ إحسان عبد القدّوس يعرف الجواب، إنّما نالا ما نالا من الرّتب السامية والألقاب المستحقة بالممارسة التي قرّرت مبدأها في أوّل حديثي هذا، الممارسة اليومية بالمطالعة وحفظ النماذج الرّفيعة من روائع النثر والشعر وبإنتاجها الثريّ البديع ممّا يعرفه القاصي والدّاني والقريب والغريب ويعترف به كلّ معاصر سرا وعلانية.



هذه الممارسة التي أركّز عليها في وسائل تعلّم اللغة وتعليمها في مؤسّساتنا.. وأنطلق من مواهب الطفل واستعداده في سنّ مبكّرة لاكتساب اللغة.. لا شكّ في أنّ التلميذ الجزائريّ، في المرحلة الأولى من التعليم الأساسيّ، يعرف الكثير ممّا يحتاج إليه في صلته بغيره، ومما اكتسبه ومارسه في أسرته وفي الشارع والمدرسة.. وقد يكون ما يعرف إحدى اللهجات الدارجة المنحدرة من العربيّة الفصحى، وهو الأغلب، أو من اللغة الأصليّة المشتركة في المغرب الإسلاميّ.. واللهجة العربيّة الدّارجة هي الوحيدة التي أعرفها مع الأسف.. فهي التي تكون مرتكزي ومصدر ملاحظاتي.. لهجة عربيّة خالية من الإعراب، كاللغات الغربيّة الحديثة، ومن التثنية إلا في الحالات النادرة، ومن بعض الضمائر، وبعض الصيغ الصرفيّة كصيغة المبنيّ لما لم يسم فاعله إلاّ عند البدو وفي بعض الحالات.. فقدت الكثير من مادّتها اللغويّة ومن سماتها واحتفظت كذلك بالكثير مماّ يساعد الولد على استيعاب الفصحى بسهولة وبمبادئ تربوية ستتضح شيئا فشيئا.



وممّا يجدر التذكير به أنّ الولد لا يكتسب اللغة في منزل أبويه أو في غيره بمجرّد المحاكاة إنما يعمل فكره فيما يسمع أو يستمع إليه ويقابل بين الألفاظ والصيغ الصرفيّة والتراكيب ويستنتج القواعد فيميّز بين الاسم والفعل والحرف، والمذكّر والمؤنث، والمفرد والجمع، والمخاطب والغائب، والمسند والمسند إليه، والفاعليّة والمفعوليّة مهما كان نوعها، وظرف المكان وظرف الزمان ويعرف النداء وحروفه، والاستثناء وبعض أدواته، وجمع القلّة وجمع الكثرة، والتصغير والعديد من دلالاته، والكثير مماّ يحضرني ذكره وما لا يحضرني.. نعم يعرف ذلك وإن لم يسمّه له أحد، لأنه « حيوان لغويّ » كما قيل، يكتشفه بالتدرجّ وبطريقة لا ندرك كنهها لأنها عفويّة لا شعوريّة، واللاشعور عالم لا نعرف له حدّا ولم نؤت من علمه إلاّ القليل.. ويفرط الولد في السؤال، في فترة معيّنة، حتى يرهق ذويه، وكثيرا ما يعجزون عن الإجابة يسأل لمجردّ المعرفة، وتتنوع أسئلته.. ثم يثنيه عن ذلك نشاطات أخرى واهتمامات تفرضها سنّه.. وما إن يبلغ فترة المراهقة حتى يعرف الكثير من لغته المحلية ويدرك من أسرارها ما لا يدرك المعلّم وكثير من الأساتذة من العربيّة الفصحى لا سيّما إذا كان منطلقهم في تعلّم العربيّة النحو ومؤلّفاته المفصّل منها والمختصر.. ولنأخذ لذلك مثلا «التقديم والتأخير» في السهل من مواضعه، فلو سألت معلما عن الفرق في الدلالة بين «محمّد في الدّار» و«في الدّار محمّد» لأجابك، من غير تردّد، بأنّ الفرق الوحيد بينهما التقديم والتأخير في المبتدإ والخبر.. وإن سألت عن ذلك تلميذ المرحلة العليا من التعليم الأساسيّ عجز عن الجواب أيضا لأنه لم يتعوّد التحليل اللغويّ ولا ينتبه إلى أن التعبير يفرضه ما ينتظر المخاطب من مخاطبه.. لكنّه في لهجته الدّارجة يميز بين التركيبين، فإن سألته بلهجته: «أين محمد؟»





« كان جوابه: » محمّد في الدار ".. وإن قلت له لهجته أيضا: « من في الدار ؟ » ردّ عليك بتقديم المكان: « في الدار محمّد ».. وخير دليل على ذلك أنّه يلجأ تارة إلى حذف ما تعرف فيقتصر في جوابه على ما تجهل أن سألته: « أين محمد ؟ » أدرك بسليقته أنّك تسأل عن المكان فيجيبك عنه قائلا: « في الدّار » وإن: كان سؤالك: « من في الدار ؟ » عرف بسليقته كذلك أنّك تعلم أنّ في الدار شخصا أو عدّة أشخاص، أو شيئا من هذا القبيل، فيحذف المعلوم ويخبر عن المجهول فيجيب: " محمّد «.. أمّا كتب النحو فتفصل في أغلب الأحيان بين التركيب وبين الدّلالة فينتج عن هذه الطريقة في عرض القواعد الفصل بين النحو واللغة وتضلّ أسرار اللغة عن متعلّمها.. فلا يبقى له إلاّ الحفظ والذاكرة بغير إدراك كبير للفروق في المعاني.

يكاد الولد يعرف معظم أبواب النحو.. والمهتمّون بلغة الطفل يدركون ذلك بل تدهشهم تارة بعض ملاحظاته.. وقد ينبّهك بأخطائه إلى ميادين لم تخطر لك ببال قال أحد التلاميذ في حصّة تفتيش: « رأيت الأسود مجتمعين » فقلت: « أللأسود عقول ؟ أيتكلّمون كما يتكلّم الناس ؟ » فأجابني بكلّ بساطة: « كانوا يتكلمون » فعزّ عليّ أن أقضي على جزء مقدّس من حياته البريئة البديعة و « أزعم » أنّ ما كان يسمع أو يحفظ من خرافات على ألسنة الحيوانات محض خرافة فاضطررت إلى تصديقه فقلت له: « نعم » !كانوا يتكلّمون لكنّهم انقطعوا عن الكلام منذ زمن بعيد، ولذلك يقال اليوم: « رأيت الأسود مجتمعة ».. وعدت إلى مكاني مردّدا في نفسي المثل العربيّ: « قد يُؤتى الرّجل من مأمنه ».

لا يجهل الولد في التعليم الأساسيّ، وفي الغالب من الأحوال، إلاّ ما تتميّز به الفصحى عن لهجته من مادّة لغويّة وصيغ صرفيّة ومن إعراب

(الرفع والنصب والجرّ والجزم) وبما أنّه تعلّم لسانه بالممارسة واكتشف معاييره بنفسه وبطريقة نجهلها لأنّها لا شعوريّة، كما تبيّن لنا، وجب أن نحاذي، ما أمكن، هذا المنهج في تعليمه الفصحى.. وبذلك نتجنّب الأسباب التي قيل إنّها جعلت العربيّة شاقّة بعيدة المنال محنّطة لم تتغيّر منذ اثني عشر قرنا.. بل قيل إنّ الخليل وسيبويه وأبا علي الفارسيّ وابن جنّيّ لو بعثوا وعرفوا وضعنا على حقيقته لعجبوا من إصرارنا على ترديد أقوالهم وتبنّينا آراءهم وقد وضعت لعصر غير عصرنا.



ينطلق المعلّم من الرّصيد اللغويّ للتلميذ، الرصيد المعدّل، المشترك بين الفصحى والعاميّة، المنتقى من محيطه، المناسب لعصره ولمستواه الذهنيّ ولميوله الطبيعيّة، مع إثرائه بما يفتقر إليه من ألفاظ الحضارة.. ولا يوفّر ذلك إلا الكتاب المدرسيّ المقرّر لكلّ سنة، المرفق بإرشادات تربويّة تساعد المعلّم على القيام بمهمته.. ولا ينبغي لأحد من المشرفين على التعليم التفكير في أنّ للنحو أهمّيّته كبرى في اكتساب اللّغة، فقد تقرّر أنها ممارسة يوميّة تخولّ الولد التعامل مع اللسان واكتشاف قواعده بنفسه كما اكتشف قواعد لهجته دون أن يذكر له أحد مصطلحا من مصطلحاتها أو يعرّفه بابا من أبوابها جلّ أو حقر.. لكن النحو المبسّط المقتصر فيه على الأهم يثبت القاعدة التي يكتشفها التلميذ.. وعلماء التربيّة مجمعون على أن القاعدة لا تسجّل إلاّ بعد ما يتمرّس بها المتعلّم، بعد أن يتعوّد في حواره مع معلّميه كلّهم ومع أترابه مواضع الرفع والنصب والجرّ والجزم والصحيح والمعتلّ والمقصور والممدود وغيرها ممّا يجهل إلاّ برياضة اللسان عليه مدّة كافية وتعطى الأولويّة في ذلك للمشافهة لأن الإفراط في كتابة ما يكتسب شفاها مضيعة للوقت.



معظم التعريفات النحويّة مختلف فيها أو ناقصة أو غير صحيحة أو لا يفهمها الولد لأنّها فوق مستواه، فلا داعي لإضاعة الوقت في تكليف الولد حفظها واستظهارها.. يكفيه أن يقول مثلا: «كتب التلميذ الدّرس»، و«محمد غائب»، و«اشتريت ثلاثة كتب واحد عشر دفترا» وأن يعرف متى يرفع المرفوع وكيف يرفعه ومتى ينصب المنصوب وكيف ينصبه، وغير ذلك ممّا يفرضه النطق الفصيح.. ولا يوجد في سنّ الدّراسة من يجهل نوع الكلمات في مثل هذه الجمل لأنه مارسها في لهجته بضع سنين بدون إعراب وبشيء من التحريف.. لكنه يعرف مفاهيمها دون مصطلحاتها.. يعرف في المثال الأوّل أنّ «كتب حدث وقع في الماضي وأن التلميذ هو الكاتب وأنّ الدّرس هو المكتوب، مع أنه لم يسمع مثل هذا التركيب إلاّ في حجرة الدّرس لأنّ اللهجات العاميّة أهملته منذ ألف سنة فلا يوجد في كلامنا الدارج جملة فعليّة فاعلها ومفعولها اسمان ظاهران لا يقول أحد: » ضرب صالح عمار "، إنّما يقدم الفاعل (صالح ضرب عمار).. لكنّه يقول: " ضربه صالح « لأنّ المفعول به ضمير.

وجدنا فراغا كبيرا في مجال التربية والتعليم، بعد الاستقلال، و«الطبيعة تكره الفراغ» كما يقول العلماء.. فاضطررنا إلى العمل بالوسائل الموجودة وبالاستعارة من الخارج.. ولم تكن الإطارات مستعدّة استعدادا حقيقيّا لأداء مهمّتها لا في المضمون ولا في الطريقة.. وألجأتنا الضرورة إلى ما كان يدعى بنظام الدّوامين.. وممّا زاد الطين بلة كثرة التلاميذ في الصّف الواحد.. وبما أنّ العربيّة كانت في عهد الاحتلال غريبة في عقر دارها، ودور المعلّمين لم تنشأ إلا في أواخر الستينيّات بوسائل جدّ محدودة.. وإطارات تنقصها الكفاءة العلميّة التربويّة نتج عن ذلك نقص ملحوظ في

المستوى، وعلى جميع الأصعدة.

وإذا كان المعلّم الرّكن الأساس في كلّ مؤسّسة تربويّة فإن البرامج المقرّرة وملاءمتها لمستوى المتلقي ومتطلّبات محيطه وواقع حياته وعصره تقتضي الكفاءة التربويّة، والضلاعة بعلم نفس المتلقّي في مختلف أطوار سنّه، ومسايرة العصر، وحسن اختيار المضمون، والمهارة في تصنيفه وفي طريقة توزيعه، وتوخّي ما يجعل المادّة سهلة مستساغة، محبّبة إلى التلميذ، وثيقة الصلة بمحيطه وميوله واهتمامه الغالب عليه.

انطلقنا في حديثنا هذا من مبدإ أنّ «اللغة ممارسة» وأنّ الطفل «حيوان لغويّ» يستنبط القواعد بمجردّ سماعه لغة والديه.. يستنبطها، كما قلنا، بعمليّة فكريّة لا نعرف كنهها لأنها لا شعوريّة والعلماء المعاصرون مجمعون على ذلك، والتاريخ يؤكده وصبياننا يعطوننا الدّليل عليه صباح مساء: لا يعرفون أبواب النحو والصّرف ولكنّهم يحسنون الخطاب باللغة التي نشأوا عليها.. بل هم أقدر من الرّاشد على استيعاب اللغات الأجنبيّة مهما كانت طبيعتها.. وقد بسطت القول في ذلك فلا داعي إلى الرّجوع إليه.. إنمّا أذكّر به لأنقض معتقدا رسخ في الأذهان منذ ثلاثة عشر قرنا وصعب التخلّص منه، معتقدا مفاده أنّ النحو، بأوسع معانيه، باب العربيّة، لا سبيل إلى إتقانها إلاّ به، وقد بيّنت أنّ فطاحل الأدب العربيّ فنّدوا هذا الاعتقاد بأقوالهم وبما تركوا من نماذج لا تضاهى في بيانها الساحر العجيب.

لا أريد التقليل من أهمية النحو ولا حذفه من التعليم إنّما أرمي إلى إحلاله المحلّ اللائق به وتصحيح مفهومه وتقويم مسالكه وإزالة متاهاته التي أضلّت الكثير من المؤلّفين والمدّرسين منذ زمن بعيد ومازال يعاني منها المتعلّم صبيا ومراهقا وشابا.. ليس النحو علما يعرف به أواخر الكلم



إعرابا وبناءً، كما حده القدماء ولا ينبغي أن توزّع أبوابه على الرفع والنصب والجرّ والجزم كما نجد في معظم المؤلفات قديمها وحديثها، مماّ حرمنا من معرفة أسرار العربيّة وأساليبها المتنوّعة ومقدرتها على التعبير وفنونه.. إنما هو قانون تأليف الكلام.. وموضوعه دراسة الكلمة في الجملة و الجملة في النصّ.. أمّا الإعراب فأصل معناه الإبانة والإفصاح ومنه «أعرب عمّا في ضميره».. ثمّ استعير لتغيّر آخر الكلمة بتغيّر العوامل المؤثرة فيها ؛ ولتوضيح العلاقات بين عناصر الجملة وبعض أجزاء النص.

يعرف التلميذ الكثير من مكوّنات الجملة إذا أخذت من بيئته وكانت ممّا يستعمله قبل اختلافه إلى المدرسة وأثناءه.. إنما يعرفه محرّفا إلى حدّ ما يقول: «جا حسن» و «فتحت الباب» و «علي حاضر» .. ويدرك العلاقات التي تربط بين عناصر هذه الجمل الثلاث وإن كان يجهل مصطلحاتها النحويّة كما ذكرت في أوّل حديثي.. ومهمّة المعلّم استغلال هذا الرصيد والتزام الفصحى وحمل التلميذ على التزامها طيلة الدّرس وبذلك يربط ربطا وثيقا بين لهجته وبين اللغة الفصيحة ويمكّن معلّمه من إصلاح أخطائه ومن التمرّس بالعربية كما تمرس بلهجته.. وهنالك، هنالك فقط يتحقّق المبدأ الأول الذي قرّره العلم وذكّرت به في مستهلّ ردّي على صديقي الذي زعم أنّ العربيّة من أصعب اللغات.. وكلّما كانت ممارسة الفصحى في سنّ مبكّرة كانت أجدى وأرسخ في الذهن وتقلّصت الفروق بين اللهجات المحليّة الجزائريّة أيّا كان أصلها.. وممّا لا ريب فيه أن مقدرة الصبيّ على استيعاب اللغات مذهلة، لا فرق في ذلك بين صبيّ وآخر إلاّ بالممارسة القويّة مرتكزاتها.. والمرتكز الأساس أن يكون المعلّم يقظ الضمير، ضليعا بمادّته، قليل الكبوات، صالحا لأن يكون قدوة لتلامذته في الاستعمال اللغويّ الصحيح وفي





تجنيبهم ما عدا ذلك ممّا لا دخل له في تقويم اللسان.. ولا يقوّم اللسان إلاّ الصحيح من الصيغ والتراكيب.. فعلى المعلّم أن يجتنب الخطاب بالعامّيّة لأنها تنافي مبدأ ممارسة الفصحى، واللغة ممارسة كما ذكرت.. وعليه أن يجتنب اللحن في الصيغ والتراكيب، لاسيّما في السنوات الدّنيا من الدّراسة، لأن الولد غض ّقويّ الذاكرة، وما طبع في ذهنه صعب التخلّص منه وقد لاحظ غيري ولاحظت أن التلميذ الذي عود الفصيح ينبه أستاذه إلى لحنه.



قد يقول قائل إنّ هذه قضايا معروفة فلا داعي إلى ذكرها بله التذكير بها.. وأقول إن هذه «القضايا المعروفة» أصل الدّاء في معظم مؤسّساتنا التعليميّة.. لأن المعلّمين والأساتذة في أغلب الأحوال لا يستعملون الفصحى إلاّ في حصّة التفتيش.. وبذلك يكون تعليمهم نظريّا تكثر فيه القواعد النحويّة التي يتبرّم بها التلميذ لأنه لا يفهمها ولأنّه مطالب بحفظها حفظا آليّا، وفقا للقاعدة المشهورة: «أرجعوا إلينا ما أعطيناكم».. وأصعب الأشياء وأمرها أن يحفظ الولد ما لم يفهم وأن يرجع ما لم يعط.. وإن استعملوها أساؤوا استعمالها فالّدرس، في التعليمات الرّسميّة، مشترك بين المعلّم أو الأستاذ وتلامذته، مبنيّ على الحوار القائم على السؤال والجواب.. وقليلا ما سمعت في حصّة من الحصص التي حضرتها سؤالا عربيّا صحيحا، بل نادرا ما وجدت مت ينتبه إلى أنه غير صحيح، غير منطقيّ.. يقابل المعلّم أو الأستاذ فعلا باسم: «أغاب عليّ أم صالح ؟» (غاب، صالح) أو مكانا باسم عين: «أفي البستان خالد أم محمّد ؟» (في البستان، محمّد) أو فعلا بزمان: «أذهب صباحا أم مساءً ؟» ذهب، مساءً).. والعربيّة منطقيّة تقابل الفعل بالفعل (أغاب خالد أم حضر ؟)، والاسم بالاسم (أعليّ في البستان أم أخوه ؟)، والصفة (أطويل



سفرنا أم قصير ؟)، والمكان بالمكان (أفي المدرسة ... وقع الحادث أم خارجها ؟)، والزمان بالزمان (أليلا رأيته أم نهارا ؟) ... هذا هو المنطق وهذه هي العربية.. والجهل بهما ليس عذرا ولا يسمح بالحكم على العربية بل وجدت في درجة الماجستير من لا يفهم دلالة « هل جاء خالد أو عمر ؟ » وأرى ذلك راجعا إلى الفصل بين النحو والدلالات التركيبيّة وحصر الكلمة في المعرب والمبنيّ وعلاماتهما، وقصر الجملة على ما له محلّ من الإعراب وما ليس له محلّ.. أمّا الاستعمال اللغويّ النابض بالحياة، المرهف للحسّ، الموسّع للمدارك، فنادر الوجود في مؤسّسات التعليم وبرامجه، مفتقر إلى دعائم تثبّته وتنمّيه.



وأقوى دعائم اكتساب اللغة المعلّم المميّز للصحيح من الفاسد، المثابر على تحسين مستواه العلميّ والتربويّ، المدّرب لتلامذته على الاستعمال الفصيح تدريبا يوميّا لا هوادة فيه، المقتصر على ما يقوّم اللسان، لا يعدوه إلى ما لا فائدة فيه وما لا يستوعبه الولد أو يرهق ذهنه، المتدّرج من الأبسط إلى البسيط، الذي لا يعرب لمجرّد الإعراب، ولا يعطي القاعدة إلاّ مبسّطة إلى أقصى حدود التبسيط ولتثبيتها بعد ما يكون الأولاد فهموها واستنتجوها بالتمرس بها كما يستنتجون قواعد لهجاتهم بالممارسة.. أما الصرف العربيّ فمضبوط في معظم أبوابه بقواعد أساسيّة قليلة منها العامّ ومنها الخاصّ ومن عرفها على حقيقتها سهل عليه أمر هذا الفنّ إلاّ ما كان لصيقا باللغة كمصدر الثلاثيّ وجموع التكسير ومضارع فعل.. وأمّا التصريف فقياسيّ لا تجد فيه فعلا واحدا يعجزك تصريفه لأنه لا شذوذ فيه.. ومع ذلك تبقى الممارسة خير وسيلة لتثبيته في الذاكرة وجعله آليّا كحركات الجسم العاديّة.. يخصّص المعلّم، كما ذكرنا، في كل حصّة درس خمس دقائق لتصريف الأفعال المدروس



نوعها تصريفا شفويّا.. ويكون ذلك حسب المستوى و بالتدرّج.. فلا تمضي ثلاث سنوات أو أربع حتّى يتحرّر التلميذ من ربقة التصريف، لأنّه يكون قد صرّف النوع الواحد أكثر من أربعمائة مرّة على أقلّ تقدير، صرّفه بالفعل أو بسماع أحد رفاقه.. لو عمل بهذا المبدإ في مؤسّسات التعليم العربيّة شرقا وغربا لما كنت تسمع كلّ يوم بإحدى محطّات التلفزة، المرموقة في العالم: «لَقيُوا مصرعهم على أيدي المحتلّين».

ومن دعائم ممارسة اللغة ما يحفظ من نثر وشعر ويستظهر في كلّ أسبوع ممّا هو في مستوى سنّ الأولاد ومما يلائم ميولهم عبر مسيرتهم الدراسية.. هذه المادة كثيرا ما يغفل المربون عن أهمّيّتها رغم ما لها من أهمّيّة ومن أثر عميق لا سيّما في المرحلتين الأساسيّة والثانويّة، لانّ الطالب في الجامعة إن تعّود حفظ النماذج الأدبيّة الرفيعة وحببت إليه المطالعة رهف حسّه وشغف بالكتاب فجعله «جليسه» إلى آخر عمره.. ومن الأقوال المأثورة في علم التربية: «لم يتعلّم القراءة من انقطع عنها» ولا يقصدون القراءة بمعناها الضيّق إنما يعنون بها المثابرة على المطالعة التي تنمّي المواهب وتوسّع الأفق في شتّى المجالات وبمختلف اللغات وتجمع بين الأصالة والحداثة وتنفذ إلى الحضارات البشريّة من أوسع أبوابها.



قلت لصاحبي: «ألم يك جيلنا في الأقسام الفرنسيّة مطالبا بحفظ نص نثريّ أو شعريّ يشرح له كلّ أسبوع؟ ألم تستظهر أنت الكثير من روائع المسرح الفرنسيّ ممّا أنتج راسين (RACINE) وكورناي (Corneille) ومولبير (Moliére) ومن الأدب الرومانسيّ والبرناسيّ والرّمزيّ والسرياليّ؟ ألم تطالع الأدب الفرنسيّ في لغته وجزءا صالحا من الأدب العالميّ المنقول إلى الفرنسيّة»؟ قال: «بلى !» قلت: «فما



كان أثر ذلك في معرفتك للفرنسيّة وفي ثقافتك وميلك إلى استعمال هذه اللغة الأجنبيّة بدلا من استعمال اللهجة التي نشأت عليها في منزلك والفصحى التي لقنتها في مختلف المدارس وفي الجامعة»؟ قال: «الأثر البالغ».. قلت: «وما سبب ذلك»؟ قال: الجوّ العامّ الذي عرفته، وافتقارنا آنذاك إلى كتب المطالعة، وتركيز العلمين على شرح المتون، و نقص كفاءتهم في الميدان التربويّ، وعدم ممارسة العربيّة ممارسة حقيقيّة.. قلت: «مازال الأمر على ما كان عليه أو يكاد يكون كذلك للأسباب التي ذكرتها لك».

النصوص التي تشرح للتلميذ وتكون في مستواه وتلائم ميوله وتلبّي رغباته ويطالب باستظهارها تقوّي ملكاته اللغويّة وتوفّر له مهارات في التعبير لا يوفّرها مجردّ الدرس وترسّخ في ذهنه الكثير ممّا اكتسب بل تغنيه عن موادّ قلّما يستوعبها الجامعيّون.. ولا أدلّ على ذلك من صبيّين جزائريّين أوّلهما في العاشرة من عمره وثانيهما في الثانية عشرة، كان والدهما يدّربهما على قراءة نصوص المحفوظات وفقا لبحورها الخليليّة، فلم يتجاوزا المرحلة الابتدائية حتى استوعبا هذه البحور.. وكنت أذكر لهما بيتا من شعر البحتريّ أو المتنّبي أو شوقي أو غيرهم فيعرفون وزنه قبل أن أصل إلى آخر المصراع الأوّل.. فمن كان في ريب ممّا أقول فليسأل أباهما الشاعر عبد القادر بن محمّد أخي الرّوحيّ وزميلي في الدراسة.. بل عرفت من المشغوفين بالشعر العربيّ من لم يدرس قط فنّ العروض ويستحسن أو يستقبح مع ذلك ماهو بالفعل حسن أو قبيح في الزحافات والعلل.. أيقال بعد ذلك إنّ التطبّع يغلب الطبع وإنّ حفظ قواعد اللغة أنجع من التمرّس بها؟

العالم العربيّ كلّه مسؤول عن حماية أهله وتوفير الغذاء الفكريّ والرّوحيّ



لهم.. واللسان لا ينتعش إلا بما ينتج أصحابه وبما ينقلون إليه من روائع الأدب العالميّ ينقلونه بكفاءة.. والكفاءة قوامها الثقافة الواسعة العميقة وإجادة اللغتين المنقول إليها والمنقول منها والإدراك الصحيح للمضمون، وعمادها الموهبة المبدعة المحافظة على روح النصّ المترجم وجماله، وليس ذلك بالأمر الهيّن.. وبذلك، بذلك فقط يجمع التلميذ والطالب بين أدبه الأصيل وبين الآداب العالميّة ويحيا حياته الجدير بها ويتمكّن من ممارسة العربيّة الثريّة بالعديد من الروافد.. فمادّة المطالعة جدّ ضحلة في مؤسّساتنا لا سيّما في التعليم الأساسيّ.. وما أحوجها إلى نصوص قصصيّة مشوّقة بسيطة مشكولة شكلا كاملا مزيّنة بالصّور، يلتهمها الولد التهاما، مستقاة من الأدب الشعبيّ المطوّع إلى العربيّة والإنتاج الأصيل المعاصر أو المنقول من الآداب الأجنبيّة بأسلوب جذاب فصيح !ما أحوجها كذلك إلى القصص المرئيّة على الشاشة، المسموعة، أو الألعاب المسجلّة بالوسائل السّمعيّة البصريّة، التي يتعامل معها الولد بكلّ مشاعره ويحاوره بعض أشخاصها بلغة سهلة خالية من اللحن !أمّا المسلسلات المخصّصة لأبواب النحو والصرف والتي نشاهدها على شاشاتنا فأراها إلى العقم أقرب منها إلى الإنجاب لأنها لا تعدو أن تكون دروسا نحويّة، وما أبعد اللغة الحقيقيّة المؤسّسة على الممارسة بمختلف أنواعها عن النحو الآلي الجافّ القاتل للمواهب .!

وصفوة القول في نظرنا أنّ العربيّة، كاللغات التي نعرفها، سهلة إذا ما كانت ممارسة يوميّة يدعمها السهل من المسالك والقويم من طرائق التعليم، صعبة إذا ما ابتعد فيها عن الجادّة.. ولو اقتصر المتعلّم في اكتساب الإنجليزيّة أو الفرنسيّة أو الألمانيّة أو غيرها من اللغات الغربيّة أو من لغات العالم مهما كانت طبيعتها ومهما سهلت، لو اقتصر على ما



يأخذ من دروس رسميّة في المؤسسة التي يختلف إليها، بوسائل لا تمتّ إلى النجاعة ولا إلى واقعه بصلة لما أحرز منها شيئا يذكر.. ومن الطبيعيّ أن يجدها صعبة المنال، ويتبرّم بها، ويكون حكمه عليها غير صحيح ولو كان مجرّدا من كلّ خلفيّة.

نبذة وجيزة عن حياته وآثار
الدكتور أبو العيد دودو



فكرت طويلا فيما يمكنني أن أعرض من حياة المرحوم أبي العيد دودو ومن آثاره فوجدتُني أعجز ما يكون عن ذلك لأنّني لم أحظ بلقياه لا صبيّا ولا شابّا ولا في مقتبل كهولته.. إنّما عرفته، في أوائل الثمانينيّات، أستاذا ومديرا بمعهد اللغة العربيّة وآدابها، بجامعة الجزائر المركزيّة، وعضوا نشيطا من أعضاء اللجان المتنوّعة المهامّ بوزارة التعليم العالي والبحث العلميّ وفي اتحاد الكتاب الجزائريّين ومحرّرا ممتازا شارك بعدّة مقالات في بعض الدوريّات الوطنيّة كمجلّة الثقافة، ومجلّة المجاهد الثقافيّة، ومجلّة المجلس الأعلى للغة العربيّة.. خبرته عشرين سنة أو يزيد فعرفت مكانته وقدرتُهُ حق قدره وتوطّدت بيننا عرى صداقة متينة كما عرفت منه نماذج أصالة المعدن ونبل الأخلاق وتواضع العلماء وتقديس الواجب ما بهرني وزاد من إعجابي به.

بيد أنّي كنت أسأله عن بعض مراحل حياته وعن شخصيّات لفتت نظري في بعض أقاصيصه مثل « عرس الذئب »، و « يدي على صدري »، و « أبو شفة »، فعلمت منه ـ وكنت أحسست بذلك ـ أنّ حوادث هذه الأقاصيص الثلاث جرت له هو.. من هذه النماذج وغيرها، وممّا طالعت من نبذ جدّ موجزة عن حياته في الصفحات الأخيرة من بعض مؤلّفاته وممّا أخبرني به أخي سعد الدين والدكتور عبد المجيد حنّون، وكان وثيق الصلة به، تمكنّت من أن أتعرّف معالم حياته، الكبرى.



ولد أبو العيد دودو يوم الأربعاء في 17 رمضان 1352هـ / 31 يناير 1934 ولعلّ ولادته بهذا التاريخ من الشهر المعظّم وبقرب من حلول عيد الفطر هي التي جعلت أهله يختارون له على سبيل التفاؤل اسم (بلعيد).. وهي عادة منتشرة عندنا ومن ذلك العيد وبلعيد ومحمّد العيد ورمضان وعاشور والربيع والخميسي والجمْعي وغيرها من الأسماء.. هذا إن لم يكن أُعطي اسم أحد أقاربه المتَوفَّينَ.. ولد بدوار (تامنجر) من بلديّة (العنصر) دائرة (الميليّة) ولاية (جيجل).. توفّي والده وتركه صغيرا في حضن أمّه.. ولئن صدق حدسي فإيّاه يعني متحدّثا عن «أبي شفة» قال هي هذه الأقصوصة: «فابتسم، ولم أدر ما كان يدور خلف ابتسامته، ولكنّه راح بعد ذلك يصف والدي بأنّه كان رجلا، فمات وهو يحاول أن يجعل من الغابة أرضا، يزرعها قمحا وشعيرا، ليضمن منها حياة أطفاله.. سقط ميتا والفأس في يده، وذلك بعد أن حقّق شيئا ممّا أراد» (الطريق الفضّي: ص 54).. وأدخل الكتّاب فحفظ ما تيسّر من القرآن واختلف إلى بعض المدارس الابتدائيّة الحرّة فتعلّم قليلا من مبادئ العربيّة.. لكن الأقدار شاءت أن يرعى قطيعا من الماعز جدّ قليل يقول في مجموعة الأقاصيص السابقة (ص 37 – 8) وقد أكل له الذئب جديا: «ووجدت لساني يسرع إلى لغة الرعاة المفضّلة فأخذت أسبّ وألعن كلّ شيء، مع أنّ هذه اللغة كانت غريبة عن لساني، فلم أستعملها قبل ذلك اليوم كنت في السابع أتذكّر كلمة أمّي حين تغضبني بعض مِعازي بتعنّتها وعصيانها.. فقد قالت لي أكثر من مرّة (إيّاك أن تكفر كما يكفر.. الرعاة الآخرون ! فلا يليق بمن مرّ كلام الله في فمه أن يكفر.. تذكّر دائما أنّك قرأت الفرآن (! وفي يومي ذاك لم أتذكّر كلّ هذا أنساني الذئب كلمتها فشتمت الدنيا، لعنتها وكفرت».



أخذه عمّه بعد ذلك إلى قسنطينة وآواه وكان تاجرا بسيطا لم يستطع أن يوفّر له رغد العيش والحياة الميسّرة مع حبّه له وعطفه عليه.. وأحيل القارئ الكريم على قصة «يدي على صدري» من مجموعة «دار الثلاثة» (ص 49 / 74)، فإنّ اليد يده والصدر صدره.. وفي سنة 1946 أدخل معهد الإمام ابن باديس حيث قضى أربع سنوات درس فيها مبادئ الصرف والنحو واللّغة، وشيئا من الفقه والتاريخ الإسلاميّ والجغرافيا.. وكان المرحوم الشيخ أحمد حمّاني خير سند له بالمعهد.. وقد أشار إليه دون أن يسميّه في «يدي على صدري».. ثم التحق بجامع الزيتونة، شأنه في ذلك شأن طلبة العلم من الجزائريّين.. وبعد برهة أرسل في بعثة من بعثات جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين إلى بغداد فانخرط في سلك طلبة دار المعلّمين العليا التي كونّت، فيما بعد، مع غيرها من الكليّات والمدارس العليا، جامعة بغداد الحاليّة ؛ فإنّ هذه الجامعة لم تؤسّس إلا سنة 1956.. ورحُبت به الدّاران: دار المعلّمين ودار المأمون وبيت الحكمة، وغزرت ينابيع المعرفة فنهل منها وعلّ، ووجد أساتذة أكفاء يحسنون عدّة لغات ويستمدّون من ثقافات شتّى، أساتذة باحثين رسّخوا معارفه وأثروها وفتحوا له آفاقا جديدة واسعة.. وببغداد تعلّم شيئا من الإنجليزيّة ومن الفارسيّة، وبها زاد شغفه بالمطالعة وصلته بالتراث وكتاباته تدلّ على ذلك وعلى أنّه كان طُلَعَةً سريع الإدراك مرهف الحسّ.

تخرّج من دار المعلّمين العليا سنة 1956 فيمّم فيينا بالنّمسا وبها تعلّم اللغة الألمانيّة إلى أن أجادها وشيئا من اللاتينيّة (تراجع بعض التفاصيل في أقصوصة «الحبيبة المنسيّة» من «مجموعة بحيرة الزيتون»، ص 127).. درس بجامعتها خمس سنوات وتعاطى البحث العلميّ إلى أن تخرّج منها سنة 1961 دكتور دولة برسالة حقّق فيها كتاب «التاريخ





المنصوريّ » لابن نظيف الحمويّ ونقله إلى الألمانيّة، وكان ذلك سنة 1961 (وقد نشر الرسالةَ سنة 1982 مجمع اللغة العربيّة بدمشق، وكان نشرها مستشرق بموسكو).. والمنصوريّ نسبة إلى الملك المنصور أبي العلاء ناصر الدين محمّد بن عمر بن شاهنشاه (567 – 617) صاحب حماة.. وهو ابن الملك المظفّر تقيّ الدّين عمر وابن أخي صلاح الدّين الأيّوبيّ وجدّ المؤرخ الشهير أبي الفداء.. وكان المنصور أديبا مؤرّخا محبّا للأدب والعلماء محسنا لهم.. ثمّ إنّه أبلى بلاء حسنا في الحروب الصليبيّة.. ولعلّ ذلك ما جعل الدكتور دودو يحقّق « التاريخ المنصوريّ » ويترجمه والظاهر أنّه أوّل من فعل ذلك وأوّل من عرّف، من المعاصرين، بأبي الفضائل محمّد بن نظيف الحمويّ.

وبعد تخرّجه من جامعة فيينا، حصل بها على منصب أستاذ للعربيّة فدرّس بها، ثمّ انتقل إلى جامعة كيل (Keil) بالجمهوريّة الفدراليّة الألمانية فحاضر فيها بقسم اللغات الشرقيّة.. وبالنّمسا وبألمانيا جدّ في دراسة اللغة الألمانيّة حتى اكتسبها بل حتّى أجادها.. واحتكّ بالمستشرقين الجرمانيّين، وما أكثرهم وأقدرهم على البحث العلميّ الثريّ العميق الدّقيق !وعنهم أخذ الطرائق العلمية المنطقيّة في النشر والتحقيق والدراسة والنقد والترجمة والميل إلى التأليف، والمثابرة على العمل، وتوسيع الأفق بمعرفة اللغات.. وبعد ثماني سنوات قضاها بأوروبا وبعد تزوّده بثقافة عالية عاد إلى وطنه.

التحق سنة 1969 بجامعة الجزائر المركزية، بمعهد اللغة العربيّة وآدابها فعيِّن أستاذا للأدب المقارن والآداب الأجنبيّة ونظريّة الأدب فقام بواجبه خير قيام رغم داء عضال لازمه إلى أن وافته المنيّة في مستهلّ سنة 2004.

والحقيقة التي لا مراء فيها أنّه أوّل أستاذ جامعيّ للأدب المقارن يعتمد

العربيّة أساسا.. درسّه وأشرف فيه على عدّة رسائل حرّرت باللغة الوطنيّة على مستويَيِ الماجستير ودكتوراه الدّولة.. نعم !أُسّس بجامعة الجزائر منصب (1963) وجمعيّة ومجلّة (1964) للأدب المقارن، إلاّ أنّه لم يكن من بين المؤسسّين لذلك أستاذ جامعيّ واحد ولا كان فيهم من يحسن العربيّة إنّما كانوا بحكم دراستهم وشهاداتهم إلى الفرنسيّة أقرب منهم إلى العربيّة[32].. *




32 . *في القرنين التاسع عشر والعشرين كان محمّد بن أبي شنب (1869 – 1929) يجيد العربيّة والفرنسيّة ويعرف العبريّة والإسبانيّة والألمانيّة والفـارسيّة والتركيّة وشيئا من اللاتينية . وقرن التعلم بالتعليم منذ كان مدرّسا للغة الفرنسيّة بقرية تامجارت ، بالقرب من المدية ، فبمدرسة الفاتح بقصبة العاصمة ، ثم انتقل إلى مدرسة قسنطينة الرسميّة (1898) ، فمدرسة الجزائر (1901) . ولما أنشئت جامعة **الجزائر** سنة 1908 ندب إليها مساعدا لتعليم اللغة العربيّة دون أن يتخلى عن منصبه بمدرسة الجزائر . وفي سنة 1922 ناقش رسالة بالجامعة نال بها درجة دكتوراه الدّولة في الأدب العربيّ . وذلك ما سمح له بأن يخلف رسميّا على كرسيّ اللغة والأدب العربيّ المستشرق **Ren2 Basset** المتوفى سنة 1924 . لم يدّرس كأستاذ جامعيّ يأتم معنى الكلمة إلا خمس سنوات . وكان الوحيد القادر على الإنتاج في ميدان الأدب المقارن وهو الذي كان يعرف ثماني لغات ، والذي وهبه الله حبّ المعرفة والفكر الوقاد وسعة الأفق والطموح الوثّاب والمدرة النادرة على العمل . لم ين عن البحث مدّة ثلاثين سنة فكان غزير الإنتاج في شتى الميادين : ألف في اللغة والعروض والفقه والحديث والتاريخ وحقق ونشر ونقل إلى الفرنسيّة العديد من المخطوطات التراثيّة لا سيّما ما تعلق منها بالأندلس والمغرب العربيّ وسعى لحفظ هذا التراث من الضياع ، مخطوطا وشفويّا ونظم الشعر ونشر الدراسات العديدة ومنها ماهو في صميم الأدب المقارن كالدّراسة التي نشرها بالفرنسيّة في « المجلة الإفريقية ، 1919 ، 483 – 93 بعنوان » الأصول الإسلاميّة للكوميديا الإلهيّة « .

حررّ خمسا وسبعين دراسة (75) معظمها بالفرنسيّة في دوريّات فرنسيّة أو في كتب مستقلة ووضع معاجم مهمّة حفظ بها الأمثال العاميّة واللغة الدّارجة في عصره ، وشارك بأربع وستين مادة (64) في تحرير « دائرة المعارف الإسلامية » القديمة . وهو جهد عظيم يحقّ للجزائر أن تفخر به . لكنّ صاحبه حذا فيه حذو المستشرقين الرّامين قبل كلّ شيء إلى خدمة لغاتهم وثقافاتهم ومواطنيهم ومصالحهم . وهو ما عابه عليه الشيخ البشير الإبراهيميّ ، رحمه الله !في مقال خصّة به في جريدة البصائر ، مع إعجابه به . غير أنّ الظروف التي ألف فيها الدكتور محمّد بن أبي شنب وتحكمت في جهوده العلميّة لم تعرفها الجامعة الجزائريّة في عهد الاستقلال .



بقي أنّ نعدّ المرحوم أبا العيد دودو أوّل المؤسّسين، بجامعة الجزائر، للدّراسات المقارنة التي تعتمد العربيّة لغة دون أن نغضّ من شأن ما أنتج زملاؤه من دراسات قيّمة ترفد هذا الجانب من الأدب أو تصبّ في مجاله.

آثاره:

أمّا آثاره فأوسع من أن يحيط بها بحث مهما طال ومهما بذل صاحبه من جهد لأنّها ثمرة حياة كاملة مليئة بعمل دؤوب لا يعتري صاحبَه سأم أم كلل ولأنّ الحافز عليها الطموح العارم الجامح، والرّغبة الأكيدة في تحقيق الذّات بهدفها الأسمى، وخدمة البشريّة في أشرف معانيها، والجزائر التي كانت في مقدّمة اهتماماته وأعماله الأدبيّة والفكريّة والتي كان يكنّ لها من الحبّ والإخلاص ما لا يعلمه ولا يجزي به إلاّ الله.

سأحاول جهد ما استطعت أن أقدّم للقارئ الكريم، وبكلّ إيجاز، ما تيسّر لي من معرفة مؤلّفاته، آملا أن يعنى الباحثون الجزائريّون وغير الجزائريّين بدراستها دراسة معمّقة تليق بمكانته وتثري المكتبة العربيّة كما أثراها هو طيلة حياته بعمل دؤوب لا يعرف الرّاحة إلاّ لماما، على ما كان يقاسي من أوصاب مضنية مزمنة.. من هذه الآثار ما هو منشور متاح للقراءة، ومنها ما قلّ وجوده أو نفد، ومنها ما لم ينشر أصلا، فهو ينتظر الطبع، وليس ذلك بعزيز على بلاده التي وهبها حياته.

وقد رأيت أن أختار من أعماله نماذج دالّة في نظري، محاولا تلخيصها، ليتمكّن القارئ من معرفة محتواها وطريقة صاحبها في معالجة المواضيع على اختلاف أنواعها، ومن أخذ صورة مجملة عن اهتماماته

الأدبيّة والعلميّة.. ذلك أنّ عنوان الكتاب مجردّا غامض الدلالة وقد يوحي بشيء.

كان يؤلف لمواطنيه وللباحثين منهم وبخاصّة طلبته الذين بذل جهودا مضنية في تكوينهم وتوسيع مداركهم وفتح آفاق جديدة لهم وإنارة سبيلهم وتزويدهم بوسائل تعينهم على العمل.. وكلّ ما ترجم، بالفعل، من اللغات الغربيّة لا سيّما الألمانيّة منها، أو نوى ترجمته وأعدّ العدّة لها، يرمي إلى هذه الغاية.

من أهمّ هذه الكتب المترجمة «**العمل الفنّيّ اللغويّ . مدخل إلى علم الأدب**» (**619 صفحة**)، للناقد الألماني الشهير فولفغانغ كايزر: Kayser Wolfgang (1906 – 1960).. ألّف كايزر هذا الكتاب سنة 1948.. وقال الدكتور دودو في مقدّمة الترجمة «إنّه لعب دورا أساسيّا في الدّراسات النقديّة الألمانيّة المتّصلة بتحليل الشعر وتأويله» وذكر أنّه عانى في نقله إلى العربيّة عناء شديدا لوفرة المصطلحات الأجنبيّة وعدم مطابقة دلالاتها لنا يقابلها في الآثار العربيّة أو عدم وجود تصوّر الكثير منها في التراث (ومع ذلك ترجمه ترجمة جيّدة لكنّها لا تنقاد إلاّ لمن يعرف من طلبتنا بعض اللغات الغربيّة ودرس محتويات المادّة).



يتناول الناقد الألمانيّ الضليع باللغات الغربيّة الأساسيّة، معتمدا نماذج شعريّة ونثريّة كثيرة، في نصّها الأصليّ، يتناولُ بالدراسة والتحليل وبتصنيف دقيق، موضوعات متعددّة متكاملة.

يستهلّ كتابه بالحديث عن ضرورة فهم النصوص الشعريّة بشكل موضوعيّ بقراءة صحيحة وتفسير صحيح ويتطلّب ذلك موهبة خاصّة وتحمّسا للعمل والقدرة على معايشة التجربة الشعريّة الخاصّة بصاحب النصّ.. ويتطرق بعد ذلك إلى موضوع الدراسة الأدبية ومفهوم الأدب



وتاريخه وتحقيق النصوص والربط بينها وبين صاحبها ووسائل تحقيق ذلك، وإلى مفاهيم التحليل الأساسيّة في المضمون والحافز متحدّثا أثناء ذلك عن المثل والرّمز والخرافة، وإلى المفاهيم الأساسيّة للشعر من نظام في القصيدة بمقاطعها وأبياتها وقافيتها وموسيقاها وغير ذلك ممّا يدخل في باب العروض بالمعنى الذي تقتضيه طبيعة الألسنة الغربيّة، وإلى الصور البلاغيّة من تشبيه واستعارة وكناية ومن مجازات متنوّعة يتفق تصورّها أو يختلف عن تصوّرنا لها، وإلى الإيقاع بشتّى وجوهه في الشعر والنثر، وإلى الأسلوب وطرائق دراسته واستثمارها في ونثره ويختم المؤلف كتابه البديع بعرض ممتع ثريّ لكلّ ما يتّصل بالشعر والشعريّ والملحمة والرواية والقصّة والمسرحيّة وأنواعها وقواعدها ومقتضياتها.. وممّا يزيد في أهمّيّة هذا الكتاب ثبت مراجعه الذي يتجاوز الخمسين صفحة بالحرف الدقيق، والنماذج الشعريّة الوافرة التي اضطرّ الدكتور دودو إلى ترجمتها من لغات عديدة.. وذلك أصعب ما في هذا العمل المضني لأن النصّ المترجم، مهما كان، لا يمكن أن يؤدي ما يؤديه الأصل لاختلاف الألفاظ والدلالات والجرس والتأثير من لغة إلى أخرى.. وهذا واضح لا داعي إلى الإطالة فيه.

أراد الأستاذ ـ رحمه الله !ـ فيما أراد، بترجمة هذا الكتاب النفيس، تزويد طلاّبه وكل باحث بذخيرة علميّة تكون لهم مرجعا ثريّا بمضمونه ونماذجه وبأسماء لامعة من العلماء المتمرّسين بالأدب ودراسته والنظر إليه نظرة جديدة.. ما ذكرنا من المصطلحات في إيرادنا لمحتويات الكتاب يعرفه طلبة الجامعات ويدرسونه في البرامج المقرّرة لهم لكنّهم يتناولونه من منظور عربيّ محض يكاد لا يتغيّر مفهومه منذ عند بعيد.. وما قدّم إليهم بين دفّتي هذا الكتاب يفتح لهم آفاقا جديدة ويوسّع

مداركهم.

وممّا يجري مجرى هذا الكتاب، وإن لم يكن له نفس الأهميّة بالرغم من أهمّيّته الكبرى، تأليف آخر نشره بعنوان «دراسات أدبيّة مقارنة»، يشمل سبعة عشر عنوانا يورد فيه نماذج شعريّة طويلة بعد أن يعرّف بأصحابها وبأهمّ آثارهم ولا سيّما التي يقتبس منها النصّ أو النصوص كما يضع هذه النماذج الشعرية أو النثريّة في سياقها التاريخي أو الأدبيّ.. وقد يبيّن أصلها الجزائريّ أو العربيّ القديم إن كانت من التراث ككتاب الحيوان للجاحظ أو شعر تأبّط شرّا أو غزل العذريّين كقيس بن الملوّح **(مجنون ليلى)**.

يترجم في الكتاب أربع قصائد طويلة خاصّة بالجزائر تربو، في معظمها، على مائتي بيت، وكلّها للرحّالة الألمانيّ هاينريش فون مالتسانل (1826 — 1874) الكاتب الشاعر اللغويّ مؤلّف كتاب «ثلاث سنوات في شمال غربيّ إفريقيا» في أربعة أجزاء، نقل منه الدكتور دودو الأجزاء الثلاثة الأولى الخاصّة بالجزائر (715 صفحة)، مبيّنا أهميّته الكبرى في مقدّمة كلّ جزء من الأجزاء المنقولة، وصاحب قصّة «مدخنو الحشيش»، وقد نقلها أيضا، وكتب أخرى عديدة منها ديوانه «أصداف الحاجّ» ولا يقصد بالحاجّ إلاّ نفسه.



في هذا الدّيوان وفي غيره من مؤلّفاته توجد هذه القصائد الأربع الرّائعة التي ترجمها المرحوم في كتابه «دراسات أدبيّة مقارنه» بعد أن مهّد لها وعلّق عليها.. وهي:

- صورة مدينة الجزائر، ص 30 – 38.
- صورة البليدة، ص 39 – 49.
- صورة شلال مازونة، ص 51 – 57.



- صورة الصحراء، ص 59 – 65.

ويورد بعد ذلك نماذج من الأداب الألمانيّ والنمسويّ والرّوسي والإسبانيّ أو غيرها من الآداب اقتبست من التراث الجزائريّ أو العربيّ أو غيره من إبداعاتنا المباشرة وغير المباشرة.. ففي «صورة من الأدب الشعبي - مريم» يعيد، عن كتاب ألمانيّ ضاع منه ونسي اسم مؤلّفه يعيد قصيدة جزائرية شعبيّة غزليّة أوّلها في غير أصلها:

إنّ قلبي ليلتهب بنار الحبّ
لامرأة تنحدر من الفردوس،
فلكلم، أنتم يا من لا تعرفون مريم،
أريد رسم صورتها،
مريم هي الباي عثمان بنفسه،
حين يبدو على البعد بأعلامه،
وطبوله الصاخبة وخلفه رجاله.

وواضح أنّ هذه القصيدة التي تحتوي على اثنين وسبعين بيتا في ترجمتها عن الألمانية قديمة ومن الصعب إرجاعها على أصلها إن لم تدوّن أو دوّنت وضاع مخطوطها.

أمّا الروسيّ ألكسندر بوشكين (1799 – 1837) فيورد له، من «قصيدة النبي»، مقطوعة يستوحي فيها السيرة النبويّة وينقلها إلى العربية كما ينقل قصيدة أخرى بعنوان «محاكاة مقطوعة عربيّة» (1835) يقتبس فيها من الشعر الغزليّ العذريّ، وثالثة بعنوان «محاكاة القرآن» (1824) يقول فيها:

أقسم بالشفع والوتر
أقسم بالسيف، بالقصاص،



أقسم بالنجم، بالغسل الصباحيّ،

أقسم بصلاة التراويح!

كلاّ !كلا !لن أتخلّى عنك!

ترى، من ذا الذي حرصت على إيصاله إلى المغارة الآمنة وأخفيته عن نظر المطاردين؟

ألم أسق الظمآن من منبع الصحراء العذب؟

ألم أهب لسانك القدرة على الحكم والغضب المقدّس؟

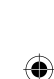
ويقرأ قصّة شعبيّة روسيّة «الفلاّح والإوزّة» في كتاب «روسيا الضاحكة»، وهي، فيما يقول، «قصّة معروفة متداولة في أيّام روسيا القيصريّة»، ويجد أنّها «قصّة الأعرابيّ والدجاجة» التي رواها الجاحظ في كتاب الحيوان، فينقلها إلى العربيّة ويستنتج أنّ «التأثير العربيّ ظاهر {فيها} **لا** يمكن إنكاره بأيّ شكل من الأشكال» (ص 100).



والحقيقة أنّ تأثير الجاحظ في الأدب الشعبيّ الشرقي ّوالمغربيّ والعالميّ تارة واضح كلّ الوضوح.. وقد خبرت ذلك في كثير من الحكايات التي تروى في الجزائر مرتبطة ببعض الأشخاص أو النواحي، وهي في الحقيقة ممّا أورده الجاحظ في كتاب الحيوان أو في رسائله.

ويدرس في عدّة عناوين من هذا الكتاب أثر المغرب والأندلس بخاصّة والمشرق بعامّة في الآداب الغربيّة لا سيّما في القصة والمسرحيّة والإبداع الشعريّ بنماذج فلسفية وأدبيّة، شعريّة ونثريّة يترجمها ويعلّق عليه ويحلّلها ليجعلها في متناول القارئ ويتبع كل عنوان بما يخصّه من مصادر ومراجع.

ومن مؤلفاته في الأدب المقارن وروافده . والترجمة أوّل الروافد له . «**الشاعر وقصيدته**» عرّب فيه ستّ عشرة مقطوعة لستّة عشر شاعرا



من مختلف دول أوروبيّة مع تحليلات وافية حّررها هؤلاء الشعراء، و « **العازف الأعمى وقصص أخرى** » للأديب النمساويّ أرتور شنيتسلر (Schnitzeler Arthur: 1862 – 1931)، و « **أصل العمل الفنّيّ** » للفيلسوف الألمانيّ مارتن هايدغر (Heidegger Martin: 1889 – 1976)، و « الح**مار الذهبيّ** » للفيلسوف الجزائريّ لوكيوس أبوليوس المداوري (نسبة إلى مدينة مداور، مداوروش الحاليّة).. واسمه اللاتينيّ Lucius Apuleius (124 / 5 – 180) عاش إذن في القرن الثاني الميلادي ودرس الخطابة والفلسفة والعلوم الطبيعيّة والفلك والطبّ.. له عدّة مؤلّفات لكنّه اشتهر بقصتّه « الحمار الذهبيّ » (Asinus aureus).. وليست « أوّل رواية في تاريخ الإنسانيّة » كما هو مثبت في غلاف الترجمة.. إنّما هي أوّل رواية وصلتنا كاملة.. وترجمة الدكتور دودو تملأ فراغا كاملا في المكتبة العربية.. وهي رواية رمزيّة لم يقم بدراستها أحد، رواية ذات نزعة أفلاطونيّة روحيّة صوفيّة.. يتجلّى ذلك في الفصل الحادي عشر منها وهو الأخير.. وقد قابلت نصها في الترجمة العربيّة المأخوذة عن الألمانيّة بترجمتها الفرنسيّة انطلاقا من النصّ الأصليّ فلم أجد فرقا إلاّ في الأسلوب.. وذلك ما يدلّ على الجهد البالغ الذي بذله المعرِّب الأمين وعرّب الفقيد روائع من المسرح العالمي المتميّز الممتاز سنثبتها في قائمة مؤلّفاته.

أمّا الدراسات فاخترنا منها دراسة واحدة قام بها وهو في غربته.. وهي تدلّ على حنينه إلى وطنه وعلى طموحه الوثاب وعبقريّته المبكّرة.

اخترنا مؤلّفه الذي نشره بعنوان **كتب وشخصيّات**: ويشمل قسمين:

الأوّل ترجمة لأربعة أعلام جزائريّة قصد التعريف بها والتنويه بمكانتها العلميّة والأدبيّة ولشاعر فارسيّ اكتسب بمواهبه وإبداعه شهرة عالميّة

ولشاعر آخر ألمانيّ بارز، والثاني نقد لأربعة كتب من تأليف بعض مواطنيه، ودراسة للقصّة في الأدب الجزائريّ المعاصر.. وقد نصّ على أنّ الكتاب ألّف في الخارج، بألمانيا، ما عدا المقال الأخير.

ترجم لمحمّد بن الحسين الطبنيّ (نسبة إلى طبنة على أربعة أميال من مدينة بريكة)، من كبار الشعراء، ولأبي مضر زيادة الله بن علي بن الحسين التميميّ الطبنيّ، ولأبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني.. كلهم عربيّ الأصل ومن أسرة واحدة.. وكلّهم شعراء وأدباء ذاع صيتهم في القرن الرابع الهجريّ ورحلوا إلى الشرق والغرب واتصلوا بأكابر عصرهم فوقّروهم وأكرموهم.. وترجم لابن مرزوق العجيسيّ التلمسانيّ أبي عبد الله محمّد بن أحمد (ت.. 781) ترجمة وافية ذاكرا مؤلّفاته، مبرزا منزلته العلميّة وأهمّ مراحل حياته وصلته بعظماء عصره وأثره في الحركة الفكريّة الجزائريّة.. وفي ترجمته للجاميّ عبد الرحمن بن أحمد (ت.. 898) يبرز ميله إلى الأدب المقارن وإعجابه وإعجاب الغربيّين بالأدب الفارسي وبخاصّة في شعر أقطابه السبعة وينصّ على أنّ الشاعر الألمانيّ غوته (Goethe) كان «يتّخذ من لسان الغيب حافظ الشيرازي توأما له، ويتبارى معه في اللذّة والألم، ويخلع عليه لقب القديس» وعلى أنّ الفيلسوف شليغل (Schlegel) قال: «يجب أن نبحث عن الإبداع الأسمى في الشرق».. ويعرض المؤلّف في هذه الترجمة بصفة خاصّة لعبقريّة الجامي وشعره الغزليّ وملاحمه لا سيّما ملحمته الشعريّة «سلامان وأبسال» التي تبلغ مائة وألف بيت.. كما يعرض إلى نقلها إلى بعض اللغات الغربيّة.. ويختم القسم الأول من الكتاب بترجمة قيّمة للشاعر الألمانيّ فريدريك هولدرلين (Holderlin Friedrich) المتوفىّ سنة 1843، يترجم له





بأسلوب أقلّ ما يقال فيه أنّه «من السهل الممتنع».. وقد يكون المبدع الجزائري الذي عرف اليتم والمعاناة وقسوة الأيّام وجد بينه وبين الشاعر الألمانيّ صلة روحيّة ما.

أمّا القسم الثاني من الكتاب فنقد بنّاء نزيه لمقالة «محمّد العيد رائد الشعر الحديث» ولـ «دراسات في الأدب الجزائريّ الحديث» ولمجموعة شعريّة بعنوان «ثائر وحبّ»، وكلّها لأبي القاسم سعد الله، ولكتابي «من وحي الثورة الجزائريّة» للجنيدي خليفة و «القصّة القصيرة في الأدب الجزائريّ المعاصر» من تأليف عبد الله خليفة ركيبي.

خير ما يمثّل الغاية من هذا الكتاب قول المؤلّف نفسه في مقدمته الوجيزة لهذا العمل: «لقد كانت هناك أمور دفعتني إلى كتابة هذه الدراسات، وفي مقدّمتها الرغبة في إقامة نوع من الاتّصال الفكريّ مع الوطن أيّام الغربة، والاهتمام بماضيه وحاضره الأدبيّ، وتتبّع إنتاج بعض شعرائه وأدبائه في هذه الفترة أو تلك».



أمّا فنّه الإبداعيّ، لا سيّما القصصيّ منه، فصورة صادقة لحياته وشخصيّته، ولآماله وأحلامه، ولحبّه العميق لوطنه الذي وهبه كلّ جهوده الفكريّة وناضل عنه مغتربا وفي أحضانه وشاطره السرّاء والضرّاء.. وهو كذلك أدب إنسانيّ بأسمى وأنبل معاني الإنسانيّة تغنّى بالفضيلة ودعا إلى مكارم الأخلاق وجسّدها بقلمه وبسلوكه.

والظاهر أنّه عالج الأقصوصة منذ زمن بعيد وأنّه لم ير نشر محاولاته الأولى في هذا الفنّ.. ذلك أنّ ما بين أيدينا لا يمكن، بأيّ شكل من الأشكال، أن يكون له طابع المحاولة.. هو فنّ ناضج والناضج تسبقه «الباكورة» بدلالة اللفظ في معظم لهجاتنا المحلّية.. تقرأ «بحيرة الزيتون» أو «دار الثلاثة» أو «الطريق الفضّي»، تقرؤها بكلّ ما فيها



فتجد صاحبها ضليعا بفنّه، عالما بأسراره، متمكّنا من قواعده.. وقد يستغني عن القاعدة لسبب يدركه.

وهو أدب يتّسم بواقعيّة مدهشة تغلب عليها دقّة الملاحظة وقوّة الذاكرة ورهافة الحسّ وسلامة الذوق وحسن التأتّي واختيار الكلمة المعبّرة والأسلوب المناسب.. تطالع «عرس الذئب» في مجموعة «الطريق الفضيّ» فتكاد تقسم أنّ الكاتب لا يصدر إلاّ عن تجربة مريرة عاناها.. وقد سألته عن القصّة كما ذكرت في أوّل المقالة فأخبرني أنّ الحادث لإحدى المجموعات، و «الحبيبة المنسيّة» و «مجرّد بطاقة».



فمجموعة «بحيرة الزيتون» لا تكاد تخرج في مضمونها عن «ثورة التحرير المباركة» وكفاح أبطالها ومعاناة شعبها من الاضطهاد والتجهيل والفقر المذلّ.. وتتغنّى بالفجر السعيد الذي كان ينتظره كلّ مواطن.. كلّ قصّة تصبّ بعنوانها ومحتواها في هذا المصبّ.. وينقلك الكاتب فيها وفي غيرها من المجموعات إلى تلك العهود، إلى شبابك، وما أحلى الشباب !إلى أحلامك، وما ألذّها !إلى شعبك، تعكسه صفحة بمعتقداته وتقاليده وأعرافه **لا** كما تعكسه المرآة الجامدة بل كما يراه الشاعر المفكّر بخفقان قلبه وحصافة ذهنه وكما هو وكما يجب أن يكون.. وبذلك يتّحد الكاتب والطبيعة والحقيقة والخيال وتلك غاية الفنّ.

ذلك ما يفسرّ أسلوبه المفعم بالصور البلاغيّة من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها ممّا يظهر مقصودا، ولا أراه كذلك.. إنّما هي طبيعة صاحبه كما عرفته: يرى الحياة في كلّ شيء فيصدر عن موهبة راسخة فيه.. والشواهد على ذلك كثيرة يطول ذكرها.. وقد يلجأ إلى بعض العبارات العامّيّة على ألسنة الأولاد أو بعض أفراد الشعب، يقصد إليها قصدا بعد



أن يعطيها القالب الفصيح أو يتركها كما هي.. وذلك ما يزيد النصّ واقعيّة وصدقا لكنّه نادرا ما يلجأ إلى الدارجة.

وقد يستعمل الرمز في حديثه عمّا يخالج أعماق نفسه من تأملات ورسم المثل العليا لنفسه و للإنسان.. يورد القصة في شكل حلم مرعب أو مضايق على الأقل متوخيا طريقة الحلم من رؤى تتطلب التعبير والتأويل ويعطيك بعض المفاتيح التي تمكنك أوقد تمكنك ممّا أراد لأن التأويل مبني غلى الحدس والتخمين والدربة وبعد النظر.

لم أرم في هذه العجالة إلى تحليل فنّه أو دراسة أعماله.. إنّما رميت إلى تقديم بعض منجزاته الفكريّة تقديما مجملا، كما يتّضح من العنوان، وإلى التعبير عن إكباري له ووفائي له حاضرا وغائبا.. تغمّده الله برحمته.!

ولقد رجا منّي بعض إخواني أن أذكر للناشئة ما تيسّر لي ذكره من مؤلّفاته المنشورة، فها أنا ذا ألبّي رغبتهم معتذرا لهم عمّا يوجد في القائمة من نقص لم يتح لي أن أجتنبه لأسباب أوضحتها في أماكنها، شاكرا فضل من أعانني على القيام بهذه المهمّة.



مؤلفاته المنشورة:

أ . الإبداع والدراسات:

– بحيرة الزيتون (مجموعة قصصيّة)، الجزائر، 1967.
– دار الثلاثة (مجموعة قصصيّة)، الجزائر، 1970.
– الطريق الفضّيّ (مجموعة قصصيّة)، الجزائر، 1981.
– الطعام والعيون (مجموعة قصصيّة)، الجزائر، 2001.
– البشير (مسرحيّة)، الجزائر، بدون تاريخ.
– التراب (مسرحيّة)، الجزائر، 1968.



– صور سلوكيّة (ظاهر منه ثلاثة أجزاء)، الجزائر، 1985 وما بعدها.
– الجزائر في مؤلّفات الرحّالين الألمان (1830 – 1855)، الجزائر، 1970.
– الشاعر وقصيدته (عرض ودراسة وتعريب)، الجزائر، 1986.
– دراسات أدبيّة مقارنة، الجزائر، 1991.
– من أعماق الجزائر (معلومة مأخوذة من الغلاف الخارجيّ لكتاب العمل الفنّي اللغويّ . مدخل إلى علم الأدب).
– جزائريّات (نفس الملاحظة السابقة).
– هاملت وعطيل (نفس الملاحظة السابقة).

ب . الترجمة

– مذكّرات بفايفر، لمسيون بغاير (SIMON PFEIFFER) الجزائر، 1974.
– مدخّنو الحشيش في الجزائر لهاينريش فون مالتسان، (Maltzan) الجزائر، 1968.
– ثلاث سنوات في شمال غربيّ إفريقيا، لهاينريش فون مالتسان (3 أجزاء)، الجزائر، 1980.
– قسنطينة أيّام أحمد باي تشلوسر (schlosser)، الجزائر.
– الحمار الذهبيّ للوكيوس أبوليوس، منشورات كتاب الاختلاف، الجزائر، 2001.
– من القصص النّمساويّ، (عن الغلاف الخارجيّ لكتاب العمل الفنّي اللغويّ.
– مختارات شعريّة ونثريّة لغوته (Goethe).
– ماهي العولمة لأريش بك، الجزائر.. لم أطّلع عليه.





– العازف الأعمى وقصص أخرى (Der 1912 , Geronimo und sein Bruder blinde) لأرتور شنيتسلر (Schnitzler Arthur)، مشورات الاختلاف، الجزائر، 2003.

– أصل العمل الفنّيّ (Der Ursprung des Kunstwerkes) لمارتين هايدغر ((maritin heidegger، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2001

– كتاب الطريقة والفضيلة لتاو تيه كينغ (Tao Te Kingهومة دار الجزائر، دت

ج . المسرحيّات المترجمة:

- الضيف الحجريّ: (Kamienni Gost)، لألكسندر بوشكين (Pouchkine Alexand Sergeievgch re)، الجزائر، 1976.

- الهروب إلى الله: (Die Flucht Zugott) لشتيفان تسفايغ (Zweig Stefan)، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

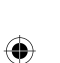
- مسرحيّة بادن لتعليم الموافقة: (Das badner Lehrstuch vom Einberstandnis) للشاعر الألمانيّ برتولد بريخت (Brecht Bertolt) الشركة الوطنيّة للتوزيع والنشر، الجزائر، 1976.

- الإنسان الطيّب (Dute Mensch von Sezuan) لبرتولد بريخت، الجزائر.

- حديقة الحبّ (Amor de don perlmplin con Belisa en su jardin)، للوركا (Federico Garcia Lorca)، الجزائر، 1976.

- هو السبب والعامل الأوّل لتولستوي (Ll.. n.. Tolstoi) لم أطلّع عليه ولم أهتد إلى عنوانه باللغة الروسيّة، الجزائر.





- مسرحيّة دانتون (Dantons Tod , 835)، لبوخنر (Georg Buchner)، الجزائر.. لم أقرأها.

د . بعض المقالات:

- شاعر وقصيدة . قراءة لمعزوفة السيّد لأصمّ بوزيد حرز الله، مجلة « اللغة العربيّة » للمجلس الأعلى، العدد السادس، سنة 2002.
- حركة العاصفة والاندفاع الألمانيّة . دراسة نقديّة العدد السابع من المجلّة السابقة، سنة 2002.
- الساحر والسحر . دراسة نقديّة.. العدد الثامن من المجلّة السابقة، سنة 2003.
- رودلف غاير وأعشى قيس العدد التاسع من المجلّة السابقة، سنة 2003.





جهود العلامة موسى الأحمدي
في خدمة العربية

موسى بن محمد بن الملياني بن النوي ـ ومنه النويوات، نسبة بالجمع ـ بن عبد الله بن أحمد، ومنه الأحمدي[33].

ولد في 13 من شهر رمضان عام 1317 هـ الموافق 15 جانفي من سنة 1900م.. بمشتى الحمائد بالطبّوشة، شرقي المسيلة بنحو 35 كلم.

وهو أصغر إخوته والثاني عشر منهم.. ولم يكن أبوه ميسور الحال ولا كان في عنفوان شبابه.. إنّما كان يناهز الخامسة والسبعين من عمره يوم رزق هذا الولد، حدب عليه ورعاه وأحبه كما يحب كل والد آخر من أنجب.. ولم يرد له أن يكون كإخوته راعي إبل أو شاه أو فالحا لقطعة أرض قليل عطاؤها.



وما إن بلغ العاشرة من عمره حتى حمله إلى « سيدي عقبة » وتركه عند إحدى الأسر الخيّرة يقرأ القرآن بجامع عقبة بن نافع (ض).. ثم انتقل إلى برج الغدير[34] بالقرب من برج بوعريريج إلى زاوية آل الأطرش، حيث تابع حفظ القرآن وشرع في دراسة الفقه والنحو.. وكان لشيخه الحاج السعيد، تلميذ الشيخ عليش بالأزهر الشريف، بالغ الأثر وفي غيره ممن حضر دروسه وتخرّج عليه.

33 . – في النسب الذي اختاره لنفسه ، أما عشيرته بجميع أسرها ، فتنتمي إلى حمادة بن إبراهيم من أولاد يحي بن مساهل ويحي هذا هو الذي وفد على أحد بطون ريغة بين ''رأس الواد'' و ''قصر الصفر'' والعامة تسمية ''قصر الطير'' بالقرب من سطيف .

34 . – ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان (188 / 4) وذكر أن أبا عبد الله الغديري المؤدب العابد ينسب إليه .



وفي سنة 1336 هـ / 1917م توفي الشيخ، فانقطع الأحمدي عن الدراسة إلى أن قيّض الله له أن ينتقل إلى قسنطينة قاصدا الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله.. فتابع دروسه بالجامع الأخضر مدة سنتين 1345 – 1346هـ / 1926 / 1927 م.

ثم وجّهه الأستاذ ابن باديس إلى تونس ليتابع دراسته بجامع الزيتونة، وزوّده بكتاب إلى صديقه المرحوم الشيخ معاوية التميمي، فلقيه بالبشر والحفاوة ورعاه في دراسته وأشرف عليه إشرافاً علمياً وأدبياً.

تابع دراسته في الزيتونة مدة أربع سنوات غير منخرط في السلك النظامي.. إنما كان يختار أساتذته والحلقات التي يحضرها.. درس العلوم الشرعية من أصول وفقه وتوحيد وتفسير كما درس النحو ومبادئ المنطق وعلوم البلاغة والسيرة النبوية.



عاد من تونس سنة 1348 هـ / 1930 م بشهادة تدعى التطويع في ذلك العهد.. عاد وهو غير راض بتحصيله وبمستواه العلمي.. ذكر لي ذلك مراراً، بل كان يشكوه شكوى مرة.. كان يقول لي: لو أمهلت ثلاث سنوات أخرى على الأقل لحصلت لي الملكة التي حصلت لغيري.. هكذا كان يسميها.. لكن الأقدار شاءت غير ذلك.. توفي والدي وأنا أحوج ما أكون إليه فانقطعت عني كل إعانة مادية ولحقني من ذلك عنت شديد.. فلم أستطع مواصلة دراستي إلى آخر مراحل التعليم بالزيتونة.. اضطررت إلى الرجوع اضطرارا.

عاد إلى الموطن برغبة أكيدة في مواصلة دراسته، وفي طلب المعرفة حيثما وجدها وبوسائله الخاصة.. ولم يكن له من الوسائل آنذاك إلا بعض الكتب مما كان مقررا في الدراسات الزيتونية، ومما اقتناه قبل



ذهابه إلى تونس، في طبعات قديمة تضني الفكر وتجهد القارئ[35] وبهذه الكتب وبغيرها وطن نفسه على التحصيل وعلى توسيع أفقه الثقافي وعلى التأليف.

علم من سنة 1348 / 1930 إلى سنة 1355 / 1937 بالقرى المجاورة لقلعة بني حماد ولبرج الغدير، علّم تعليما مسجدياً درس الفقه والحساب والفرائض والنحو.. وكان الناس في ذلك العهد لا يقبلون تدريس الفقه إلا بمختصر خليل وبشرّاحه المعروفين بالمغرب العربي.. وكان بالغدير سبعة فقهاء عرفت بعضهم في صباي وعرفهم الشيخ البشير الإبراهيمي وكان يسميهم «الفقهاء السبعة» إشارة إلى فقهاء المدينة السبعة، يدعوهم كذلك بنوع من الدعاية التي لا يعرف سرها وأبعادها إلا هو.



وكان لهؤلاء الفقهاء تأثير كبير في أفكار العامة ومعتقداتهم، رسخوا بتلك الناحية بدعا كان يحاربها ابن باديس ورواد الإصلاح آنذاك.. فكانوا بدورهم يحاربون ابن باديس وتلامذته.

بقي الأحمدي بنواحي برج الغدير سبع سنوات بجوار الفقهاء السبعة يحارب البدع ومحدثات الأمور وينشّئ تلامذته على الإصلاح وطلب العلم.. وقد عرفت الكثير منهم صبيا وكهلا وأقتصر على ذكر اثنين منهم: المرحومين عبد الكريم العقون الشاعر المشهور وعيسى معتوقي.. وقد

35 . – منها شروح ألفية ابن مالك كالمكودي وابن عقيل والأشموني
– وبعض كتب ابن هشام كالقطر والمغني وشذور الذهب ، والتصريح للأزهري .
– وشروح خليل (الدردير والزرقاني والخرشي)
– وبعض شروح رسالة ابن أبي زيد ابي زيد القيرواني وابن عاشر والعاصمة .
– وبعض كتب الأصول كشروح جمع الجوامع للسبكي وكالمستصفى للغزالي .
– وبعض كتب الفرائض كشروح الرجبية والدرة وكتاب الترتيب وكان معجبا به .
– وبعض كتب المنطق (إيساغوجي للأبهري والسلم للأخضري) .
– وشروح السعد : سعد الدين التفتازاني (وبه سمي أخي) .
– والمصباح المنير للفيومي ، ومختار الصحاح للإمام الرازي (وبه سميت) .
– ومجموع المتون وغيره من المصنفات المتداولة في الأزهر والزيتونة . والقرويين . ومن أمهات الكتب كالعمدة لابن رشيق والعقد الفريد لابن عبد ربه في طبعات قديمة غير محققة .



استشهدا في حرب التحرير رحمهما الله وكانا من أعضاء جمعية العلماء.

لم يقصر نفسه على التدريس، بل ناضل في صفوف جمعية العلماء.. بما كان ينشر من قصائد في مجلة الشهاب وفي جريدة البصائر وبمشاركته في بعض المسابقات العلمية.. وكان متطلعا إلى معرفة الحركة الأدبية بالمشرف العربي، يقتني ما يستطيع اقتناءه من كتب ودوريات لا سيما الصادر منها في مصر كمجلة الرسالة.

أذكر أنه كان يدرّبني منذ السابعة من عمري على حفظ أبيات من الشعر، ثم انتقل بي إلى المقطوعات، ثم إلى القصائد الطوال.. وأول قصيدة حفظتها ولما أتجاوز التاسعة قصيدة الزهاوي نشرت آنذاك في مجلة الرسالة ومازالت ترن في أذني، لأن المشكلة التي عالجها الزهاوي في تلك القصيدة الطويلة مازالت قائمة إلى الآن: مشكلة اجتماعية اقتصادية سياسية فيها يقول متحدثا عن النفط:

لنا ثروة في الشرق أتعابها لنا
وأرباحها في الغرب نهب مقسم

أردت أن أبيّن بهذا أنه كان في الثلاثينيات مهتما بالحركة الأدبية في العالم العربي وفي الغرب كان يدرس الفقه والفرائض والنحو لكنّه كان إلى الأدب أميل منه إلى هذه الفنون، رغم بعده عن الحواضر ومنابع الإنتاج الأدبي، ورغم قلة المواصلات ووسائلها.

ومع ذلك راوده حلم التأليف منذ منتصف الثلاثينيات.. فقد كان يدرس الفرائض لعدد من الطلبة لا يتجاوز العشرة في مسجد ريفي وفي منطقة جبلية معزولة عن السكان، لأنّ الناس في ذلك العهد لا يقبلون جواراً غير جوار الأقارب، وهو أمر طبيعي، وكان يفصل بين الأسرة والأسرة الميل والميلان وكانت مواضعها تدعى بالأسر القاطنة لها (الفلانيون، أولاد فلان).



وفي ذلك المسجد النائي الجبلي درس لهؤلاء الطلبة الحساب والفرائض سنتين أو ثلاثا معتمدا ثلاثة كتب أساس:

1) – «بغية الباحث عن جمل المورث» لأبي عبد الله الرحبي الشافعي (ت 577 هـ) وهي منظومة مشهورة عرفت فيما بعد بالرحبية أو الأرجوزة، شرحها كثير من العلماء العرب ونقلت إلى الفرنسية والإنجليزية في أواخر القرن التاسع عشر.

2) – الدرة البيضاء لعبد الرحمن الأخضري البسكري الجزائري (ت 983 هـ) صاحب الجوهر المكنون[36]والسلم[37]والسراج[38].

3) – لباب الفرائض لمحمد الصادق الشطي من أساتذة جامع الزيتونة.

شغف بهذا الفن على أقصى حدود الشغف وجدّ في تحصيله إلى أن ملك ناصيته وعدّه مواطنوه من كبار المتخصصين فيه ووكل إليه المجلس الإسلامي الأعلى مراجعة «كتاب الفرائض للميلي» وهو صهر مبارك الميلي.



درب طلبته، بالمسجد الريفي الذي ذكرته، على تذليل صعاب مشكلات الفن بأقسامه الثلاثة الحساب والفرائض والوصايا، وحلّ لهم تمارين «لباب الفرائض» وكان ظهر حديثا في المكتبات، لأن صاحبه لم يفرغ من تأليفه إلا سنة 1353 هـ / 1934م، وهي السنة التي شرع فيها الأحمدي في تدريس الفرائض.

وكانت ثمرة جهوده بذلك المسجد الكتاب الذي فرغ من تأليفه سنة 1357هـ / 1939م ونشره فيما بعد بعنوان «كشف النقاب عن تمارين

36 . – الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون (المعاني والبيان والبديع) ، نظم فيه تلخيص المفتاح .
37 . – السلم المرونق : نظم فيه إيساغوجي (كتاب المنطق للأبهري)
38 . – نظم السراج في علم الفلك .



اللباب» بتقريظ من الشيخ الصادق الشطي والشيخ صالح المالقي شيخ الجامع الأعظم سابقا والمكلف بمشيخة الإسلام المالكية.

وفي سنة 1356 هـ / 1937م، طلب منه الشيخ عبد الحميد ابن باديس أن ينتقل إلى مدينة برج بوعريريج ليعلم بمدرسة التهذيب، ولهذا الطلب مغزاه لأن المدرسة لم تكن تحت إشراف جمعية العلماء.. فغادر الريف إلى المدينة والعزلة العلمية أو ما يشبه العزلة إلى المساهمة في حركة ثقافية واسعة أتاحت له من وسائل المعرفة ما لم يجده في المساجد القروية، وتنوعت اهتماماته وتغيرت برامج التدريس وطريقته وأدواته، لكنه سرعان ما تكيف بالبيئة الجديدة.

علم بمدرسة التهذيب إلى سنة 1361 هـ / 1942م مبادئ اللغة العربية تعليما عصريا أو شبه عصري مع زميلين له درس أحدهما بالمدينة المنورة وثانيهما بجامع الزيتونة ووجد من الفراغ ما سمح له بنشاطات أخرى لا تقل أهمية عن تعليم الأولاد وتربيتهم، وأوجزها في بعض النقاط:



كانت الحركة الكشفية في عنفوانها في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، وكانت نشاطاتها الثقافية متنوعة لا سيما المسرحية منها.. ووجد كشافة البرج في الأحمدي خير عون لهم، بل وجد فيهم ضالته المنشودة.. نظم لهم أناشيد فصيحة عديدة، وألف لهم بالملحون مسرحيات هادفة ضمنها نقد المجتمع والتوعية السياسية بأسلوب مرح راوح فيه بين الجدّ والهزل والنثر والنظم، وكانت الحرب العالمية الثانية قائمة بويلاتها ونقص في المستوى الثقافي والخلقي ولهو في المقاهي وجوع وعري وأصوات من أعلى خشبة المسرح تنادي:



فيقوا !فيقوا !

فـــيـــقـــوا ! فـــيـــقـــوا ! مـــا تـــنـــامـــوش
يالـــلـــي رقـــدتـــو مـــا فـــطـــنـــتـــوش
هـــــذا الـــفـــعـــل مـــا مـــنـــوّش
فـــيـــقـــــوا ! فـــيـــقـــــوا !
كـــشـــرتـــو كـــــاولاد الـــســـمـــانـــة
الـــقـــهـــاوي مـــنـــكـــم مـــلـــيـــانـــة
ومـــا قـــعـــدتـــو إلا لـــلـــهـــانـــة
فـــيـــقـــــوا ! فـــيـــــقـــوا !
اعـــمـــل كـــيـــمـــا يـــعـــمـــل جـــــارك
وإلا حـــــوّل بـــــاب دارك
يا الـــلـــي في الـــنـــهـــضـــة مـــا شـــارك
فـــيـــقـــــوا فـــيـــقـــــوا !

وتتعدد المسرحيات الهادفة وقصائد الملحون الرامية إلى الإصلاح الاجتماعي وتنمية الوعي السياسي، ولو لم تكن السلطات الاستعمارية مشغولة بوطأة الحرب وهمومها وفتنها الداخلية للحق الشاعر المصلح منها أذى شديد.. والدليل على ذلك أنها لم ترحم أحدا عندما وضعت الحرب أوزارها.

ويبلغ إنتاجه في الملحون حوالي التسعين قصيدة أغلبها قومي وأغزرها ما نظم في سنوات الحرب العلمية الثانية وأعذبها ما قيل في العشرينيات.

أما النشاط الثاني الذي ساهم فيه بأوفر قسط وبذل فيه جهودا مضنية، فالحفلات التي كانت تقام بمناسبة المولد النبوي الشريف، وتتنافس فيها مدرستان، الأولى حرة والثانية رسمية، وخمسة معلمين وأكثر من أربعين



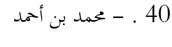


تلميذا يدربون مدة شهر كامل في السنة على حفظ نصوص أدبية قديمة وحديثة واستظهارها أمام أوليائهم.. وكانت تلك النصوص المنتقاة من نماذج الأدب الرفيع خير ذخر لمن ساعده الحظ على متابعة دراسته.. كما كانوا يدربون على أدوار تمثيلية أو شبه تمثيلية يعتمد فيها بعض ما ألف بالجزائر «كبلال» لمحمد العيد رحمة الله و«إسلام حمزة»، وكانت نشرت بمجلة الرسالة، أو محاورات يؤلفها الأحمدي بأسلوب مرح مسجوع يتخلله بعض النظم وتعالج فيها قضايا اجتماعية ثقافية.. وقد برّز في هذا المضمار ونجح فيه نجاحا لم يغفر له.. وذلك ما سبب له مشاكل عانى منها الأمرّين، وعانى مها أبناؤه بضع سنين.. وقد حاول أن يطبع هذه المحاورات التي ألفها، فلم تساعده الظروف.. وأرى لها قيمة أدبية تاريخية ملحوظة.

وأما النشاط الثالث فتأليف «المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي» وهو الفن الذي اشتهر به في الأوساط الثقافية الجامعية وغير الجامعية.. وله فيه إلى اليوم قدم راسخة وما قولكم في رجل لم يأخذ مبادئ العروض عن أحد كائنا من كان ولا جلس بين يدي معلم ليحذقه ولو يوما واحدا، ثم يؤلف فيه تأليفا يناقش فيه القدماء والمحدثين على السواء، حتى المؤصّلين له؟ فعل ذلك مع الشريف الغرناطي (ت 1230 هـ) شارح «مقصورة حازم[39]» و«الخزرجية» في العروض، ومع الدسوقي (ت 1230 هـ)[40] في حاشيته.. على شرح التفتازاني لكتاب التلخيص تعقبه في خمسة مواضع بأدلة مأخوذة من فن العروض ومن الشعر.. وينشر الدراسات العروضية النقدية في المجلات الشرقية من التي

39 . – حازم محمد بن الحسن ، الأنصاري القرطاجني ، ناظم ''المقصورة'' . وهي أرجوزة تبلغ 1006 أبيات ، مدح بها المنتصر الحفصي شرحها كثيرون ، ومنهم الشريف الغرناطي ، سمي شرحه ''رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة'' وهو الوحيد الذي وصلنا .

40 . – محمد بن أحمد







ردّ فيها على الأزهريين الذين تعقبوا الشيخ الطاهر بن عاشور في شرحه لديوان بشار بن برد، وقد بيّن في هذه الدراسة ما لشارح الديوان وما عليه وما أصاب فيه أساتذة الأزهر وما جانبهم فيه الصواب.

والذي يميز كتاب المتوسط الكافي التعمّق في المسائل الفنية وبسطها بوضوح تام وحسن اختيار النماذج الشعريّة التي تبرز في مؤلفها حسا أدبيا مرهفا وشغفا بالشعر لا أجد له تفسيرا في تكوينه بقسنطينة أو بتونس والظاهر أن لهذا سرا لا يعرفه إلا هو.

وكانت الرقابة الاستعمارية شديدة على التأليف الوطني، لا يستطيع الجزائري أن ينشر كتابا إلا برخصة من عامل العمالة (الوالي) بعد أن ينظر فيه أحد المستشرقين.. سلم المؤلف كتابه وبقي ينتظر سنوات.. وموطل ثم قيل له إن النسخة التي سلمها ضاعت فاضطر إلى كتابه نسخة أخرى وتمضي السنوات ويكلف بإدارة مدرسة التهذيب، بعد أن قضى فترة طويلة في تعليم مبادئ العربية للصغار والراشدين في البرج و في غيره وأفاد من ذلك تجربة تمخضت عن حس تربوي أكيد وعن قناعة مبكرة في أن المدرسة الجزائرية في حاجة ماسة إلى كتاب مدرسي عصري يستمد مادته من الحياة اليومية ومن البيئة، وبأن التلميذ الجزائري يعجز عن تسمية أبسط الأشياء مما يمارسه يوميا ويستعمله صباح مساء.. وبعبارة أوضح تبين له أن المعلم والتلميذ لا يعرفان اللغة الأساس وأن مستحدثات الحضارة في البيت وفي الشارع والمدرسة وعلى مستوى القطر تسمى باللغة الفرنسية فالسيارة طومابيل، والدراجة بيسيكليت، والجرار تراكتور، وحجرة الاستقبال صالون، وهلم جرا.



أراد أن يرأب هذا الصدع في المجتمع الجزائري وفي المدرسة الجزائرية، فألف كتاب «المحادثة العربية»، وظف فيه بطريقة عصرية



ما يسميه مجمع اللغة العربية بألفاظ الحضارة، مما يحتاج إليه كل عربي في لغته اليومية، ألف قبل تعريب التعليم بالجزائر تعريبا كاملا، وجعله للصفوف الوسطى من التعليم الابتدائي.

طبع الكتاب بلبنان مرارا، تارة بعلم المؤلف، وتارة بغير علم منه لرواجه بالبلاد العربية وبعض البلدان الإفريقية.

أشرف على مدرسة التهذيب إشرافا تربويا ثقافيا لا يقل أهمية عن الأول، فكون بها مكتبة تربو على الخمسة آلاف مجلد في شتى المجالات، وكان لأمهات الكتب الحظ الأوفر فيها ولما تقاعد نقلت هذه المكتبة الثمينة إلى مدرسة المعلمين بمدينة سطيف.

وواصل نشاطه في التأليف والبحث رغم تقدم السن به فشارك ثلاث سنوات متتالية في المسابقات الرمضانية 1398 . 1390هـ / 1968 – 1970م.. وكان يشرف عليها الشيخ أحمد حماني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الذي أراد أن تكون لهذه الأسئلة أهمية علمية وثقافية حقيقية، وأن تثير همم العالمين والباحثين.. كانت هذه الأسئلة تدور حول سبعة محاور كبرى: الدين من قرآن وحديث وأصول وفقه وعلم كلام، والتاريخ الإسلامي قديمه وحديثه، والجغرافيا واللغة، والآداب العربية، ورجاله، والشؤون القومية المعاصرة.

فاز في هذه المسابقات بالجائزة الأولى ونشر أجوبته في كتاب سماه « شرح الأجوبة الرمضانية » وقرظه واضع الأسئلة الشيخ أحمد حماني، يقول في ثنايا تقريظه:

« ومن يتصّفح أجوبة الأستاذ موسى يقتنع بغزارة مادته، وعلوّ كعبه وسعة ثقافته، وشدة ذكائه، ومهارته، في كشف النقاب عن المعميات.. وإني أترك الكشف عن ذلك للقارئ الأديب يسايره في أجوبته ليصل





إلى معرفته بنفسه.. لقد كانت بعض الأسئلة كالألغاز في غموضها وشدة خفاء إشارتها ولكنها حقائق تاريخية أو أدبية تمتحن بها نباهة الأديب، وسعة اطلاعه، وشدة صبره.. وكان الأحمدي ـ حيث يخيب غيره ـ لا يخيب وحيث لا يحاول غيره يحاول ويجيب، وحيث لا يصيب غيره ولا يقارب، يسدد ويصيب.... » وراح الشيخ أحمد حماني يذكر بعض ما جعل هذه الأسئلة صعبة.

والحقيقة إنّ هذا العمل كلّفه جهودا مضنية لتشعّب مسالكه وتعدد فنونه.. وقد أعطانا هو نفسه سرّ نجاحه فيه، يقول في مقدمة كتابه: « وأنا إذ أجيب عن هذه الأسئلة رغم تقدم سني إنما أستجيب لعاطفة رافقتني طيلة حياتي، وهي حبي للمنافسات الثقافية، ورغبتي في تذليل صعوبات البحث العلمي المتقمص للألغاز.... ».



هذه الرغبة هي التي جعلته يدرب النشء على فك الألغاز والمعميات وأوحت إليه النظم في جزء صالح منها على طريقة القدماء، بأسلوب مشوّق، ومازالت مخطوطة.

ولما ناهز الثمانين ألف « معجم الأفعال المتعدية بحرف »، نشر بدار العلم للملايين سنة 1399هـ / 1979م.. قال في مقدمته: « وللأمانة أنبه إلا أنه ليس لي من هذا العمل المتواضع إلا جمع ما تفرق من تلك المعاجم ليكون في كتاب واحد بدلا من كتب مختلفة وليسهل للباحث مراجعته ».

ولكن المعاجم العربية التي يذكرها كلها هكذا من « تهذيب اللغة » للأزهري و « الصحاح » للجوهري، و « لسان العرب » لابن منظور إلى « تاج العروس » للزبيدي لأنّ اللغة رواية ولا يمتاز فيها مؤلف عن آخر إلا باستيفاء الموضوع وحسن الاختيار وعدم الخروج عن الإطار المرسوم ووضوح العرض وملائمة العصر.



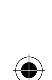
وأنا أعد هذا العمل مكلفا لا سيّما لابن الثمانين، مفيدا بتبسيطه للمادة وبجمعها وكانت شتاتا وإخراجها في طبعة جديدة.

فإذا أضفنا إلى ما تقدم كتاب «طرائف وملح» الذي نشر سنة 1409 هـ / 1989م بدار العلم للملايين، وبعض المخطوطات وست قصص للأطفال أتينا على مجموع مؤلفاته وهي سبعة وعشرون مؤلفا.

أما نشاطه التربوي الثقافي، فمستمر إلى يوم وافته المنية.. مازال يقرض الشعر وهو ابن السابعة والتسعين ويدرّس للكبار من زائريه ما يرغبون فيه مما هو من اختصاصه، حبا في التدريس ورغبة في الإفادة لا غير.. ويستفتى في القضايا الفقهية فيفتي، ويكتب على آلته الراقنة.. ومما رقن في الصيف الماضي صيف 97، قصيدتين نظمهما في حفيدين من حفدته الكثيرين: الأول بمناسبة عيد ميلاد، والثانية بمناسبة ميلاد وترك في إحداهما بيتا ينقصه شطره الأخير فحاولت إكماله فلم أستطع إلا بعد الجهد.



هذه رحلته العلمية حاولت أن أنقلها موجزة وبالأمانة التي يقتضيها العلم، ولا أرى ما يلخصها خيراً من كلمة كان يجيبني بها في ظرف متكرر لا داعي إلى ذكره، كان يقول: «يا بني !إنني جئت من بعيد» نعم !جاء من بعيد وبلغ شأوا بعيدا.



الصّلة بين العربية الفصحى وعاميّتها بالجزائر
المعالم الكبرى

موضوع دراسة الصّلة بين الفصحى وعاميّاتها في الأقطار العربيّة موضوع ثريّ، متعدّد الجوانب، مترامي الأطراف، متنوّع الأهداف، صعب المتناول، مهما كان المجال الذي يدرس فيه ومهما كان المستوى المختار له.. ذلك أنّ علاقاته بالأزمنة والأمكنة وبنواميس التطوّر في المجتمعات والثقافات والحضارات والألسنة لا تكاد تحصى ولا نعرف منها إلاّ القليل الذي يبرز للعيان بعد حصوله.. لم أختر هذا الموضوع إلاّ بعد طول تردّد ولا أتناوله إلاّ من زاوية محدودة يفرضها عليّ المجتمع الضيّق الذي نشأت فيه وصلاتي بغيره ممّا لا يتجاوز الحدود الجزائريّة، وما اقتنيت في دراستي المتواضعة وما استنتجت من بحثي في هذا المجال الذي طالما لفت نظري بل طالما شدّني إليه.

لا نعرف كيف نشأت اللغة التي يدعونها مصيبين أو مخطئين «اللغة الأمّ للألسنة الساميّة» و التي تفرّعت عنها البابليّة القديمة والعربيّة والأشوريّة والعبريّة والسريانيّة والآراميّة والفينيقيّة والحبشيّة، ولم يبق منها إلا العربيّة والعبرانيّة والحبشيّة والسريانيّة.. ويقال إنّ العربيّة أرقاها جميعا.

لم تكن العربيّة قبل الإسلام لغة واحدة بل كانت لغاتٍ ذكر منها القدماء ستّا:



- المسند: لغة حمير في اليمن ولم يكن العدنانيون يفهمونها.
- الزّبور: لغة حضرموت وبعض اليمن.
- الرّشق: لغة عدن والجنَد.. والجنَدُ جزء من اليمن.
- الحويل: لغة مهَرة (بين عُمان وحضرموت) والشحْر، على ساحل المحيط الهنديّ بين عدن وعُمان.
- الزقزقة: لغة الأشعريين (من قبائل كهلان من القحطانيّة).

وقد اندثر أكثر هذه اللغات القحطانيّة، فلا يمكننا دراستها دراسة دقيقة ومعرفة مادّتها وأصولها معرفة حقيقيّة ومقارنتها بغيرها مقارنة علميّة.

- المبين: وهو لغة العدنانيّين بالحجاز ونجد وسائر شمال الجزيرة العربيّة.. وهي التي وصلتنا في الآثار الأدبية القديمة شعرها ونثرها بعد أن توحّدت توحّدا يكاد يكون كاملا وصارت بفضل الأسواق الشهيرة والمواسم التي كانت تجمع العرب عدّة مرات في السنة والتي كانت معرضا للإنتاج الفكريّ صارت ما ندعوه اليوم بـ «اللغة المثاليّة».



بهذه اللغة المثالية، وبخاصّة لغة قريش، نزل القرآن الكريم فوحّدها وأثراها ومكّن لها في البلاد العربيّة وخارجها وحفظها في مادتها اللغويّة وفي نظمها الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة.. بل وسّعها بالمحافظة على ما كان دخلها معرّبا، عبر القرون، من اللغات الأجنبيّة المجاورة أو القاصية التي كان للعرب صلة بأصحابها بوساطة الأسفار والتجارة، وأثراها بوسائل جديدة كالتوسّع في الدّلالة، والكناية، وأنواع التشبيه والاستعارة.

وجد العرب في القرآن نموذجا فذّا بهرهم بأسلوبه وأعجزهم ببيانه حتّى عدّوه في أوّل أمرهم سحرا بأتّم معنى الكلمة.. وكان الشعر عندهم من قبيل السحر.. ولما اعتنقوا الإسلام وأنسوا بأسلوب الذّكر الحكيم وبفصاحة الحديث النبويّ الشريف، لم يرضوا لهما بديلا.. فصار القرآن



يتلى آناء اللّيل وأطراف النهار، ورصّعت به الخطب، وتمثّلوه فرسخ في ذاكراتهم وجرى على ألسنتهم وأقلامهم وهذّبوا لغتهم بعد أن كانت جافية.

حفظ العرب القرآن فحفظ لغتهم بعد أن أثراها كما قلنا وهذّبها وجعلها مرنة.. وصارت الفصحى اللغة الرسميّة في المساجد والإدارة والميادين الثقافية.. وهب العلماء لجمع اللغة العربيّة من أفواه الفصحاء من الأعراب العارفين خبايا لسانهم المدركين مسالك مجاهيله.. وبدأ تدوين اللغة في شتّى المجالات ولا سيّما ما يساعد على فهم القرآن فهما صحيحا مبنيّا على أسرار اللّسان الذي نزل به.



وكانت الفتوح منذ عهد أبي بكر الصدّيق وبخاصّة عمر وعثمان ومن جاء بعدهما تنشر الإسلام شرقا وغربا فنتج عن ذلك دخول الأعاجم في الإسلام، واستعمالهم للغة العربيّة وتكاثر المولّدين الأحرار والغلمان والجواري في القصور وغير القصور وتفشّي اللّحن تفشّيا فادحا لا سيّما في الحواضر حيث قويت لغة المولّدين وشالت كفة الفصحى.. وكان العرب حريصين على سلامة لغتهم.. فظهر مبدأ الدّفاع عنها بالتّأليف في ما يضمن لغير الناطقين بها استعمالَها بغير تحريف في أصواتها وقواعدها الصرفيّة والنحويّة وفي دلالات ألفاظها وتراكيبها.. وبدأ التأليف في اللغة والنحو وبرزت إلى الوجود معاجم اللغة خاصّة مختصرة في أوّل أمرها وعامّة مطوّلة بعد قرون من ذلك.. واستمرّت حركة التأليف والإبداع نشِطةً مثمرة تتّسع مجالاتها من عصر إلى آخر، وتستمدّ من الحضارات القديمة وتتمثّلها أحسن تمثل فتؤسّس حضارة جديدة هي أساس الحضارة المعاصرة.. وما كاد ينتصف القرن الرّابع الهجريّ أو ينتهي حتّى تقلّص ظل الفصحى تقلّصا شديدا، حتّى في البوادي، وبَعُدت الشقة بين اللّغة المكتوبة واللغة المنطوقة، واختصّت العامّيّة أو العامّيّات بالشارع والمنزل اختصاصا كاملا تاركة للفصحى مجال



الرسميات والتدريس والتأليف في مختلف ميادين المعرفة.. وممّا ساعد على ذلك أو كان السبب الرّئيس فيه انحلال الدولة العربيّة وانقسامها إلى دويلات في المشرق والمغرب.. فنشأت لهجات محلّية مختلفة باختلاف وضعها الجغرافيّ والتاريخيّ ولغتيها الأصليّة والمجاورة لها وتعاقب الحضارات القديمة عليها ومدى تأثيرها فيها.

طاف الرحّالة الشهير أبو عبد الله المقدسّي (نسبة إلى بيت المقدس) البشاريّ (ت.. 375 هـ) طاف بالبلاد الإسلاميّة فوصف أحوالها ولهجاتها وما تتميّز به، ولاحظ أنّ الفرس خير من يتكلّم العربيّة آنذاك.. ومعنى ذلك في نظرنا أنّ الفرس عادوا إلى لغتهم الأصلية فإن استعملوا العربيّة استعملوا الفصحى أو ماهو أقرب إليها.. كما لاحظ أن لهجات المغرب لا تكاد تفهم.. وذلك طبيعيّ لأنّ المغرب لم تشمل العربيّة ربوعه إلاّ بنزوح الهلاليّين إليه.. بيد أن لغة الهلاليّين وسليم كانت في القرن الرابع إلى العامّيّة أقرب منها إلى الفصحى.. وقد أورد منها ابن خلدون في مقدّمته نصّا شعريّا لا يكاد يفهم لبعده عن العربيّة.. ولمّا استولى السلاجقة على الحكم جعلوا اللّغة الفارسيّة لغة رسميّة بل لغة الأدب والشعر والعلم.. وألّف بها الكثير من العلماء حتى أبو حامد الغزالي نفسه (ت.. 505 هـ) و الوزير نظام الملك الطوسيّ (ت.. 458).. ألف الغزالي « نصيحة الملوك » في الردّ على الإسماعيليّة النزاريّة، وترجم على العربيّة بعنوان « التبر المسبوك » وصنّف نظام الملك « سيرة الملوك » (هدية العارفين: 5 / 277).. وضعفت الملكة العربيّة عند الخاصّة والعامّة في أرجاء العالم الإسلاميّ كلّه فاستغلقت النصوص القديمة على المتعلّمين.. وذلك ما جعل أمثال التبريزيّ والمرزوقيّ والعكبريّ (عبد الله بن الحسين) وغيرهم كثير، يبذلون الجهود المضنية في شرح العديد من الدواوين والمصنّفات





العلميّة الشهيرة.. وتوالت المحن على البلاد كالأوبئة والاضطرابات المتواصلة والانحلال الناتج عنها والحروب الصليبيّة إلى أن اكتسح السيل المغوليّ الخلافة العبّاسيّة سنة 656 هـ فكانت القاضية.. خُرّبت بغداد وحضارتها والمكتبات الزاخرة ومحتوياتها وأحرقت الكتب أينما وجدت وهلك خلق كثير لا سيّما العنصر العربيّ ولم يبق في الإمبراطوريّة الإسلامية الواسعة دولة عربيّة واحدة تستحقّ الذكر.. وإنمّا انحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب.. لكنّ اللغة العربيّة الفصحى صمدت لكلّ هذه النكبات والمحن وبخاصّة في مصر والشام لأنّها كانت لغة الدين والثقافة وبفضل من بقي بسوريا من أمراء الأيّوبيّين كصاحب حَماةَ الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل الأيوبيّ العالم المؤرخ المعروف بأبي الفداء (ت.. 732هـ) بل نبغ فيها الشعراء والأدباء والعلماء والمؤلّفون في كلّ فنّ.. حتّى المغول الذين هدموا الحضارة العربيّة الإسلامية لم يستطيعوا النيل من الفصحى وكانت آثارهم العلميّة بها.. وكان من شأن هذا الوضع أن ينعش العامّيّات ويوهن الإبداع الفنّيّ وروح المبادرة العلميّة الخلاّقة ويجعل العلماء عالة على القدماء يجترّون ما لقنوا ويغلقون باب الاجتهاد في الوقت الذي فتحه الغربيّون لأول مرّة، مستغلّين غفلتنا وما أخذوا من علمنا وحضارتنا.. فضعف في العرب، أو ما بقي منهم ملكة العربيّة التي كانوا يفخرون بها، ولجأوا إلى الصنعة يسترون بها عوراتهم فعمّ السجع نثرهم وغلبت عليه المحسّنات البديعيّة واقترب أحيانا من التعبير العامّيّ.. وبقي الإنتاج الفنيّ والفكريّ كذلك إلى عصر النهضة الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر الميلاديّ.

في مُنسَلَخ القرن السابع الهجريّ ظهر العثمانيّون بآسيا الصغرى وأجلوا عنها السلاحقة وفتحوا القسطنطينيّة وبعض البلاد الأوروبيّة وافتكّوا سورية

ومصر من أيدي المماليك الشراكسة وخلعوا المتوكّل على الله فكان بذلك أخرَ الخلفاء العبّاسيّين.. واحتلّوا العراق والحجاز واليمن وتونس والجزائر.. وجعلوا التركيّة اللغة الرسميّة بعد اعتمادهم في أوّل أمرهم على العربيّة وعلى العلم العربيّ.. فانحطّت الفصحى على عهدهم انحطاطا لم يسبق له مثيل وخيّم الركود على العقول العربيّة وانتشرت الأمّيّة انتشارا مشؤوما وخلا الجوّ للعاميّات فصالت صولتَها.. ولما خرج المسلمون من الأندلس بعد ثمانية قرون من احتلالها وبعد انحلال سياسيّ اجتماعيّ شامل نزحوا إلى المغرب الإسلامي بلغة دارجة تكثر فيها الكلمات والصيَغ الأعجميّة وعنهم أخدنا هذه اللغة الهجينة التي تمثّلها أزجال ابن قزمان وأضْرابِه.. وجاء الاستعمار الغربيّ فزاد في الطين بِلّة ولم يَنْزَح إلاّ أن ترك آثار عميقة عُزيَتْ إلى الحضارة والتّمُّدن.. والحقيقة أنّنا المسؤولون عن كل ما أصابنا.. فقد نْمِنا سبعة قرون.



ما سبق بيّن لنا، بما لا يتطرّق إليه الشكّ، أنّ اللغة العربيّة تطوّرت في اتجاهين:

- تطوّرت في كنَف القرآن والشريعة الإسلاميّة فحافظت على سماتها البارزة في المجالات الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والتركيبيّة وواكبت العصور التي مرّت بها بكلّ ما أوتِيَتْ من ثراء وعبقريّة، واستوعبت حضارات الأقدمين وثقافاتهم وجزءا صالحا من المعارف المعاصرة.. وهي الآن خير صلة بين الأقطار العربيّة وبينها وبين العالم.. وحافظت، في مجملها، على معياريّتها الأساس لكنّها تطوّرت تطوّرا واسعا على مرّ العصور فتخلّصت من مادّتها اللغوية التي لم تعد صالحة للعصر وحافظت، قليلا أو كثيرا، على ما أمدّتها به الحضارة العربيّة الإسلاميّة في أوْج عزّها وعلى ما اقتبست من الحضارة المعاصرة التي تتوق إلى استيعابها في أوسع أبعادها

مع المحافظة على عبقريّتها وأصالتها.

- وتطورت تطوّرا طبيعيّا حُرّا فقدت فيه الكثير من مميّزاتها وتعدّدت لهجاتها وكادت تكون لغات متباعدة تباعدَ الفرنسيّة عن الإسبانيّة والايطاليّة وأصلها واحد.. لكنها احتفظت بمادّتها اللّغوية بنسبة جدّ عالية تتراوح بين الثمانين والتسعين في المائة.. وقد تكون المادّة عربيّة أصابها من التحريف ما يحجُب عن الباحث أصلها الحقيقيّ.. وسنعود إلى هذه القضيّة ببعض الأمثلة.

فقدت الإعراب كغيرها من لغات العالم إلاّ فيما ندر.. وقيل إنّها استغنت عنه منذ زمن بعيد.. وبذلك اختلفت بعض تراكيبها عن تراكيب الفصحى في مواضع معيّنة دَرْءًا للّبس ولا أريد أن أتجاوز العامّيّة الجزائريّة العربيّة، وفي محيط ضيّق، لأسباب كثيرة.. منها:



- جهلي بغيرها واتساع رقعة اللهجات في البلاد العربيّة وكثرة الاختلافات فيها على جميع الأصعدة.. وقد عدت إلى بعض الدراسات وبعض المعاجم العلميّة وغير العلميّة وقارنت بين الأسماء الدّالّة على شيء واحد فهالني الأمر.. وجدت في بعض الأحيان أكثر من خمسة وعشرين اسما للشيء الواحد.

– كثرة اللّهجات في اللغة الدارجة الجزائريّة، وعلى جميع الأصعدة أيضا.. يكفينا في ذلك أن نستمع إلى أحاديث النساء والصبيان لأنّهم أكثر حفاظا على اللغة المحلّية وطريقة الأداء بها، نستمع إليها في مختلف المدن والأرياف، من وجدة إلى القالة ومن عين صالح إلى جيجل نجد أنفسنا عاجزين عن وصفها وعن الإحاطة بها.. وقديما قيل: «لا يحيط باللغة إلا نبيّ».. وندرك، بإنعام النظر، أنّ اللهجات الجزائرية موجودة كلّها في اللهجات العربيّة القديمة، وأن ما نظنّه غير عربيّ معظمه



عريق في الفصحى.. إنمّا دخله تغيير ظاهر أو خفيّ لا يدركه السامع إلاّ بإعمال الفكر والرّجوع المستمرّ إلى المعاجم العربيّة وغير العربية وإلى الدّراسات المتخصّصة وقد تتغيّر دلالة اللّفظ الفصيح بالتوسّع والمجاز والكناية والتهكم وغير ذلك من أساليب البلاغة.. تتغيّر ضرورة لأداء معنى جديد يتطلّبه العصر أو الحاجة أو للجهل بأصلها في اللغة الفصيحة.

وقد كنّا قمنا، في نطاق مشروع بحث جامعيّ ثلاثي الأعضاء بدراسة لهجة أو لهجات الهضاب العليا أرجعنا فيها إلى الفصحى ما يظهر غير عربيّ أو ما يجهل أصله فاكتشفنا ما لم نكن ننتظر من النتائج واستغرقت الدّراسة حوالي 400 صفحة.. ولم نعتمد في ذلك إلاّ على ما نعرف من اللغة ولو مسحنا النّاحية مسحا ميدانيّا حقيقيّا شاملا لكان العمل أوفى وأدق.. وأردفنا البحث الأول ببحث ثان مطبوع تناولنا فيه أبرز لهجات الزيبان (ولاية بسكرة).. ولعلّ الدّكتور محمّد خان العضو الأساس فيه يعطيكم نبذة وجيزة عنه.

وزال منها تحقيق الهمز كما زال في قراءة وَرْشٍ فلا تجد كلمة مهموزة إلاّ فيما ندر وتصرّفوا في اجتناب الهمز بطرائق عديدة بالتخفيف مثل «لا باس عليهْ، والمومنين» في «لا بأس عليه، والمؤمنين» أو بإبدالها واوا أو ياء مثل «وَذْنِيه، والتايبين، والخايفين» في «أذنيه والتائبين والخائفين» أو بتغيير الصيغة «ماكل أو كالي، ماجي أو جاي» في آكل وجاء بمعنى آت « أو بالنطق بها بَين بين أو بوسائل أخرى.

ولم يبق في الدارجة تثنية إلاّ نادرا وفي البوادي: «شريتْ نعجتين».. أمّا في أعضاء الجسم فالمثنيّ صوريّ «ستّ يدين، عشر عينين الرجلين ...»

ولا يوجد المبنيّ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه إلا في النزر القليل وفي البوادي



« سرُقْتْ غْلْبْتْ خْدُعْتْ ... » مع إشمام الحرف الأول ضمّة.. وقد يؤمر بالمبنيّ للمجهول خلافا لقواعد الفصحى.. تقول للماهر في لعب من الألعاب لم يقهره أحد « اغْلُبْ ولو كان مرّة !».

أما التأنيث في ضمائر الجمع المتّصلة والمنفصلة فقد زال ومنه ماهو في طريق الزوال في بعض النواحي (في بوادي ولاية سوف مثلا مازالوا يستعملون نون النسوة يقولون: ادخلنْ، اخرجنْ، اكتبنْ).

ولم يبق من الذي وما إليه من الموصولات إلا اللّي وذلك منذ أكثر من أحد عشر قرنا أو يزيد.

أما الميزان الصرفيّ فقد ضاق مجاله بالنسبة إلى الفصحى وغلب فيه الفتح على الضمّ والكسر لا سيّما فيما يدعى بالصحيح.. تقول يَجْلَسْ ويَعْرَفْ وجَالَسْ وعارَفْ عِوَضَ يجلِس ويعرِف وجالِس وعارِف، وغير ذلك كثير معروف وقد نصّ القدماء على أنّ الفتحة أخف الحركات.



وممّا يبعد العامّيّات الجزائريّة عن أصلها العربيّ مطل الحركات أو عدمه في غير محلّهما والقلب المكانيّ وكثرة الإبدال في بعض الحروف والتّضعيف حيث لا تضعيف والزيادة والنّقص في الكلمة والجملة وغير ذلك ممّا يبعد لغة التخاطب العاديّة عن أصلها الفصيح وممّا لا يمكن تفصيله في مثل هذا المقام.

أمّا على المستوى الصوتيّ وبالأخص ما تعلّق ببعض الحروف فقد لاحظ ابن خلدون في مقدّمته (1075 – 1080 الط.. الثالثة، بيروت، 1967) أن النطق بالقاف قافا كما ينطق بها في الحواضر أو غينا (مناطق السهوب الجزائرية والسودان وما إليها) أو شبيها بالنطق بها في بوادي الهضاب العليا واليمن وكثير من البلاد العربيّة أو كافا (جيجل) أو كأنّها كاف كلّ ذلك عربيّ مضريّ لم نزد على أن قلّدنا القدماء فيه.. وفي



اللّهجات الجزائرية بقايا من اللغات الأجنبيّة التي عرفها المغرب بالدلالة الواسعة للّفظ، شأنها في ذلك شأن لغات العالم كلّها تمد وتستمدّ وهذا لا صلة له بموضوعنا إنما يهمنا ترقية لغتنا وتنقيتها ممّا يشينها وتقريبها من أصلها ومن غيرها من اللهجات العربيّة المعاصرة.

إن الشعب الجزائريّ طبقات: حاضر لغته فقيرة، مزيج من لغات كثيرة وقد لاحظ ذلك ابن خلدون في كلّ الحواضر التي عرفها والقدماء ومازلنا نلاحظها اليوم، وبادٍ لغته أخصب وأنقى.. وفي هذه الطبقات أيضا: أمّيّ ومثقف.. والمثقفون أنواع: منهم من لا يعرف معرفة حقيقيّة إلاّ لغة واحدة: العربيّة أو الفرنسيّة ـ في الوقت الراهن ـ لقرب عهدنا بالاستعمار الفرنسيّ ولأنّ بعض الموادّ مازالت تدرّس في الجامعة بالفرنسية.. ومنهم مزدوجو اللغة أو متعدّدوها.. وقد حدث بعد ثورة التحرير وبعد فترة قصيرة من الاستقلال انقلاب بدأ يعطي أولى ثماره بتعميم التعليم وبتعريبه في معظم الموادّ الدراسيّة فلم يبق من الشباب والكهول إلاّ القليل ممّن لم يساعده الحظّ في التزوّد بمبادئ الفصحى.. وقد لاحظت كما لاحظ غيري تحسن مستوى الخطاب في المنزل والشارع والمؤسسات العلميّة والإدارية وغيرهما قلّما نجد اليوم في المنزل من لا يفهم نشرة الأخبار والموائد المستديرة لا سيّما ما تعلّق منها بالقضايا الكبرى التي تهمّه بالدرجة الأولى و الأحداث الجارية في العالم.. وقلّما نسمع في الشارع من يقول الكار، والكاميو، والطومابيل والبسيكلات.. وكانت تلك لغتنا الغالبة في طفولتنا وشبابنا إنما نسمع الولد والكهل الذي لم يختلف يوما واحدا إلى المدرسة يقول: الحافلة، والشاحنة، والسيّارة و الدّراجة.. ومن الواضح أنّ الخطاب اليوميّ في تحسن مستمرّ بفضل التعليم والوسائل السمعيّة البصريّة التي قرّبت البعيد ووصلت المنفصل وجعلت العالم على





سعته، قرية واحدة أو كالقرية الواحدة.. واللّغة تختلف من جيل إلى آخر باختلاف الظروف الثقافية والحضاريّة والاجتماعيّة والسياسيّة فتولد كلمات وتموت أخرى أو تتغيّر دلالتها، والأجيال تتعاقب بحكم سنّة الله في خلقه فلا تترك من لغتها إلاّ الأصلح للبقاء، ونعني به ما كان صالحا للبيئة الجديدة طبيعيّة كانت أم ثقافية.. والفرق بين لغتنا ولغة سلفنا الأقرب إلينا باد للعيان.. ما علينا إلاّ أنّ ننصت في الآونة الرّاهنة إلى رؤساء الأحزاب يدافعون عن برامجهم ويشرحونها، في كلّ أرجاء القطر ونقارنها بما كنّا نسمع في حقب غير بعيدة لنرى البَوْنَ الشاسع بين المستويين في خطاب الجماهير.. وقد عرفت في أواخر الستينيّات وأوائل السبعينيّات وزيرا درس الطبّ ودرّسه بالفرنسيّة ولم يعرف في صباه إلاّ الأمازيغيّة وكنت أسمعه يتحدّث عن شؤون وزارته بلسان عربيّ يستدعي الإعجاب وكان استعمال الفصحى أو لغة عاميّة راقية مفروضا آنذاك.. فبذل المسؤولون في الإدارة العامّة والخاصّة وفي الهيئات الدّستوريّة وغير الدستوريّة جهودا غالبا ما كللت بالنجاح أو قطعت شوطا بعيدا في هذا المضمار ولم تبق اللّغة الأجنبيّة مستعملة إلاّ في الاجتماعات الإداريّة البعيدة عن الأسماع والأنظار.

لكنّ هذه العزيمة أصابها فتور يكاد يكون شاملا فضعف مستوى الخطاب العامّ وصارت اللغة هجينة لا شرقيّة ولا غربيّة أو هي شرقيّة غربيّة (جزء من الجملة عربيّ وآخر فرنسيّ) أو غربيّة محضة.. وأكثر ما يكون ذلك في المدن الكبرى ومن الكلمات المأثورة: إذا رأيت خطابا لحمتُه عربيّة وسداه فرنسيّ فاعلم أنّ صاحبه جزائريّ ".. والأولى أن يقال " جزائريّ حضريّ « لأنّ سكّان البادية، لا سيّما أهل السهوب، لا يمزجون لغة بلغة لأنّ معظمهم لا يعرف إلا لسانا واحدا.. يوجد عبر العالم شعوب



يتكلّم أهلها عدّة لغات ولا ضير على المواطن أن يختار إحداها ليخاطب غيره في غير المجال الرسميّ المحميّ بالدستور.. أمّا أن يمزج لغته بلغة أجنبيّة في الجملة الواحدة لكسل فكريّ أو لعادة استفحلت فانقلبت فطرة أو لنقص في التّكوّن أو في اللغة أو في الأداء أو لتباه بلغة فرضت وجودها فذلك البلاء المبين لأن ما جهل بعضه لم يدرك كله ولأن العيب يبقى عيبا.. والحقيقة أنّ كلّ هذه الأسباب موجودة في مجتمعنا والغاية من ملتقانا أو نفكّر معا في الوسيلة أو الوسائل الأنجع لمكافحة هذا العيب المستشري في ربوعنا ولتكون لغتنا أصيلة، مشرّفة لنا، ممثّلة لهويّتنا.



فكرت كثيرا في القضيّة فلم أجد لها حلاّ سحريّا، ورأيت أنّ الحلّ الأنجع الدائم ما كان طبيعيّا يتوخّى منطق الأشياء والإرادة الصادقة والمثابرة وطول الوقت.. لا يكمن الحلّ في الانطلاق من اللّهجات العاميّة الراهنة التي نعجز عن حصرها بله التأثير فيها.. فهي نتيجة تطوّر العربيّة الحرّ وستظل تتطوّر بكلّ حرّية في مسالك لا يعلمها إلاّ الله، لأنها رهن الغيب.. واللّهجات كالكسور الاعتياديّة في الحساب لا يمكن جمعها إلاّ بتوحيد مخارجها، وكالكثير من العمليّات الجبريّة لا تكون ممكنة إلاّ باستخراج عاملها المشترك.. وبما أن العاميّات العربيّة منحدرة من الفصحى فالفصحى هي التي توحّد مخارجها وهي عاملها المشترك.. ولا يوجد مثقف جزائريّ يحسن العربيّة أو يجيدها لا يفهم قليلا أو كثيرا لهجة جزائريّة منحدرة من الفصحى.. لكنّ العكس غير صحيح فمن غير الممكن إذن أن ننطلق من الشتات.

رأينا أثر المدرسة الجزائريّة في رقيّ لغة الخطاب وفي زوال الكثير من الألفاظ الموروثة عن حقبة الاستعمار وذكرنا أمثلة من ذلك، وقلنا إنّ



جيل الاستقلال وهو اليوم في كهولته، تحسّن مستواه اللغوي فلا تعجزه، في أغلب الأحيان، اللغة التي تنشر بها الأخبار في الوسائل السمعيّة البصريّة.. وظهرت طائفة من المبدعين في فنّي المسرح والسينما ومن الكتاب والشعراء المرموقين الذين نُقلت آثارهم إلى كثير من لغات العالم.

ويجلس الجزائريّ، اليوم، صغيرا كان أم كبيرا، ليشاهد في التّلفاز مباراة في كرة القدم أو في غيرها فلا يسمع إلاّ لغة واحدة فصيحة بسيطة تعوّدها فارتاح إليها وتبنّاها يسمع ويرى: الهدف والهدّاف والمرمى وحارس المرمى والرّكنيّة والتّماسّ والمدافع والمهاجم والملاكم والضّربة القاضية وغير ذلك من الألفاظ التي لم يكن الجمهور المشاهد يسمعها أو يعرفها قبل الاستقلال.

لو طلبت من هذا الجيل المتخرّج من المدرسة الجزائريّة بعد تعريب مرحلتيها الأولى والثانية، لو طلبت منه أن يخاطبك بلغة عاميّة مهذّبة لا هي فصحى بأتّم معنى الكلمة ولا هي عامّيّة مبتذلة مخجلة للبّى رغبتك وكان عند حسن ظنّك إلاّ في الميادين التي لم يتمرّس بها **لا** في مؤسّسات التعليم ولا في الحياة العاديّة.. وكيف يستغني عمّا لم يسمعه إلاّ بالفرنسيّة أو بلغة أخرى، ممّا هو ممازج لحياته ولا يستطيع العيش إلاّ به؟

كيف يسمّي بغير الفرنسيّة أنواع الأسماك وما إليها ممّا اعتاد أكله مثل:

merlan , rouget , mérou , pageot , dorade , crevette)

(... وكيف يدعو الأدوات المنزليّة وغير المنزلية التي يباشرها كلّ يوم ولا يعرف لها لفظا عربيّا؟ وهذا يقودنا إلى التفكير في سياستنا التعليميّة ويبيّن لنا بكل وضوح أن المادة التعليمية لا توافق العصر وأنّ البيئة التي يتقلّب



فيها الولد والراشد تتحدّاه في كلّ ثانية فيستنجد بلغة غيره المفروضة عليه، المستعبدة له لأنّه لا يعرف غيرها في الميادين الحضاريّة المستحدثة.. والأمثلة على ذلك كثيرة، جدُّ كثيرة فلا داعي إلى ذكر نماذج منها.

ولا يعنى ذلك أنّ ألفاظ الحضارة غير موجودة في معاجمنا، فقد قامت المجامع العربيّة في المشرق والمغرب والمؤسسات العلميّة والباحثون الغُيُر على أوطانهم وهويّتهم قامت بدور كبير في هذا المجال.. فتعدّدت المعاجم العامّة والمتخصّصة، مزدوجة اللغة وثلاثيّتها.. لكنّها غالبا ما تبقى مكدّسة على الرفوف وقليلا ما ينتفع بها لأن الذين أُعدّت لهم شغلتهم عنها الشواغل أو لم يدركوا أهّميّتها.. ولو قُدّر جهد العلماء العاملين حق قدره لوفرت الوسائل لنشرها في المدارس وغير المدارس ولاجتنبنا الهجنة في خطابنا اليوميّ فلا نقولك «ركب لي لبياسه، وهات المانيفيل، وزيد لي لكريك، وأعط لي التورنفيس»، وهكذا دواليك: كلمة عربيّة وأخرى فرنسيّة، مع أنّ الألفاظ المذكورة يوجد لها مقابل في العربية أو وجدوا لها مقابلا مقترضا أو معرّبا بما يوافق معايير اللّغة وعبقريّتها أو موضوعا ابتداءً.

ولا أدّعي أنّ ما سمّي بألفاظ الحضارة يمكن حصره ونقله إلى العربيّة بوجه من الوجوه لأنه أوسع من أن يحصر ولأنّ كلّ يوم يأتينا بجديد وفي كل المجالات.. وهذا موضوع آخر نتركه للمتخصّص إنما يهمّنا ما يباشره العامّ والخاص يوميّا وما هو لصيق بالحياة المشتركة بين أفراد المجتمع.. يهمّنا أن تكون لغة التواصل الشفوية خالصة مّما يشينها، مؤدّية لوظيفتها، بسيطة، مستساغة.

ولا أزعم أنّ العربيّة الفصحى قادرة على أن تحلّ محلّ العاميّة فلكلّ مجاله ومستواه وخصائصه وما تؤدّيه اللّغة الدارجة من خلجات القلب، وما





لها من أثر في النفس ومن إيحاءات وهالات محيطة بألفاظها ومعانيها لا نجده في الفصحى.. والعكس صحيح.. لأن الفصحى لم تصلنا إلا مكتوبة واللغة أصوات كما يقول ابن جنّيّ.. وقصارى جهدنا في تأدية معانيها أن ننطلق من العاميّة التي نمارسها ليل نهار ونعرف الكثير من أسرارها فلا نكاد ننجح.. لا نزيد في الفصحى على مدّ ما يمدّ وقصر ما يقصر من الحروف.. وقد سألت أحد أصدقائي ذات يوم عن الجملة: «جاء محمد وعليّ وصالح وعمر».. قلت له: «أتفهم هذه الجملة»؟ فقال لي «وما يشكل عليك فيها»؟ فأدّيتها بطريقة ثانية فتبيّن له أن الدّلالة اختلفت.. ثم بطريقتين ثالثة ورابعة.. فتغيّر المعنى بطريقة الأداء.. ولمّا عدت إلى المنزل وفكّرت مليّا في السياقات التي يمكن أن تدخل فيها هذه الجملة البسيطة وما يلائم كلّ سياق من أداء فبلغت عشر دلالات أو يزيد.. والأمثلة على ذلك كثيرة في ميادين شتى من العامّيّة.. والعاميّة متأصّلة في المحيطين الطبيعيّ والثقافيّ متمكّنة من الشعب، تفرض نفسها عليه فرضا لأنها مرآة حياته ولأنّه لا يرى نفسه إلاّ في هذه المرآة.

هدفي الوحيد تنقية لغة الخطاب من الهجنة لئلاّ تكون «ثوبا ضمّ سبعين رقعة» كما قال حافظ إبراهيم.. فذلك يشينها ويزري بنا والوسيلة المثلى لتحسين لغة الخطاب تكمن في المدرسة ومحو الأمية وتحسين البرامج بجعلها ملائمة للحياة اليوميّة المعاصرة وجعل التلميذ لا يعجز عن تسمية أيّ شيء وأي أداة له بها أوثق الصلات.. كأثاث المنزل وأدواته وما يتّصل بها ممّا وفّرته له الحضارة في سكناه وفي الشارع ومؤسسات التعليم وفي البريد والمواصلات وما إلى ذلك ممّا لا يسمعه إلاّ بلغة أجنبيّة فيضطرّ إلى المزج بين اللغات في الجملة الواحدة.. لا نظلم أولادنا ! إنهّم يرجعون إلينا ما أعطيناهم.. ولا نظلم الراشدين فقد اضطرّوا إلى ركوب



الصعب بما لم يوفر لهم في برامج تعليمهم أو بعدم الرّعاية لحقوقهم إن لم يختلفوا قط إلى مؤسسة تعليميّة تربوية.

المدرسة هي الوسيلة الوحيدة للرّفع من مستويات الخطاب بوسائل بشريّة قادرة على أداء مهمّاتها وماديّة لا مناص من توفيرها لبلوغ الأهداف القريبة والبعيدة، وسياسة تعليمية رشيدة تتوخّى متطلّبات الواقع المعيش ومقتضيات الحضارة المعاصرة.. ومن أهمّ عناصر هذه السياسة:

- السّهر الدائب الجادّ على تطبيق القوانين الدستوريّة وعلى تحسين مستوى لغة الخطاب في كلّ المحافل وعلى جميع الأصعدة.

- تحسين البرامج المدرسية بما يوفّر للتلميذ نصوصا معاصرة تتناول شؤون حياته اليوميّة وتزوّده بلغة وظيفية تجنّبه المزج بين اللغات في الحياة العاديّة.



- تبسيط التعليم وقصره في المرحلتين الأوليين على ما يصلح لسانه ويهذّب لغته واجتناب ما يرهقه من القواعد التي لا داعي إليها.

- تنمية روح المطالعة وتعميمها بتوفير المكتبات في البلدان والقرى وأقسام الدراسة وبتشجيع حركة الترجمة من الآداب العالميّة لتزويد الطفل والمراهق بما يكفل له مادّة غزيرة من النصوص، فإنّ أدب الطفل، مهما قيل، ضحل في الأقطار العربيّة.

- تعويد التلاميذ على حفظ النصوص وفهمها واستغلالها في التحرير والتعبير فهي خير ما يقوّم لسانه وما يجعل لغته تجمع بين الأصالة والحداثة.

- تعليم اللّغات تعليما حقيقيّا يفتح للمواطن آفاقا واسعة ويجعل منه خير صلة بين ثقافة أهله وثقافة البشريّة وخير مشارك في بناء حضارة عصره.

- استغلال الوسائل السمعيّة البصرية استغلالا عقلانّيا وتحسين مستواها بما يعود بالنفع العميم على كلّ مواطن.



- السعي الحثيث على محو الأمّيّة.. فالأمّية أصل ما نعانيه والعائق الأكبر في سبيل ما نصبو إليه.

وصفوه القول أنّ الفصحى هي الوسيلة الوحيدة للرّقيّ بمستوى لغة الخطاب بشرط أن تكون وظيفيّة لصيقة بالحياة اليوميّة، ملبّية لمتطلّبات العصر، وأن تؤسّس في تعليمها على قواعد علميّة تجعلها سهلة المنال.. وهي خير صلة بين الناطقين بها وبينها وبين العامّيّات العربيّة مهما كانت وأنّى كانت، بشرط أن تكون مبسّطة مشتركة خفيفة على المتكلّم والسامع.. لكنّ تحقيق هذه الغاية وعر المسالك بعيد المرامي يتطلّب تضافر الجهود والعزيمة الصادقة بل لن تتحقّق هذه الغاية إلاّ شيئا فشيئا وبعد أجيال.. وما علينا إلا أن نغرس فيأكلوا؟







اللغة العربيّة بالجزائر
في عهد الاستعمار

أشرُف كلّ الشرف بأن أكون بينكم أيّها السادة الأفاضل في موقف حرجٍ وأن أشارك في الحديث عن موضوع في حضرة من ساهم في تصوّره وإنجاحه مساهمة فعّالة يوم كان على صلة حميمة وطيدة بأهل الحلّ والعقد وهو باق من قريب أو بعيد على هذه الصلة وعلى الاهتمام بقضايا بلادنا مهما تنوّعت.

والحديث عن وضع اللغة العربيّة في بلادنا وفي الفترة التي حدّدتها ليس سهلا لأنّه ذو شجون ولأن قضاياه متشعّبة متكاملة في آن واحد.. وقد لاحظت ذلك في المحاور التي اقتُرِح علينا التّفكير فيها.. ثمّ إنّني لا أملك الوثائق التاريخيّة التي تمكّنني من معالجة مثل هذه المواضيع مرتاح البال واثقا ممّا أقول.

لذلك أجدني مضطرّا إلى الاعتماد على مطالعاتي القديمة المتواضعة وإلى الإصدار عن تجاربي في فترات متلاحقة لصيقة بما عاينت وبما استنتجت منذ صباي.. وأرجو أن أكون مصيبا فيما شاهدت وفيما استخلصت.

جاء الاحتلال الفرنسيّ وجاء معه الخراب والدّمار.. وقوبل بمقاومة شرسة أبلى فيها الأمير عبد القادر خير بلاء وتبعتها من حين إلى آخر ثورات أخمدت بالحديد والنار.. وكان آخرها ثورة المقراني (1871 – 1872.. أعقب ذلك فترة سمّاها الفرنسيّون فترة «الاستعمار الحرّ».. وقد تمثّلت هذه «الحرّيّة»، قبل تلك الثورة وبعدها:




– في الزيادة من عدد المستعمرين الوافدين بصفة خاصّة من الألزا س واللورين ومن إسبانيا وإيطاليا ومالطة.. وأغلب الظنّ أنّ ذلك هو الذي رسّخ في ذهن شعبنا أن كون الإنسان من هذه البلدان عار ما بعده عار.. وأذكر أنّني كنت أسمع، في صباي، أحدهم يسبّ الآخر بقوله له: «يا وجه المالطي!».. وكان الأجانب، في سنة 1847، يكوّنون 50 % من مجموع المستعمرين.

– وفي التكالب على المداشر والقرى بالحرق والتدمير وانتزاع مليونين وخمسمائة ألف هكتار من الأراضي الخصبة من أصحابها قبل ثورة المقراني وبعدها، وتهجير السكّان إلى أراض نائية وإتلاف المحاصيل الزراعيّة وقطع مئات الآلاف من أشجار الزيتون.



– وفي عدّ الجزائر أرضا فرنسيّة إلى أبد الآبدين، والوافدين إليها من وراء البحر، واليهودِ فرنسيّين كاملي الحقوق، يستعبدون من شاءوا وكيف شاءوا.. أمّا أهلها القاطنون بها منذ عهود سحيقة لا يعلمها إلاّ الله فيبقون «أهالي» (Indigènes) لا ينازعهم في ذلك منازع ولا يطمحون إلى الحرّيّة كما يفهمها الغرب، ولا إلى المساواة بالفاتحين الذين يفوقونهم في كلّ ميادين الثقافة والحضارة والقوّة.

– وفي حرمان هؤلاء «الأهالي» من وسائل المعرفة الحقيقيّة التي هي حكر على المحتلّ.. فالظلاميّة ((obscurantisme أولى بهم وأجدى له.. ونجحت هذه السياسة المحكمة.. فالإحصاءات الرّسميّة، إن كانت صادقة، تسجّل أنّ عدد الجزائريّين الذين كانوا يزاولون التعلّم بالمدارس الفرنسيّة في سنة 1929 لم يكن يتجاوز 6 %.

ما سبق لا يعني أنّ المحتلّ لم يكن مهتمّا بالتّعليم لأنّ أبناء المستعمرين كانوا محتاجين إلى ذلك فكانت تشاد لهم المؤسّسات وفقا لعددهم



ولظروفهم، وتدلّ أسماؤها ضمنيّا على أنّها مخصّصة لهم ؛ فثانويّة القيرواني بسطيف، مثلا، كانت تدعى « Collège colonial » قبل أن ينقل اسمها في الأربعينيّات إلى « Lycée Albertini ».. كما أنّ حكّام البلاد الجدُدُ كانوا مضطرّين إلى معرفة اللغة اليوميّة التي يستعملها الشعب الجزائريّ ليسهل عليهم، في أوّل الأمر، الاتّصال به في ميادين التسيير العسكريّ والمدنيّ أيّا كانت أفراده ومجموعاته وأينما كانت.. وكان الحكم في أوائله عسكريّا تطغى عليه الجوانب العسكريّة بل كانت الجزائر كلّها، شمالها وجنوبها، وبشتّى مجالات حياتها خاضعة لوزارة الحرب بباريس.

اِتّخذ رؤساء الجيش الفرنسيّ وغيرهم من الحكّام تراجمة جلبوهم من الوافدين إلى فرنسا من مصر في عهد حملة نابوليون الأوّل، ممّن زاولوا دروسهم في مدرسة اللغات الشرقيّة، ودرّسوا بمعاهد بباريس، كما خرّجوا تراجمة آخرين يفون بما يحتاجون إليه في إدارة المستعمرة الجديدة.

وسرعان ما لاحظ الفرنسيّون أنّ لغة الجزائر العاصمة آنذاك لغة هجينة: تتزاحم فيها اللغات المحلّية الأصيلة والدخيلة من البرتغاليّة والإيطاليّة والتركيّة وغيرها ممّا فرض نفسه بالاحتلال أو بالمعاملات التجاريّة.. فوسّعوا دائرة اللغة الدارجة لتشمل معظم اللهجات ووضعوا كتبا مبسّطة لتعليم نحوها ومفرداتها وجملها الأكثر تداولا وطبعوا نصوصا تسهّل التواصل بينهم وبين المسلمين.. ومن أبرز المتصرّفين المدنيّين الذين بذلوا جهودا ملحوظة في تنظيم المصالح المختلفة واهتمّوا بصفة خاصّة بالتعليم العامّ De Bussy.. استورد أجهزة طباعة فرنسيّة —عربيّة لطبع المنشورات الرّسميّة.. وأنشأ جريدة « المرشد الجزائريّ » Le Moniteur Algérien وهدفها إيصال التعليمات الإداريّة إلى

الأهالي، ومكتبة عموميّة جمع فيها المخطوطات العربيّة التي عُثِرَ عليها في مختلف الأنحاء أو التي كانت تابعة للأوقاف في المؤسّسات الدينيّة.. ونُصِّب مفتّش عامّ كُلّف بوضع برنامج خاصّ بتعليم اليهودِ الفرنسيّةَ والأوروبيّين اللغة العامّيّة.. وأريد لهذه العامّيّة أن تسهّل العلاقات بالأهالي.

غادر De Bussy الجزائر فخلفه J.. Delaporte وتابع سياسته في تشجيع الأوروبيّين على تعلّم اللغة الدّارجة وفي وضع الكتب لهم.. فظهرت مؤلّفات بسيطة تحمل عناوين دالّة مثل:

- «مبادئ في اللغة العربيّة المستعملة في الجزئر» (Principe de l ' arabe en usage à Alger).
- «معجم للمفردات البربريّة» (Vocabulaire de berbère).
- «دليل في المحادثة: فرنسيّ - عربيّ» (Guide de la conversation: français - arabe).

والكتب الثلاثة من تأليف Delaporte الابن.. وأمثال هذه المؤلّفات الهادفة كثيرة تتابع نشرها لاسيّما في القرن التّاسع عشر والرّبع الأوّل من القرن العشرين.

وبطلب من الإدارة أوفد المستشرق Sylvestre De Sacy إلى الجزائر تلميذه بمدرسة اللغات الشرقيّة Bresnier فشغل منصب «أستاذ اللغة الدارجة» ومديرا لمدرسة أنشئت سنة 1936.. بقي في منصبه ثلاثا وثلاثين سنة إلى أن وافته المنية (1869) وكوّن عددا من الطلبة ومترجمين للجيش الفرنسيّ.. وأشرف على وضع برامج لهذا التعليم وطرائق امتحانات التخرّج فيه وفي فنّ الترجمة.. وترجم كتاب الأجرّوميّة في قواعد اللغة العربيّة لمحمّد بن داود الصنهاجي.. وكان عمدة عند الجزائريّين في

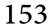


تعليم النحويّ.. كما نقل A.. Perron إلى الفرنسيّة مختصر خليل بن إسحاق في الفقه المالكيّ، وطبعته الوزارة الحربيّة في سبعة أجزاء (متنا وترجمة) لأخذ الجزائريّين به في أحكامهم.

وكان الحاكم العامّ أصدر سنة 1838مرسوما يفرض على جميع الموظفين الفرنسيّين تعلّم اللغة العربيّة.. ونحا نحوه الماريشال Bugeaud فأصدر أمرا يلزمهم بذلك (1847).. لكنّ هذا الأمر بقي حبرا على ورق.. وحاولت السّلطات التغلّب على هذا العزوف وعدم المبالاة، بتخصيص جوائز مشجِّعة ومنح سنويّة للّذين يحضرون الدروس وينجحون في امتحانات أو مسابقات معيّنة.. وقد استمرّت هذه السياسة إلى أواخر الخمسينيّات من القرن العشرين وتمثّلت فيما دعوه «المدرسة التطبيقيّة للدراسات العربيّة» يتابع دروسها من يشاء من الموظفين الفرنسيّين والجزائريّين الذين لم يسبق لهم أن درسوا العربيّة.

وجاءت ثورة 1848 التي دُعِيَتْ «ربيع الشعوب» فكان من نتائجها أن تولّى المدنيّون الحكم بالجزائر وأصبحت المدارس الفرنسيّة اليهوديّة تسيّرها وزارة التعليم العمومي بباريس.. أمّا المدارس الخاصّة بالجزائريّين فبقيت تحت النفوذ العسكريّ.. وفي السابع من سبتمبر ومن السنة نفسها (1848) أنشِئت آكاديميّة الجزائر.

وفي مرحلة ثانية قرّرت السّلطات الفرنسيّة فتح مدارس ابتدائيّة للجزائريّين سمّوها «مدارس أهليّة» (écoles indigènes) يُحَضَّرُ فيها لشهادة تدعى «الشهادة الابتدائيّة الخاصّة بالأهالي» (certificat d'études à titre indigène).. ولم تُلْغَ تلك الشهادة إلاّ في أواخر الحرب العالميّة الثانية: في سنة 1944 بالضبط.. ولم تُدْرَج العربيّة الفصحى في موادّها إلاّ سنة 1943 بمعدّل ساعة في الأسبوع.. أمّا





الإعداديّات الخاصّة بالجزائريّين فلم تكن تتجاوز الواحدة، على الأقلّ في الشرق الجزائريّ.. وكانت تدعى « L ' école Jules Ferry » وكان مقرّها بقسنطينة.. ولم تدرّس فيها العربيّة إلاّ بأُخَرَةٍ.. أمّا وسط القطر وغربه فلا أعرف وضعهما الحقيقيّ.

أمّا المعلّمون بالمدارس الأهليّة فكانوا فرنسيّين يساعدهم في ذلك جزائريون لم يكن لهم الحقّ في التوظيف بل كانوا إلى أواخر الحرب العالميّة الثانية يدعون « مساعدين أهليّين » ويعاملون وفقا لذلك.

في سنة 1859 أسّست للفرنسيّين مدرستا الطبّ والهندسة وأعقبهما بعد عشرين سنة (1879) مدارس الحقوق والعلوم والآداب.. وهذه المدارس الخمس هي التي كانت النواة الأولى للجامعة الجزائريّة التي أنشئت رسميّا سنة 1909 وأجرِيَتْ عليها القوانين الفرنسيّة كغيرها من الجامعات فكان التعليم فيها بالفرنسيّة مهما كانت المادّة.. وكان الطالب المنتظم فيها لتحضير الإجازة (licence) في الأدب العربيّ والذي لم يسبق له أن درس العربيّة دراسة وافية، يتخرّج منها أفقرَ ما يكون إليها.. وكان الطلبة الجزائريّون، في هذه الجامعة، وفي جميع فروعها العلميّة، **لا** يتجاوزون المائتين من مجموع خمسة آلاف طالب.



وأسّست السلطات الاستعماريّة بالجزائر العاصمة وبتلمسان وقسنطينة ثلاث « مدارس رسميّة » موزّعة على ثلاثة فروع: التعليم العربيّ، والقضاء في المحاكم الأهليّة، والإدارة في « البلديّات الممتزجة » وفي غيرها ممّا يحتاج فيه إلى لغتين.. ولم يكن يتجاوز عدد الطلبة في المدارس الثلاث المائة.. وكانت تدرّس بها موادّ بالعربيّة كالأدب والبلاغة والعروض والقواعد والفقه والأصول وأخرى بالفرنسيّة كالأدب الفرنسيّ والفلسفة الغربيّة والرّياضيّات والعلوم



التجريبيّة والطبيعيّة والتاريخ والجغرافيا ومبادئ الحقوق.. أمّا أساتذتها فأجانبُ جامعيّون في معظمهم، وجزائريّون من خرّيجي هذه المدارس نفسها.

ثمّ عدل عن هذا النظام إلى نظام جديد خفّفت فيه الموادّ العربيّة ودُعِّمت الفرنسيّة والعلوم.. وتمكّن التلاميذ في هذا النظام من إحراز شهادة الباكالوريا قبل انتهائهم من التخرّج من هذه المدارس.. وكان معظم تلاميذه يختارون الطّبّ والحقوق وما إليهما ويعزفون عن التعليم.. غير أنّ هذا النظام لم يكن إلاّ مؤقّتا.. كان سبيلا محكَما إلى إلغاء « المدارس الرّسميّة » وتعويضها تدريجيّا بعد عشر سنوات بما دعوه ب « الثانويّات الفرنسيّة العربيّة ».. وشاء الله أن يدرك الاستقلال هذا النوع من الثانويّات فيدخلها في النظام الذي أراده للتعليم العامّ في مجمله.. والحقيقة أن السلطات الاستعماريّة أرادت بذلك محو التعليم العربيّ بإيهام النّاس أنّها ترمي إلى جعله يواكب الحضارة وتخليص المدارس من ألفية ابن مالك والعاصميّة والأصول والتشريع وكلّ ما يتبرّم به الطالب ولا يلائم العصر.



وكانت العربيّة تدرّس بالثانويّات الفرنسيّة لغةً أجنبيّة كالإنجليزيّة والألمانيّة والرّوسيّة.. لكنّ القائمين على التعليم عرفوا كيف يغلقون على التلميذ الجزائريّ أبواب الثقافات العالميّة ويحرمونه من تعلّم اللغات الحيّة.. جعلوا اللغة العربيّة لغتين: فصحى وعامّيّة ؛ وكلاهما يعادل اللغات الغربيّة.. ومن الطبيعيّ أن يختار التلميذ الجزائريّ الدّارجة لأنّه **لا** يحتاج إلى تعلّمها ولأنّ غايته القصوى النّجاح في شهادة الباكالوريا.. أمّا الفصحى فكان معظم التلاميذ الجزائريّين يختارونها لغةً أولى.. وبتلك السياسة « الرشيدة » أبعدوا عن تعلّم اللغات الحيّة وسُجِنوا في أضيق السجون وأظلمها.



وكان من سمحت له الظروف من الجزائريّين، يزاول تعلّمه العربيّ بالزوايا المنتشرة داخل القطر وفي المدارس التي أنشأتها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين أو أسّستها جمعيّات خاصّة أو بالخارج بالمغرب الأقصى وتونس ومصر والمدينة المنوّرة وغيرها، إلاّ أنّ الطّابع الدينيّ كان غالبا على هذا النوع من التعليم.

وفي الخمسينيّات هاجر بعض الطّلبة الجزائريّين ممّن زاولوا تعليمهم بمعهد ابن باديس وجامع الزّيتونة أو القرويّين، هاجروا إلى الشرق الأوسط وانتسبوا إلى جامعاته.. ومنهم من أوفِدَ بعد ذلك إلى جامعات أوروبا وأميركا وتخرّج منها ثمّ عاد إلى الوطن، في السنوات الأولى من الاستقلال، فكان من روّاد التعليم العربيّ والبحث العلميّ بالجزائر الحرّة المستقلّة.

وصفوة القول أنّ الجزائريّ، وهو في عقر داره، لم يكن، على عهد الاستعمار، يملك لا لغته ولا أرضه ولا عِرْضه.. بل لم يكن له من الأمر شيء حتّى عقد العزم على تحرير نفسه بنفسه فأصبح الآمر الناهيَ في وطن يعتزّ بالانتساب إليه ولا يدّخر جهدا في خدمته.





آثار محمد بن أبي شنب
(مع بعض الشروح والتعليقات)

كان المجلس الأعلى للغة العربية أقام حفلا تكريميا لذكرى الدكتور محمد ابن أبي شنب عميد الفكر الجزائري في النصف الثاني من القرن التاسع وعشر والربع الأول من القرن العشرين.. و كنا، في العدد الخامس عشر من مجلة اللغة العربية، ترجمنا بإيجاز لحياته راسمين أهم مراحلها وتطورها الثقافي، مبرزين عصاميَّة صاحبها وسعة أفقه ومثابرته على الإنجاز الفكري الذي رفع رأس الجزائر عاليا وأعجب به المشارقة والمستشرقون على السواء.

وكنا وعدنا القارئ بأننا نعرض في عدد لاحق، وبإيجاز أيضا، آثاره التي امتازت بعمقها وثرائها وتميّزت بتنوع مادتها وتشعب ميادينها.. شارك في الملتقيات الدولية بدراسات وافية، وألف الكتب الطويلة في شتى مجالات المعرفة.. ونشر المخطوطات وترجم الكثير منها أو عرَّف به ودلَّ على مكانته ومكان وجوده، وراجع معاجم ألفها معاصروه وأثراها، وشارك في تحرير الكثير من موادّ الموسوعة الإسلامية في طبعتها الأولى وفي ميدان اختصاصه كفنّ العروض أو في ما وُكل إليه من تراجم لعلماء المغرب العربي أو في ما اختار هو نفسه من مسائل لغوية.

نورد آثاره، معتمدين، أساسا، ما ذكر منها الأستاذ محمد الحاج صادوق في المادة التي خُصِّصت لترجمة حياته في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية (3 / 711 – 713) وبعض ما ورد في كتاب

عبد الرحمن محمد الجيلالي «محمد بن أبي شنب: حياته وآثاره» (المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر) وهو طبعة جديدة لكتابه «ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب»، وما نملك من مؤلفاته وما طالعنا من الدراسات التي نشرها في مختلف الدوريات والمواد التي حررها في الموسوعة الإسلامية القديمة.. ونحاول جاهدين أن نثري المادة المحرّرة بما راجعنا إليه من المظانّ التاريخية وكتب التراجم وما طالعنا من بحوثه في الدوريات التي سنشير إليها في عرض البحث.. واخترنا أن نتبع في عرض جهوده العلمية التسلسل الزمني لأن ذلك يوضّح وتيرة إنتاجه ويرسم خطا بيانيًا لحياته الثقافية.. وذلك ما فعل الأستاذ الحاج صادوق في الطبعة الثانية من دائرة المعرف الإسلامية التي صدر منها إلى الآن أحد عشر مجلدا، والتي يشارك في تحرير موادّها أبرز علماء الجامعات العالميّة.

فهرست آثاره

1.. التيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ الخليل من أحكام المُغارسَة لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي، المغربي الفاسي المالكي المتوفّى سنة 1096هـ – 1685م.. نقله إلى العربية ونشره في المجلة الجزائرية التونسية المغربية، للفقه والتشريع، الجزائر، 1895، 13ص.

وأبو زيد الفاسي هذا من المؤلفين المكثرين حتى إن المترجمين له كمحمد البشير ظافر الأزهري (ت1325هـ – 1907م) في «اليواقيت الثمينة، في أعلام مذهب المدينة» (1 / 190، ط.. مصر، 1324 هـ، وعبد الحي الكتّاني (ت.. 1962م) في «فهرس الفهارس» (ط.. فاس

1346هـ - 1926م) - 7 (راجع فهارسه ذكروا أن له ما يناهز أو يربو على 175 مؤلفا.

وأورد إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين (5 / 550) أن لأبي زيد الفاسي «التعريج والتفريج في ذكر أحكام المغارسة والتصبير والتوليج».

ولا ندري بالضبط من أين أخذ ابن أبي شنب نصَّه، أمن هذا الكتاب نفسه أم من شرح مؤلفه له أم هو اختاره من هنا وهناك أم هو كتاب آخر بعنوان مختلف؟

2.. «خاتمة في رياضة الصبيان وتأديبهم وتعليمهم وما يليق بذلك»، لمؤلف مجهول.. حقق النص ونقله إلى الفرنسية بعنوان: Notions de pédagogie musulmane ونشره في المجلة الإفريقية الفرنسية، (1897) ص 267 - 285.



يذكر في المقدمة أن الرسالة أعطاها إياه أحد الأصدقاء الجزائريين وأن مؤلفها، في أغلب الظنّ، من القرن الثامن عشر.. وينصّ على أن المسلمين كتبوا الكثير في مجال التربية والتعليم لكنّ الكتب الخاصة بالتربية مبعثرة في الآثار غير الخاصة بها.. ويبين أن القرآن هو السبب في تأسيس المدارس عند المسلمين وهو الذي حثهم على العناية بالتربية والتعليم.

3.. ترجمة «الرحلة من تلمسان إلى مكة» للشاعر الشعبي التلمساني ابن المسيب (عاش في القرن الثامن عشر).. حقق النص ونقله إلى الفرنسية بكفاءة عالية ونشره في المجلة الإفريقية الفرنسية، (190)، العدد 44، ص 261 - 282.



يبين في المقدمة أن الشعر الشعبي الجزائري غزير لكن لم يصلنا منه إلا ما كتب في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأن مواضيعه متعددة تشمل الغزل والرثاء والوصف وقص الحوادث القديمة والحديثة والمدح والهجاء.. بيد أن النسَّاخ لم يرووا منه إلا ما له علاقة بالدين.

ويترجم لابن المسيب واصفا إياه بأنه من فحول الشعراء الجزائريين وبأنه نظم، فيم يروى، 3034 قصيدة في الدنيويات والدينيات.. (وقد يكون العدد مبالغا فيه) رغم موهبته المبكرة.

أما القصيدة المحققة المترجمة فمن الثنائيات، على الشكل

يالـــــورشـــــان أقـــصـــد طـــيـــبَـــةْ

وزرْ وافـــقـــد مـــرســـمْ شـــيـــبـةْ

لا تخـــمـــمْ في أمـــر الـــغـــيـــبـةْ

ولا تحـــــــدَّثْ نـــفـــســـك بهـــا

كل الثنائيات بالمقطع «ها».. وفي القصيدة 62 ثنائية.. فيكون عدد أبياتها 124 بيتا.

4.. ترجمة رسالة لأبي حامد الغزالي في رياضة الأولاد وتربيتهم.. نشر النص والترجمة بالمجلة الإفريقية الفرنسية، 1901 ص 101 – 110 نبذة وجيزة عن حياة الغزالي، ص 101 – 102، وتعليقات مفيدة على النص.

5.. «الأمثال العربية بالجزائر وبالمغرب» 3 مجلدات، باريس، 1905.

يستعمل المثل بمعناه العربي الواسع مقتديا في ذلك بالميداني وأبي هلال العسكري وغيرهما من القدماء، فيعدّ مثلا ما دلّ على المبالغة والتناهي وكان على صيغة «أفعل» من كـ «أثقل من جبل» و «أجهل من حمار».. إلا أن ذلك قليل نسبيا.. وقد جمع أمثاله، فيما قال، مما سمع بالمديَّة وبالجزائر العاصمة، ومما ورد في نصوص العربية

الدارجة والمعاجم، وكتب الأمثال التي ألَّفها المستشرقون وبعض أساتذته وزملائه.. وذلك ما ضخَّم الكتاب وزاد في أمانة صاحبه العلميَّة.

يذكر المثل العامّيّ ويترجمه إلى الفرنسية ويبيّن مضْربه إن كان ممّا يحتاج إلى تفسيره، كما يذكر رواياته المختلفة وما يقابله في الأدب الفصيح نثره وشعره وفي الشعر الملحون وكتب الأمثال القديمة والحديثة.. إنما ألاحظ أن الأمثال المتداولة بالشرق الجزائري وبالمناطق السهبية قليلة في هذا المعجم الثمين الجدير بكل إعجاب.

6.. «كيف انتقل صحيح البخاري إلى سكّان الجزائر العاصمة»، مقال ورد ضمن مجموعة نصوص نشرها أساتذة «مدرسة الأدب» وأساتذة «المدارس الجزائرية»، الجزائر العاصمة، 1905، ص « 99 – 116 (لم أطَّلع على المقال).



7.. فهرست الكتب العربية التي ألَّفها **أو** نشرها المسلمون في سنتي (1322 – 1323 / 1904 – 1905م).. المجلة الإفريقية الفرنسية، 1906، ص: 261 – 296.

يذكر الكتب المطبوعة بمصر (بولاق) وبيروت وتونس والجزائر وفاس، ويعرّف بالكتاب ويبيّن موضوعه وينقد الطبعة، ويترجم بإيجاز حياة المؤلف.

8.. نبذة عن مخطوط في القرن الخامس الهجري بعنوان «كتاب طبقات علماء إفريقيا، الجريدة الآسيوية، 1906 ص343 – 360.

9.. بحث في الأعلام الذين ذكرهم الشيخ عبد القادر الفاسي في «الإجازة»، أعمال المؤتمر الرابع عشر الدولي للمستشرقين، باريس 1907، المجلد السادس، ص 165 – 560.. درس في هذا البحث المستفيض 360 عالما.



الحقيقة أن الشيخ عبد القادر (1007 – 1091 / 1599 – 1680م) بن علي بن أبي المحاسن، وهو أبرز علماء الجيل الثاني من أسرة الفاسيين، لم يترك إلا كتاب الأجوبة.. والكتاب الذي قدّمه ابن أبي شنب في المؤتمر هو كتاب « ابتهاج البصائر لأبي المحاسن عبد الرحمن بن عبد القادر.. أتى فيه صاحبه على ذكر من تخرج من العلماء على أبيه.. ولعلّه أخذ جُلّ محتواه عن والده، ولذلك كان العنوان موهما.

10.. حرب القرْم (La guerre écrimée)والجزائريون: قصيدة شعبية لمحمد إسماعيل (1820 – 1870) من الجزائر العاصمة، المجلة الإفريقية الفرنسية، 1907، ص: 162 – 222.

نبذة عن حياة محمد بن إسماعيل وعن شعره وإعجاب الجزائريين به، وتحقيق القصيدة التي نظَّمها في حرب القرْم (1853 – 1856) بين أنكلترا وفرنسا من جهة وروسيا من جهة أخرى، ونقلُها إلى الفرنسية.. ويذكر ابن أبي شنب أنه حقَّق النَّصَّ من أربع مخطوطات.. وموضوع القصيدة الإشادة بشجاعة الجزائريين الذين شاركوا في هذه الحرب وصف الأنكليز والفرنسيين بالجبن والخور.. والقصيدة 33 مقطوعة كثيرا ما يتغيَّر فيها الروي.

11.. أصل كلمة « شاشية » بحث منشور في المجلة الإفريقية الفرنسية، 1907، ص 55 – 56.

يفند رأي de Sacy و Dozy من أن «الشاشية» مشتقة من « الشاش » (العمامة) ويذكر أن الجاحظ استعمل في رسائله « العبارة » و.. .. القلانس «الشاشية».... وأن البكري في كتابه «معجم ما استعجم» نصَّ على أن « الشاشية » منسوبة إلى « شاش » وهي ناحية بالري شرق سيرداريا.



12.. نشر مثلثات قطرب بعنوان «مثلثات علاَّمة الأنام، قاموس البلاغة ونبراس الأفهام»، الجزائر، 1907.

نشر الأرجوزة التي نظمها سديد الدّين أبو القاسم عبد الوهاب بن الحسن البهنسي (ت، 685 / 1286) وأولها:

يا مولعا بالغضب

والهجر والتجنّب

أما العنوان المثبت هنا وما ورد في كشف الظنون وفي معجم المطبوعات لسركيس فكلّه يوهم بأن النّظم لقطرب محمد بن المستنير.. والدليل على أن البهنسي هو ناظم الأرجوزة قوله في آخرها:

لما رأيت دلّه

وهجره ومطله

نظمت في وصفي

له مثلثا لقطرب

13.. حياة المسلمين المدنيَّة بالجزائر (العاصمة)، المجلة الأهلية، الأعداد 17 (1907) ص 331 و19 ص 408 و21 ص 11 و22 ص 57، وفي حوليات الدراسات المشرقية، 1، عدد خاص 1964 ص: 7 – 38 بعنوان: «حياة المسلمين المدنية بالجزائر العاصمة حوالي 1900»

14.. نبذة عن مخطوطتين تتعلقان بشرفاء زاوية تامسلوحت، المجلة الإفريقية الفرنسية، 1908، ص 105 – 114.

يصف مخطوطتين وجدهما الأستاذ: Edmont Doutté في المغرب.

تتعلق الأولى بزاوية تامسلوحت أو عين الفِطر أو تيطان فطّر أو تيت، على الإيجاز.. وتقع هذه الزاوية بالقرب من مدينة مازاغن وفي الجنوب



الشرقي منها.. وينقص المخطوطة بعض الأوراق في أولها وفي آخرها، ولذلك صعب العثور على مؤلفها وتاريخ نسخها.. أما موضوعها فخاص بأشراف الزاوية وبتآليفهم.. وبعد تحقيقها ينقلها إلى الفرنسية.

والمخطوطة الثانية منسوخة سنة (1252 / 1837).. وتشمل سبعة فصول وخاتمة ؛ وهي ترجمة لحياة الشريف أبي يعزى أبي القاسم محمد بن سليم بن عبد العزيز بن شعيب الشعبي، أستاذ أبي مدين الشافعي ومن علماء القرن الخامس.. يذكر ابن أبي شنب مؤلفاته الأربعة والثلاثين والمترجمين له.

15.. المرأة في القرآن والسُّنة، المجلة الأهلية، العددان: 25 (1908)، ص 173 – 177، و26 ص: 208 – 214.

16.. نشر «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» لمحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن مريم (ت، 1014 / 1605) وترجمته.. جزآن، الجزائر 1908.



17.. نشر كتاب «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» المشهورة بـ: «الرحلة الورثيلانية» للحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني (ت، 1192هـ)، الجزائر، 1908، 189 صفحة، وضع له فهارس قيّمة.

18.. نشر «الممتع في شرح المقنع في علم ابن المقرع» (في علم الميقات) لأبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن يحي السوسي المرغيتي (ت.. 1089 / 1678)، الجزائر، 1908، 132 صفحة.

19.. «في الزواج بين المسلمين وغير المسلمين»، «المحفوظات المغربية»، العدد 15 (1909)، ص: 55 – 79.

20.. «فهرس المخطوطات العربية بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة»، الجزائر، 1909.



21.. نشر كتاب «تحبير الموشّين في التعبير (أو فيما يقال) بالسين والشين لأبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيرزوأبادي الشيرازي (ت 817 / 1415)، صاحب: القاموس المحيط» مطبعة الثعالبية، الجزائر، 1327 / 1909.

22.. نشر «مجموع الفوائد من منظوم المثلّثات والشوارد»، الجزائر، 1909. لم أطّلع عليها ولا أعرف مؤلّفها ومحتواها بالضبط.

23.. نشر «خرائد العقود في فرائد القيود» (فيما يقرأ بالحركات الثلاث)، الجزائر، 1909، لم أره.

24.. نشر «عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة من علماء بجاية» لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغُبريني الزواوي المتوفى ببجاية سنة 714 / 1315.. حقَّقه من أربع نسخ وجدها بالجزائر وطبعه بالعاصمة سنة 1910.. وهي أول طبعة عرفها القراء.. وطبعه بعده عادل نويهض، بيروت، 1969.



25.. نشر مختارات من «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» للقاضي عياض أبي الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المتوفى سنة 544 / 1149.. نشر هذه المنتخبات في كتاب « الذكرى المائة لموت Michelle Amari، باليرمو، 1910، 1 / 251 – 276.. 26.

26.. نشر قصيدة لشاعرة تدعى أمّ هانىء في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي لاميّة من البحر البسيط مطلعها:

ما للمساكين مثلي مكثري الزلل
إلا شفاعة خير الخلق والرسل

المجلة الإفريقية الفرنسية، 1910، 182 – 190.



27.. نشر «تدميث التذكير في التأنيث والتذكير» لأبي إسحاق إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبريّ (نسبة إلى قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقّة).. لقبه ببغداد تقيّ الدين وبغيرها برهان الدين، وهو الذي نجده عند ابن أبي شنب.. توفي سنة732 / 1332.. و ينسب إليه نحو مئة مؤلف منها هذه النونّية التي تشمل 273 بيتا من البحر الكامل المضمر في بعض الأبيات.. قدّم لها باللغة الفرنسية ونشرها في مجلة المعارف السريانيّة، العدد26، إستراسبورغ، 1911، ص.. 359 – 381.

28.. «كلمات علميّة عربيّة واردة في المنار، الجريدة المصرية»: ترجمها إلى الفرنسية ونشرها في التقويم الجزائريّ 1911، ص.. 129 – 147.

29.. «روضة السلوان» لعبد الجبار بن أحمد الفجيجي (المغربي).. نشرها في التقويم الجزائريّ، 1911، ص.. 71 – 94.



لم أطلع عليها و لا أعرف موضوعها.. وقد ذكر صاحب «ذيل كشف الظنون» كتابا بهذا العنوان مقتصرا على العنوان وعلى أنّ الكتاب في الفرائض.

30.. نشر الأرجوزة الألفية " أو " المذهبة في الحل والشيات « لأبي عبد الله محمد بن عيسى بن أصبغ الملقَّب بابن المناصف، الأزديّ القرطبيّ.. المتوفى بمرّاكش سنة 620 / 1223.. نشرها في التقويم الجزائري، 1912، ص.. 71 – 122.

31.. ملاحظات متعلقة بأصل كلمة «تلّيس»، المجلة الإفريقية الفرنسية، 1912، ص.. 566 – 572.

يستعرض الكلمة في المعاجم العربية وفي كتب «لحن العامة» وفي دراسات المستشرقين والمعاجم اللاتينية و اليونانية.. و يوافق الشهاب الخفاجيّ في كتابه «شفاء الغليل» على أنها أجنبية.. يدقق في الدراسة



فيُحصّل أنها يونانية، و يوافق الشهاب الخفاجيّ في كتابه « شفاء الغليل » على أنها أجنبية.. يدقّق في الدراسة فيحصِّل أنَّها يونانيَّة أخذها العرب قديما عن الروم.

32.. نظرة إجمالية في تاريخ مدينة الجزائر، التقويم الجزائري، 1912، ص.. 94 – 188، 1913، 32 – 129، وهي منشورة في « محمد بن أبي شنب، حياته و آثاره » لعبد الرحمن الجيلالي، ص 75 – 80

33.. بونة، مقالة نشرت في القسم الأدبي من التقويم الجزائري، 1913، ص81 – 86، ونشرها عبد الرحمن الجيلالي في كتابه المذكور، ص81 – 85.

43.. الألفيَّة الصُغرى أو الذرّة المصونة في علماء و صلحاء بونة، للبوني (أبي العباس محمد بن أحمد بن القاسم بن محمد، المتوفى سنة 1139 / 1653، وهو غير أبي العباس أحمد بن على بن يوسف، البوني العالم الحُروفيّ المتوفىً سنة 622 / 1225 وصاحب « شمس المعارف »، التقويم الجزائري، 1913، ص 87 / 128.

هي أرجوزة في ألف بيت، كما يدلّ على ذلك عنوانها، مختصرة من أخرى تبلغ 3000 بيت، مقتبسة في معظمها من كتاب « الكلل والحلل » لأبي الحسن علي فضلون، من علماء القرن التاسع.

35.. مقدّمة « تكملة الصلة لابن الآبّار » نشرها وعلّق عليها وترجمها إلى الفرنسية، المجلة الإفريقية الفرنسية، 1918، ص 306 – 335.

36.. الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية (للشاعر الإيطالي دانتي) المجلة الإفريقية الفرنسية، 1918، ص 483 – 493.

يورد ابن أبي شنب أنه حين أراد تعريب النشيد 31 من الكوميديا الإلهية وجد فيه جملة يقول شارحها إنها من العربية.. ثم قرأ سنة 1907





« رسالة الغفران » (ط.. القاهرة 1325) فلاحظ أنّ هناك علاقة بين دانتي والأدب الأسطوريّ المنسوج حول الإسراء والمعراج....

37.. نشر مع Alfred Bel القسم الأوّل من تكلمة الصلة لابن الآبّار، الجزائر 1920، 416 ص.

38.. طبقات علماء إفريقية.. جمع فيه « طبقات علماء إفريقية » و « طبقات علماء تونس » (وكلاهما لأبي العرب محمد بن تميم بن تّمام النميميّ المتوفىّ سنة 333) و « طبقات علماء إفريقية » لأبي عبد الله محمد بن الحارث الخشنيّ المتوفىّ في حدود 330.. طبع النص « العربيّ » (300 ص) بالجزائر 1915، ونُقل إلى الفرنسية في جزءين (416 ص.. وطبع بباريس، 1920.



39.. قائمة الاختصارات المستعملة عند المؤلّفين العرب، المجلّة الإفريقية الفرنسية، 1920، ص134 – 138.

40.. فهرست المطبوعات بفاس وفقا للتسلسل الزمنيّ بالاشتراك **مع** المستشرق Lévi – provençal، المجلّة الإفريقية الفرنسية، 1920، ص73 – 158، و1921، ص275 – 290، و1922، ص171 – 185، وص 333 – 347.

41.. الذخيرة السنّية في تاريخ الدولة المرينيّة لمؤلّف مجهول.. طبع بالجزائر سنة 1920.

42.. أبو دُلامة، شاعر النوادر في مجالس أوائل خلفاء بني العباس.. وهي الرّسالة الأساس التي حرّرها بالفرنسية وناقشها، فنال بها شهادة دكتوراه الدّولة.

43.. الكلمات التركية والفارسية في لهجة الجزائر العاصمة، الجزائر، 1922، 87 ص.. وهي الرسالة التابعة لأطروحة دكتوراه الدّولة.



44.. مقدّمة كتاب الصّلة لابن الآبّار.. النصّ العربيّ وترجمته إلى الفرنسية، المجلة الإفريقية الفرنسية، 1922، ص 163 – 164.

45.. فترات احتلال المسيحيين للأندلس، منوّعات ذكرى وفاة René Basset باريس 1923، ص 1 / 69 – 77.

46.. مراجعة معجم العامّية (الجزائرية) العربيّ، الفرنسي لابن سديرة، وإثراؤه، الجزائر، 1925.. وكرّر ذلك في المعجم الفرنسيّ العربي للمؤلف نفسه فوافته المنّية قبل إنجاز طبعه.

47.. نشر ديوان علقمة بن عبدة بشرح الأعلم الشنتمريّ، **مع** زيادات في النصّ جمعها من مختلف المصادر.. ووضع له أربعة فهارس علميّة وافية.. الجزائر، 1925.

48.. نشر ديوان عروة بن الورد بشرح ابن السكّيت.. سلك فيه طريقة نشره لديوان علقمة ونشره في «مجلة المكتبة العربية» Arabica Bibliotica b مج 2، 1926.

49.. العدد «3» عند العرب، المجلة الإفريقية الفرنسية، 1926، ص 105 – 178، الجزائر 1927.

دراسة طويلة ذكر في مقدّمتها أنّ الموضوع لفت أنظار المؤلفين العرب.. ويورد في ذلك:

- «برد الأكباد في الأعداد» لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوريّ (ت.. 429 / 1038) والكتاب مرتب على خمسة أبواب، جمع فيه صاحبه ما ورد على التعداد من الحكم والآثار والأشعار.

- «الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير» للسيوطي، ط.. القاهرة 1330 ص 134 — 141).

-



- « مفاتيح الغيوب وتعمير القلوب في تثليث المحبوب » لمحمّد بن شعيب بن محمّد الحجازي الجيزيّ الخلويّ الصوفيّ (ت.. 1003 / 1594)

يدرس الموضوع في اللغة (غلبة الثلاثي على جذر الكلمة، الحركات ثلاث، أحرف العلة، أنواع الكلم، حركات الإعراب، الأزمنة.... والبلاغة (المعاني والبيان والبديع) والفقه (الوضوء، الطلاق، موجبات الإرث.... وفي القرآن مع ذكر الآيات، والحديث (34 صفحة)، والشعر الجاهليّ (19 صفحة)، و الأمثال العامية.. وينقل إلى الفرنسية « برد الأكباد في الأعداد » ص 133 – 157.

50.. تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب.. طبع ثلاث مرات: الجزائر، 1906 و1928 وباريس 1954، 170 ص (مع الفهارس).



هو كتاب في العروض طبّق في نظرية الخليل، كما وردت في كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربّه.. و ذيّله بستة أبحر متفرعة عن البحور الخليلية نظم فيها المولَّدون تفننا، ومن حين إلى آخر، ثم أهملت لضعف موسيقاها.. وهي المستطيل والممتدّ والمتوفّر والمتئد والمنسرد والمطّرد.

وكلها متفرعة عن بحور الخليل بقلبها أو بتغيير طفيف فيها.. وختمه بما يسميه الفنون السبعة: السلسلة، والدّوبيت، والموشّح والقوما، وكان ما كان، والمواليا، والزّجل.. نظّم فيها بعض المولّدين.. ومنها ما هو ملحون لا إعراب فيه، وهو القوما وكان ما كان والزجل.

51.. نشر كتاب « الجُمل » لأبي القاسم الزجّاجيّ و شرح شواهده وأتبعه بفهارس علميّة واسعة.. الجزائر 1927.. و طبع مرة ثانية بباريس 1957.

52.. نشر « الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيّة » لأبي العباس أحمد بن الحسن، المعروف بابن قنفذ القسنطينيّ وصاحب المؤلفات



الكثيرة في شتىّ الفنون والعلوم.. راجع مقدّمة ابن أبي شنب للكتاب المنشور.. (ت.. 809 / 1406 أو 810 / 1407)، مجلة Hesperis 1928، ص 37 – 49.

53.. ابن خاتمة، شاعر عربيّ من شعراء إسبانيا في القرن الثامن الهجريّ.. و هي مداخلته بأكسفورد في مؤتمر المستشرقين الدوليّ، 1928.. نشرت في الشهاب، جريدة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1928.. أولها في « كتاب عبد الرحمن الجيلالي، ص 87 – 88.

54.. بعض الأمثال الجزائرية.. نشرت في منوّعات ذكرى Henri Basset باريس 1928، 1 / 43 – 68.

55.. رأي غريب في القرآن، منسوب إلى الجاحظ.. و هي محاضرة ألقها في المؤتمر السادس لمعهد الدراسات العليا المنعقد بالرباط سنة 1346 / 1926.. نصُّها الكامل في الكتاب المذكور لعبد الرحمن الجيلالي، ص 65 – 69.



56.. نظرة إجمالية في اللغة الساميّة.. نشر القسم الأول منها عبد الرحمن الجيلالي، وقد أخذه من مجلة « إفريقية » كانت في أوّل أمرها، تصدر بالجزائر العاصمة، الجزآن الثاني والثالث، 1918.

57.. تصحيح وإثراء معجم بوسييه (Beaussier)في العامية الجزائرية، الجزائر 1931، باريس، 1958.. نشر الكتاب إذن بعد وفاة المؤلف والمصحّح.

وممّا لم ينشر من مؤلّفاته دواوين شعر وكتب علميّة قدّم لها وعلّق عليها وترجم لأصحابها ونقلها إلى الفرنسية.. نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر:



– ديوان الحطيئة، وديوان مزاحم العقيلي، والقسم الثاني من فقه اللغة للثعالبي ومتن إيساغوجي، في المنطق، لفورفيريوس الصوريّ، نسبة إلى مدينة صور بالشام (ت.. بروما بين 301 و305م).. والظاهر أنَّه نقل أرجوزة الأخضريّ البسكريّ الجزائريّ، من علماء القرن العاشر، التي نظمها انطلاقا من متن الأبهريّ، كما ترجم شذور الذهب لابن هشام النحويّ.

وشارك في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية بمقالات عديدة تختلف في الطول والقصر وفقا للموضوع.. له في المجلد الأول منها عشرة مداخل، وفي الثاني خمسون (وجعلها الحاج صادوق اثنين وأربعين، وهو مجرد سهو منه)، وفي الثالث ستة عشر (لا أحد عشر)، وفي الرابع ثمانية (عوض واحد)، فيكون مجموع المداخل ستة وسبعين.. والعدد أربعة وستّون، الذي نجده في الطبعة الثانية، في ترجمة حياته، وهم ناتج عن خطأ في العد أو في التّصفّح.



المداخل التي حررها في دائرة الإسلام (الطبعة الأولى)

المجلد الأول:

ص 69: العبدريّ أبو محمّد بن محمّد، صاحب « الرحلة المغربية، ومن علماء القرن السابع.

ص196: أحمد بابا التنبكتي، أبو العباس، من علماء القرن العاشر الهجريّ، ألف ما يناهز الأربعين كتابا، معظمها في التراجم.

ص223: العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد (ت.. 1090 / 1679)

ص489: أشير (مدينة)

ص 937: الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد، (ت.. 444)، صاحب



«التيسير في القراءات السبع».

ص 980: الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت.. 753)، صاحب «تذكرة الحفاظ».

ص 1010: الدياربكري، حسين بن محمد، (ت.. 982)، مؤلّف «تاريخ الخميس».

ص1061: الجزولي، عيسى بن عبد العزيز، (ت، حوالي606)، شارح «بانت سعاد».

ص1062: الجزولي محمد بن سليمان، (ت.. حوالي 875)، و هو مؤلف «دلائل الخيرات....»

المجلد الثاني:



ص 87: فاصلة (عروض).

- الفتح بن خاقان القيسي الإشبيلي، (ت.. حوالي529) صنف قلائد العقيان و محاسن الأعيان «.

ص 315: هزج (بحر الهزج).

ص318: الهروي الصوفي، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد (ت.. 481) صاحب «طباقات الصوفية».

ص355: الحميديّ، محمد بن أبي نصر، (ت.. 448)، مؤلف «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس».

ص374: ابن الأبّار الخولاني الإشبيلي الشاعر، أحمد بن محمد، (ت.. 433)، من شعراء الأندلس.

- ابن الأبّار، محمد بن عبد الله، (ت.. 658)، مصنف «كتاب التكملة لكتاب الصلة»: صلة ابن بشكوال.



ص378: ابن أبي رندقة الطرطوشي الأندلسي، محمد بن الوليد، (ت.. 520)، صاحب «الباري في أحكام النجوم».

ص 380: ابن أبي زيد القيرواني، عبد الله بن أبي زيد، (ت.. 386)، مؤلّف «الرسالة» في الفقه المالكي.

- ابن آجُرّوم الصنهاجي، محمد بن محمد، (ت.. 723)، صاحب متن «الآجرومية في النحو».

ص385: ابن عاصم، محمد بن محمد، (ت.. 829)، صاحب «تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام» في الفقه المالكي.. و نختصرها في عنوان «العاصمية».

ص389: ابن البناء، أحمد بن محمد، (ت721)، له 74 كتابا في الرياضيات والفلك والطب والفقه والحديث.



ص390: ابن برّي، عبد الله بن برّي، (ت.. 582)، صاحب «كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم في كتاب الصحاح» (الصحاح للجوهري).. و هو من مصادر «لسان العرب».

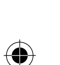
- أبن برّى، عليّ بن محمّد (ت.. 730).. عالم بالقراءات، و كتابه «الدرر اللوامع» في إفريقية الصغرى يعادل «الأجرومية» عندنا.

- ابن بشكوال، خلف بن عبد المالك، (ت.. 578).. اشتهر ب «كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس».

ص 395: ابن الجزريّ الدمشقي، محمد بن محمد، (ت.. 833)، صاحب «كتاب النشر في القراءات العشر».

ص398: ابن الفرضي، القرطبيّ عبد الله بن محمد، (ت.. 403) مؤلف «كتاب تاريخ علماء الأندلس».

ص399: ابن فرحون، إبراهيم بن عليّ، (ت.. 799)، من الفقهاء



والمؤرّخين.

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، (ت.. 395)، مصنّف المعجم الشهير: «المجمل في اللغة» و«الصحابي» في فقه اللغة و«سنن العرب في كلامها».

ص 404: ابن الحاجب، عثمان بن عمر، (ت.. 646)، مصنف «الكافية» في النحو و«الشافية» في الصرف.

ص406: ابن هانئ الأندلسي « الشاعر، محمد بن هانئ.

ص410: ابن هشام الأنصاري النحوي، عبد الله بن يوسف، (ت.. 761) مؤلف «قطر الندى....» «ومغني اللّبيب» وغيرهما.

ص414: ابن القاضي، أحمد بن محمد، (ت.. 1025)، صاحب «جذوة الاقتباس فيمن حلً من الأعلام مدينة فاس» ودرة الحجال في أسماء الرجال «الذي ذيّل به» «وفيات الأعيان» لابن خلكان.



ص 424: ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، (ت.. 367)، مؤلف كتاب «تاريخ فتح الأندلس».

ص426: ابن مالك محمد بن عبد لله، (672)، صاحب «الألفية» الشهيرة في النحو.

ص 431: ابن معطي، يحيى بن عبد المعطي، (628)، صاحب «الدرة الألفية في علم العربية» التي حذا حذوها ابن مالك.

ص434: ابن رشيق المسيلي القيرواني، الحسن بن رشيق، (ت.. بين 456 و 463)، الشاعر الناقد الشهير بكتابيه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» و«قراضة الذهب في نقد أشعار العرب».

ص444: ابن سيده أبو الحسن علي بن إسماعيل، (ت.. 458)، الشهير بمعجميه «المخصّص» و«المحكم والمحيط الأعظم».



- ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق، (ت.. 244).. اشتهر بكتابه «إصلاح المنطق».

ص447: ابن تيمية الحنبلي، أحمد بن عبد الحليم، المنسوب إليه خمسمائة كتاب (ت.. 728).

ص453: ابن الورديّ، أبو حفص عمر بن المظفّر، (ت.. 749)، صاحب القصيدة «اللامية» في الحكم.

ص 454 ابن الوردي الشافعي، سراج الدين مؤلف «خريدة العجائب وفريدة الغرائب».. (ت.. 861).. والإقواء (من عيوب القافية).

ص492: الإقواء (من عيوب القافية).

ص 562: إساغوجي (كتاب في المنطق لفورفيريوس الصوري)

ص602: عياض بن موسى (القاضي عياض المتوفى سنة 544 ومؤلف «كتاب الشفاء....».



ص630: القبض (عروض)

ص658: الكهف (عروض)

ص 661: القافية.

ص736: القالي، إسماعيل بن قاسم، (أبو علي القالي) المعروف بكتابه «الأمالي.... (ت.. 356).

ص750: الكامل (البحر الكامل).

ص87: القريب (عروض).. القريب عند الترك، والعرب تسمية المنسرد.

ص910: الخبن (عروض).

ص920: الخفيف (البحر الخفيف)

ص 940: الخليل بن أحمد الفراهيدي، مخترع العروض، توفي بين سنتي 170 و175.



- الخليل بن إسحاق الفقيه الملكي (سيدي خليل في الجزائر)، توفي سنة776.

ص968: الخرم (عروض)

ص993: الخزم (عروض)

ص1096: الكسائي، علي بن حمزة، الإمام في النحو والقراءات.. اختلفوا في تاريخ وفاته (بين 179 – 197).

ص1169: القُدوري البغدادي، أبو الحسن أحمد بن محمد، الفقيه الحنفيّ، (ت.. 428).

ص1181: القوما (من الفنون الشعرية المستحدثة ببغداد في العصر العباسي.. ما زال عند العامة).

ص1239: قُطرب، محمد بن أحمد، صاحب «المثلّثات».. توفي سنة206.

المجلد الثالث:

ص 85: المديد (عروض)

ص100: مجرى (في القافية)

ص476: مواليا، موّال (نوع من الأغاني الشعبية)

ص 492: المَزاتي، نسبة إلى قبيلة مزاتة، بين قابس وجنوب طرابلس، تعد أكثر من 20 عالما.

ص591: المصراع (عروض).

ص658: المُعمّى (من الألغاز).

ص665: المضارع (عروض).

ص667: المجتث (عروض)

ص731: محمد ديرم التونسي، محمد بن مصطفى، صاحب « تجريد السنان في الرد على الخطيب رينان ».. وكان الفيلسوف renan زعم في



محاضرة ألقاها بالسوربون29 / 02 / 1883 أن الشريعة الإسلامية تعوق تقدم العلوم.. توفي سنة 1307 / 1840.

ص768: المقتضب (عروض)

ص775: المنسرح: (عروض).

ص829: المتدارك (عروض).

ص 831: المتقارب (عروض).

ص 849: الموشح: (من الفنون الشعرية).

ص854: المزاوجة (بلاغة).

ص855: المزدوج (في البلاغة وفي العروض).

المجلد الرابع:

ص317: الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد، النفوسيّ، (ت.. 928)، من فقهاء وعلماء التراجم الإباضيين بطرابلس الغرب.

- الشماخي، أبو ساكن عامر بن علي، النفوسي (ت.. 792)، من فقهاء الإباضيين.



ص393: الشربيني، يوسف بن محمد، من أدباء القرن الحادي عشر الهجري المصريين.

ص629: التجنيس او الجناس (بلاغة).. وهي أطول مادة حرّرها.. وتليها في الأهمية المادة التي خص بها ابن تيمية (في المجلد الثاني).

ص631: التجويد (تجويد القرآن).

ص740: الطويل (البحر الطويل).

ص744: التورية (البلاغة).

ص1194: الوتد (عروض).

حرر هذه المداخل باللغة الفرنسية، والناظر لعناوينها ومحتوياتها



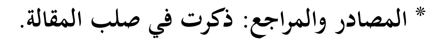
يرى، من أول وهلة، أنه كان مهتما في معظمها بأعلام إفريقية الشمالية، وأن مادة العروض ما وُكلت إليه إلا في أربعة مداخل: العروض، وبحري الرجز والرمل (حررهما shaade، ..A في صلة الموسوعة، وبتعمق فائق)، والبحر السريع (طرقه .(walker ..j. والظاهر أن ابن أبي شنب توفي قبل تمام الجزء الرابع وقبل البدء في تحرير « صلتها ».

ولابن أبي شنب محاولات شعرية لا ترقى إلى الإبداع الفني، ونثر يطغى عليه السجع المتكلف.. وكان ذلك أسلوب العصر في المشرق العربي وفي المغرب، ولا غرو، فالإنسان ابن عصره.

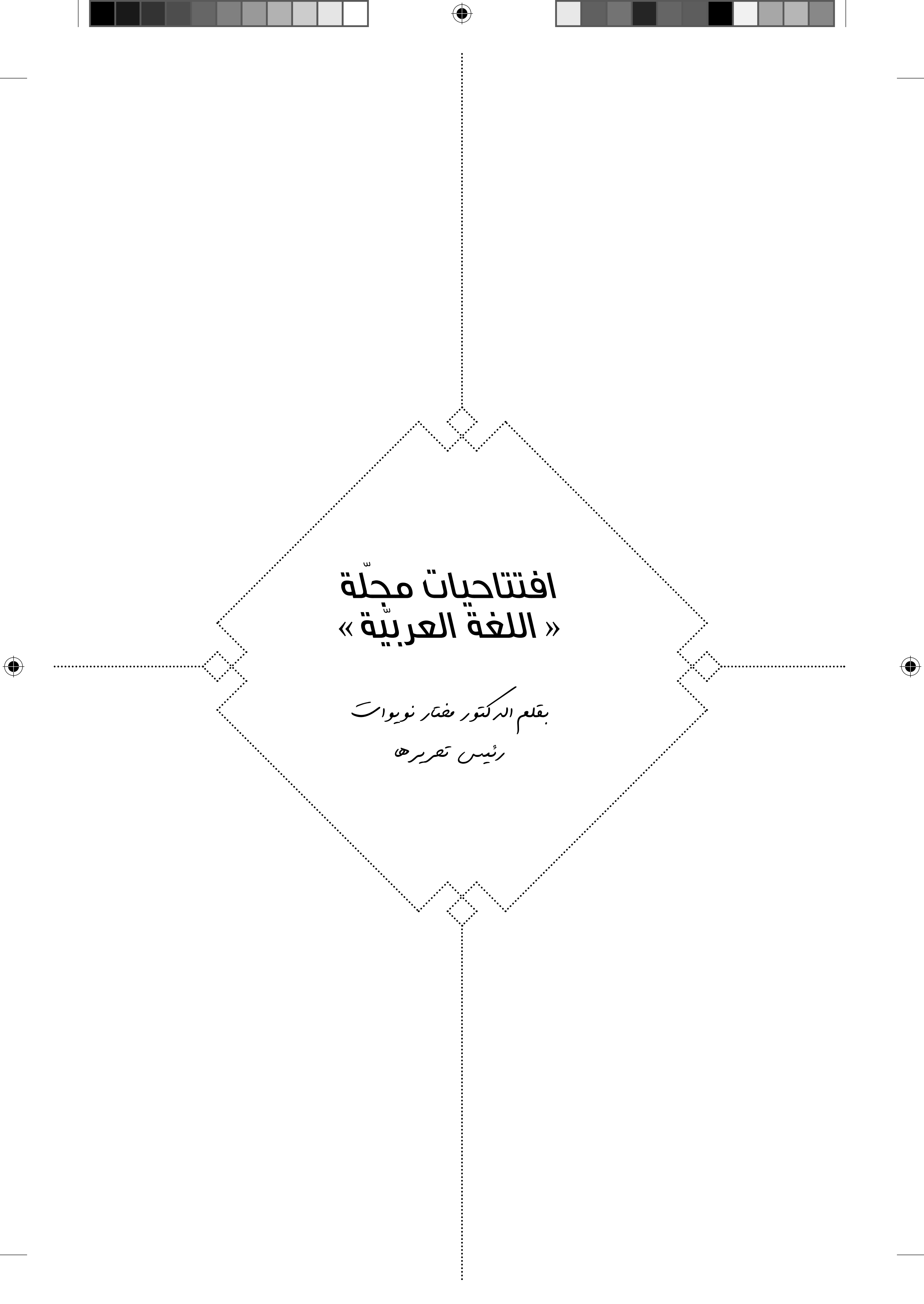



يقول في مقدمة نشره لكتاب « عنوان الدراية »: أما بعد، فإن الكتاب المسمّى « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » للعلامة المحقق، والفهامة المدقق، الجامع بين الدراية والرواية، قاضي القضاة ببجاية، الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله الغبريني رحمه الله ورضي عنه كتاب تلوح أنوار الحقائق من سبل عباراته، ويعبق شذا عرف المعارف من بيان إشاراته، أورد فيه مؤلفه من تراجم علماء عصره، وأخبار أحبار مصره، ما يحتاجه المتشوّق إلى فرائد الفوائد، والمتشوّق إلى أوابد الفوائد، مع ذكره وفياتهم ومؤلفاتهم، وسيرهم في مذاهبهم وعاداتهم، واستطراد الأحاديث الشريفة، والآثار الصالحة المُنيفة، والمباحث الفقهية، والفتاوى الشرعية، وغير ذلك مما لا يحصى، ولا من غيره يستقصى»...

كان محمد بن أبي شنب، بصفة أخصّ، عالما واسع الأفق باحثا متمكنا من أساليب البحث وأسسه، فرض نفسه في الشرق والغرب بمادة غزيرة وذكاء وقّاد، وعمل دؤوب، وطموح وثّاب لفت الأنظار وأثار الإعجاب، بل كان وسيبقى الأسوة المثلى لكل باحث في هذه الربوع، وما أحوجها إلى أضرابه.


*** المصادر والمراجع: ذكرت في صلب المقالة.**





افتتاحيات مجلّة «اللغة العربيّة»

بقلم الدكتور مختار نويوات

رئيس تحريرها



خطر العزلة الثّقافيّة

افتتاحيّة العدد: **6**

نقدّم إلى القرّاء العدد السادس من مجلّة اللغة العربية، أحد روافد المجلس الأعلى في نشاطه الدّائب لخدمة اللسان العربيّ بالتمكين له في ميادين العمل مهما تعدّدت وبترقيته في فنون المعرفة ترقية نوعيّة ناجعة ثريّة تخوّله من استرجاع مكانة مرموقة فقدها منذ قرون ومن الإسهام في التقدّم الحضاريّ جنبا إلى جنب مع لغات الأمم الراقية.

أسهم في تحرير هذا العدد باحثون جزائريون من مختلف الجامعات، غُيُر على الوطن ومقدّساته، مؤمنون بالمبادئ، مخلصون في العمل، مختلفون في مشاربهم وفي تجاربهم، متفاوتون في نضجهم لتفاوت أعمارهم، متمايزون في المواهب، والموهبة من الله.. وهم، مع ذلك، سواء يوحّدهم الطموح والرّغبة في الإنتاج وفيما ينفع الوطن والأمة ويساهم ولو بجزء متواضع في بناء مجتمع جدير بالحياة.

تناول الباحثون في مقالاتهم مواضيع متنوّعة، إلا أنّ معظمهم ركّز اهتمامه فيما يطرح التعليم والتربية واللغة من مشاكل توجب حلولا عاجله في الجامعات بوجه خاصّ أقول بوجه خاصّ.. لأن محرّري هذا النوع من المقالات أصدروا عن تجاربهم في ميدان التعليم العالي.. والحقيقة أنّ هذه المشاكل وهذه الحلول تفرض نفسها بحدّة في جميع مراحل التعليم وتستنهض الهمم لمعالجتها بالوسائل الناجعة الكفيلة بتأسيس أهمّ دعائم النهضة وبرفع المستوى الاجتماعيّ الثقافيّ الحضاريّ النهضة

الحقيقية تمر حتما بالمدرسة، بالمدرسة التي توفر لها أسباب النجاح مهما كلّفت هذه الأسباب من أعباء ثقال، فتنير العقول وتفتح لها آفاق المعرفة، والمعرفة عالميّة وليست حكرا على شعب من الشعوب ولا أمّة من الأمم.. هي التي تحافظ على الأصالة وتنمّي مكوّناتها وتجعلها قادرة على استيعاب الحضارات وعلى تمثّلِها، بالمعنى العلميّ للكلمة.

قادة العالم والمسيطرون على المعمورة في عصرنا هذا مكّنوا للغاتهم بريادتهم في العلوم والتكنولوجيا وبإنتاج فكريّ غزير ففرضوا هذه اللغات على غيرهم بل فرضت نفسها على غيرها.. ونعلن على الملإ في كلّ مناسبة أنّ لغتنا من أخصب اللغات وأطوعها وأكثرها مرونة وأنّها « بخير والحمد لله » (والكلمة لعضو بارز من أعضاء مجمع اللغة بالقاهرة، لا أسمّيه).. هي كذلك في نظامها وعبقريّتها ولعلّ الأصحّ أن نقول كانت كذلك لأنّنا ألقينا حبلها على غاربها وأخلدنا إلى الدّعة سبعة قرون فركدتْ ريحنا، فلما أفقنا - إن كنّا أفقنا حقيقة - وجدنا أنّنا أدخلنا عليها وعلى أنفسنا الضيم وأننا في المؤخرة وحملنا لغتنا ما لا طاقة لها ولنا به إلا إن كنا واعين جادين في أمرنا عاقدين العزم على اللحاق بمن سبقنا إلى ما نحن عاجزون اليوم حتى عن تسمية الكثير منه مع أننا نمارسه كل حين وأننا في أمس الحاجة إليه في المنزل والشارع والمصنع والمختبر والمؤسسات الدولية على اختلاف أنواعها، وبعبارة أشمل فيما نملك وما علينا أن نملك مما تفرد به غيرنا وتطاول علينا به فأذلنا واستعبد لغتنا ونحن أحق بها وأحرص على حمايتها من الهجنة أو الذوبان في غيرها.

لغتنا تستوجب إذنْ أن تكون عصريّة قادرة على التعبير عن المحيط وعن الفكر الحديث، مؤهّلة لاستيعاب الفنون والعلوم والتكنولوجيا وكلّ ما جدّ من أسباب الحضارة.. وليس ذلك بالأمر الهيّن ولا ممّا يستطيع





تحقيقه قطر عربيّ واحد مهما كانت عزيمته وكفاءاته ومقدرته على الإنجاز، فالهدف بعيد والطريق إليه شاقّ والأعباء ثقال والوسائل جدّ متواضعة.. لن يحقّق ما نصْبوا إليه إلاّ الأقطار العربيّة مجتمعة وبوسائل حديثة ومؤسسات فعّالة وهيئات جادّة تعمل بتنسيق محكم يضفي على جهودها النجاعة والمصداقية ويضمن لها سرعة الإنجاز.

والمجلس الأعلى للغة العربيّة بالمهمّات الموكولة إليه وبما رسم لنفسه من أهداف تجمعها خدمة اللغة ونشرها وترقيتها يندرج في هذا الإطار العامّ.. ومجلّته التي نقدّم منها العدد السادس كما أسلفنا لا يخرج عن هذا النسق كما لا يخرج عنه ما نظّم المجلس من ملتقيات ومنتديات.. فمن مرامي المجلّة الإسهام في خدمة اللغة العربية بنشر بحوث تتّسم بالأصالة والعمق والحداثة ورصد ما جدّ في العالم من دراسات متميّزة تمت بأوثق الصلات إلى اللسان العربيّ وروافده وتحقق التواصل المعرفيّ أساس كلّ حضارة.



تتوخّى المجلّة كلّ ما يكفل لها النموّ والازدهار لتصبح مثابة لكتّاب العربيّة وملتقى لأقلامهم ومعرضا لآرائهم وتحاول أن تجمع ألونا من الدراسات في الميادين اللغويّة والأدبيّة والتربوية والعلميّة والتاريخيّة وكلّ ما ينشر الثقافية الرصينة، المتميّزة بعمقها وخلودها، الرافدة للسان العربيّ.. ولا تقصي من المواضيع إلا ما «لاكته الألسن» كما يقال وما اتّسم بالسطحيّة أو سبق نشره أو قدّم لنيل شهادة جامعيّة أو حرر بأسلوب مهلهل يسيء إلى العربيّة ولا يخدمها لأنه يفقدها أصالتها ونجد أنفسنا مضطرّين إلى تأكيد هذه النقطة الأخيرة، فالترجمة من مختلف اللغات الأجنبيّة وفي شتّى الميادين وقلّة نصيبنا من الروح العربيّة جعلتانا نفكّر باللغة الأجنبيّة كما يقال فندخل إلى لساننا ما يشوّه مبانيه ويفقده سلاسته وأناقته ويخضعه إلى غيره من الألسنة.. وليس ذلك من الحكمة



في شيء.. ينبغي أن تطوّر لغتنا، فما **لا** يتطوّر يسرع إليه الزوال.. لكنّ التطوّر له قواعد من جهلها أساء من حيث يظن أنّه يحسن صنعا.

العزلة الثقافية خطر على المجتمعات والحضارة غير المتفتحة وبال وموت بطيء، والركود الفكريّ أهمّ عوامل التخلّف نحن اليوم عالة على الغرب في معظم ميادين المعرفة كما كانوا عالة علينا في نهضتهم الأولى لكنّهم جدّوا فأنجزوا الكثير وتقاعسنا فمازلنا مختلّقين يدلّ على ذلك أنّ الوطن العربيّ كلّه لم ينتج من الكتب المترجمة وغير المترجمة، سنة 1970، إلا 1.. 1% بينما أصدرت أوروبا والاتّحاد السوفييتي 72 %من مجموع ما ألف في العالم.. وتراجع العالم العربيّ، كما تنصّ على ذلك إحصاءات اليونسكو، إلى نسبة 0.. 9% سنة 1986.



نريد أن ننفذ إلى الثقافات البشريّة لننّمي حضارتنا ونضمن لأنفسنا العزّة والعيش الكريم وذلك يقتضي نقل هذه الثقافات إلى لغتنا بأنجع الوسائل وأقصر السبل وبتظاهر الجهود وتضافر الأقلام.. والمجلس الأعلى للغة العربيّة، كغيره من الهيئات العلميّة، يرحّب بكلّ مشروع يحقّق هذا الهدف الأسمى ويهيب بالباحثين داخل الوطن وخارجه أن يركّزوا على المشاكل التي نعانيها في شتّى الميادين الثقافيّة والتربوية والاقتصادية والإدارية، في كلّ قطاعات الدولة ونعني ما كان له علاقة وثيقة بتسهيل نشر اللغة العربيّة في المحيط وبتطويرها في المؤسسات التعليميّة والعلميّة على اختلاف اختصاصاتها، وأن يفكروا مليّا في تصوّرها واقتراح الحلول الكفيلة بعلاجها في بحوث ترحّب بها «مجلّة اللغة العربيّة» وتنشرها وتضمن لها الذيوع الواسع.. وكلّما كانت البحوث عميقة ثريّة هادفة إلى ترقية اللغة والفكر والمجتمع و إلى تأصيل الحضارة المعاصرة في وطننا فرضت نفسها على القريب والبعيد.



التّرجمة وقلّة الزّاد

افتتاحيّة العدد: 7

نقدم إلى القرّاء العدد السابع من «مجلّة اللغة العربية» راجين أن يجدوا فيه بعض مبتغاهم، كلّ حسب اختصاصه وميوله، آملين أن يكون في خدمة اللغة ويساهم في الرقيّ بمستواها في شتّى ميادين المعرفة، شاكرين لمحرّريها جهودهم.

المقالات المنشورة في هذا العدد متنوّعة، تعالج مواضيع لصيقة بأهم قضايانا الرّاهنة في الميادين الاجتماعية والثقافيّة والتربويّة والفنيّة والعلميّة الخالصة الدقيقة التي مازال أكثره، ولزمن طويل، حكرا لغيرنا.. لكنّنا فُخُر، وحق لنا أن نفخر، بأنّ الباحثين في بلادنا بدأوا يلجون الصعب ويعرفون أنّ العبء ثقيل والطريق شاق والهدف نبيل ويدركون ما يكلّف ذلك من معاناة وصبر وحصافة وبعد نظر.

البحث النّزيه مهما بلغ عمقه وبعد مرماه لا يأمن الزلل، لأن الإنسان، مهما بلغ من العلم، يخطئ ويصيب.. إنّما الأهم العطاء الفكريّ المتواصل الرّامي إلى خدمة الوطن والإنسان والعلم والحضارة البشرية.. الوطن في أمسّ الحاجة إلى أبنائه ليضمن أصالته ويتحرّر من العزلة بالتفتّح على آفاق رحبة منعشة ويرتفع مستواه إلى مصافّ العالم المتحضّر.

رأيي المتواضع، كما يقال، أنّ المباحث في هذا العدد من المجلّة، تنحو هذا المنحى بمواضيعها المختلفة ومحتوياتها ومقاصدها.. أصيل يبحث عن التجديد والتحسين ليساير العصر ويستثمر بنجاعة،





ومستحدث يعبّد الطريق للتعامل مع الدخيل وبخاصّة في التكنولوجيا وما شاكلها، وأدبيّات ولسانيّات، وتعريف ببعض الآثار الأجنبيّة، وغير ذلك ممّا هو من صميم اهتماماتنا في العصر الرّاهن.

من أهداف المجلس الأعلى للغة العربية نشر هذه اللغة على أوسع نطاق ممكن وترقيتها بكلّ ما أتيح له وما هيّأ لنفسه من وسائل.. ومن هذه الوسائل مجلّته التي هي مرآة له والتي يأمل أن ترقى إلى ما نيط به من مهامّ سامية وتحقّق مطامحه، وما أنبلها ! لذلك نسمح لأنفسنا بأن نلفت أنظار الناشئة غير المتمرّسة باللغة أو بالبحث، إلى بعض النقاط التي نعدّها ركنا أساسا لكلّ عمل مثمر.

تعاقبت علينا منذ قرون ظروف اجتماعيّة تاريخيّة سياسيّة أورثتنا تخلّفا ثقافيّا كبيرا وتبعيّة لغويّة مرهقة في المجالين الفنّيّ والعلميّ.. ولا أدلّ على ذلك من حركة الترجمة التي عرفناها منذ عصر النهضة والتي تتقدّم بسرعة ويتسع مجالها وتطالعنا كلّ يوم بجديد.. لكنّ قلّة زادنا من اللسان العربيّ جعل غيره من الألسنة ينتقصه من أطرافه ويتحكّم في معاييره بما يشينها.. نعم !لا بدّ من أن تتطوّر اللغة وتساير العصر وتكون قادرة على استيعاب المفاهيم الحضارية الجديدة وعلى تمثّلها تمثّلا حقيقيّا يزيدها ثراء واستعدادا لكلّ طارئ.. لكن التطوّر المجدي واع، مدرك لحقيقته ولسنن الطبيعة.. أمّا أن يكون نتيجة لجهل أو قلة اكتراث فذلك وهْم وإيهام لا مراء فيهما.. علينا أن نحافظ على سلامة لغتنا لأننا حماتها، ولنا أن نطورها وفقا للمتطلّبات على أن نكون واعين لذلك كلّ الوعي.. لذلك نرجو من المتخرّجين حديثا من الجامعات ألاّ يحرّروا مقالاتهم إلا والمعجمات، قديمها وحديثها، بين أيديهم وألا يقطعوا الصلة بينهم وبين الدّراسات اللغويّة، قديمها وحديثها أيضا، وأن يكونوا حذرين فيما





يقدّمون إلى القارئ فقد كثر تداخل اللغات بسبب حركة الترجمة الواسعة التي لا مناص منها لفكّ العزلة عن مجتمعاتنا، وكثر اللحن في الصيغ وفي التراكيب العربيّة الأصيلة بل خضعت الأساليب العربيّة السلسة الناصعة إلى أساليب لا تمتّ إليها بصلة فشابتها الهجنة في المسموع والمقروء على اختلاف مجالاتهما.

نلفت النظر أيضا إلى أنّ بعض الباحثين الناشئين يفرطون في الاستشهاد أو في الإحالة على المراجع ظنّا منهم أنّ كثرتها تزيد في قيمة البحث وفي إبراز الجهد المبذول.. بل لاحظنا أنّ كل فقرة قصيرة كانت أم طويلة وكلّ فكرة سطحيّة أو عميقة تحيل إلى مرجع أو مراجع.. والحقيقة أنّ البحث بأصالته وعمقه وبعد غايته ونتيجته المتوخّاة وفائدته المحقّقة بالفعل.. والمرجع توثيق وأمانة علميّة ودليل يرشد القارئ إلى المظانّ التي يجد فيها حاجته إن أراد إثراء الفكرة المطروحة.. أمّا الإحالة في البديهيّات وفي ما لاكته الألسن فسذاجة، والإكثار منها إلى التجميع أقرب منه إلى الأصيل الفارض نفسه على العقول.







اكتساب اللغة ليس في النّحو

افتتاحية العدد: 8

ها نحن أولاء نقدّم إلى القرّاء العدد الثامن من «مجلة اللغة العربيّة» آملين أن يحقّق شيئا مما أسست من أجله هذه الدّوريّة.. ومن أهم أهدافها، المشاركة بجهد جدّ متواضع ومستوى يعرف حدوده، التمكين للغة العربيّة في بعض ميادينها، ووصل الماضي بالحاضر بما يساعدنا على استشراف المستقبل والسعي إليه بخطى ثابتة حثيثة جادّة تقلّص من المسافات الفاصلة بيننا وبين من سبقنا إلى موارد الحضارة بأوسع معانيها وأرفع مستوياتها وأثمن نتائجها.

وفي هذا العدد إحدى عشرة مقالة تهدف كلّها إلى ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة.. منها ما يبسط جهود القدماء في البحوث اللغوية وفي طرائق معالجتها وفي محاولة التقعيد لها ويكشف ما بين وضعهم ووضعنا من الروابط المتينة.. ومنها ما يقترح التجديد في التصوّر وفي معالجة المشاكل دون إلغاء القديم إلغاء كاملا، وبتعبير آخر يحثّ على تطويع القديم وتطويره.

ومن المقالات ما له، كالعادة، طابع تربويّ: اهتمام بالتعليمية، وبسط لما يعترض سبيلنا شرقا وغربا في تعليم اللغة تعليما ناجعا صحيحا يوفّر الوقت بتوخّي أنجع السبل، وعناية بالتأليف المدرسّي، وربطه بواقع المتعلّم وبالمحيط، وتأسيسه على الأولويّات ومسايرة روح العصر.




والحقيقة أنّ معظم الجهود المبذولة في هذا المضمار تركّز على تبسيط النحو وتطويره بما يجعله سهل المتناول، ملائما لعصر، وهو أنر ضروريّ لا محيد عنه.. وقد تناول الموضوعّ عدد من المجمعيّين في مصر وسوريا والعراق ومن الباحثين الأحرار واقترحوا حلولا متفاوتة ونهجوا في ّتجديد النحو « سبلا متباينة.. ومنهم من أخضع النحو العربّي إلى تصوّرات لا يتحمّلها وقام المترشّحون لشهادتي الماجستير ودكتوراه الدولة في الجامعات الجزائرية، بدراسات ميدانيّة تصوّر حقيقة الوضع في مدارسنا لكّن معظم هذه الجهود بقيت حبرا على ورق.. ونرجو الاستفادة منها في دوريّاتنا وبخاصّة في مؤسّساتنا التعليميّة.



وتبقى هذه الجهود محدودة في نجاعتها لأنّ اكتساب اللغة **لا** ينحصر في تبسيط النحو وتطويره بل يتجاوز إلى اختيار المادّة اللغوية المناسبة لعصرها، المحرّرة للألسنة، الكفيلة بجعل المواطن يعرب بلغته عمّا في ضميره، وذلك معنى الإعراب في الأصل.. فإذا كنّا نتقلّب في مناخ حضاريّ جلّ عناصره أجنبيّة ونسمّيها بمسمّياتها التي فرضتها علينا متطلّبات الحياة والعولمة ببعض نتائجها فإنّ لساننا يبقى حبيسا ولغتنا **لا** تتخلّص من الهجنة.. الطريق أمامنا طويل لكنّ بلوغ الهدف غير بعيد إن تضافرت الجهود.

لا ننكر أن اللغة العربيّة تحسّن مستواها في بلادنا منذ الاستقلال، تحسّن بفضل الساهرين عليها وبفضل مؤسّساتنا التعليميّة وحركاتنا الثقافيّة والإعلاميّة والسياسيّة.. فنحن نسمع الولد في الشارع يقول: الجرّار والسيّارة، والشاحنة، والقطار، والحبر، وقلم الرصاص، والراشد يسميّ بالفصحى ما كان **لا** يعرفه إلا بالفرنسية.. ونلاحظ أنّ معظم مواطنينا يتابعون الأخبار والأفلام السينمائيّة بلغتها الفصيحة بيد أن



سيرنا بطيء ونشاطنا ضعيف **لا** يستجيب لما نصبو إليه ولما يفرضه الواقع.

وفي العدد دراسات أجنبيّة، في المجال الأدبّي **أو** في الميدان اللغويّ، لم يرم من قدّمها إلى القارئ العربّي إلا إلى إعطائه نماذج من البحث العالميّ الحديث.. وبمثل هذه الدراسات يتاح التفتّح على العالم المعاصر وامتزاج ثقافاته كما امتزجت الثقافات القديمة في الأعصر العبّاسيّة فأنتجت أمثال الجاحظ والبيروني والتوحيديّ والفارابيّ وابن سينا وأضرابهم كثير.. ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أدعو الله مخلصا أن يقيض للّغة العربيّة وثقافتها من يخدمها جاهدا بأن ينقل إليهما ما تيسّر له من إنتاج الفكر الحديث ينقله بكفاءة وأمانة، ولا يتأتّى ذلك إلاّ لمن كان ضليعا بلغته مستأنسا لما ينقل.. وليس ذلك بالأمر الهيّن **لا** على المترجم ولا على القارئ إن لم يكن البحث المنقول من اختصاصه **أو** كان يتّسم بنوع من الصعوبة حتّى في لغته الأصليّة.



هذا ونلتمس من الرّاغبين في نشر مقالاتهم أن يرسلوها مسجّلة في أقراص ليّنة ويراجعوها بأناة وبكلّ عناية وألاّ يعتمدوا في ذلك على هيأة التحرير فليس للهيأة ما يمكّنها من كتابة البحث وتصحيحه.. ثم إنّ ذلك إضاعة لوقت الغير وهو ثمين ومدعاة للتحريف غير المقصود وهو ما **لا** يرضاه أحد لما فيه من مخالفة لأهداف المجلّة ولما تقتضيه الأمانة العلميّة.. وقديما قيل: «ما حكّ جلدك مثل ظفرك».

من أهداف المجلة، كما ذكرنا، خدمة اللغة، والحيطة لها، والحدب عليها، والتمكين لها ما وجدت إليه سبيلا.. والالتزام بمعاييرها الثابتة وقواعدها الراسخة وطرائقها المنطقية في الإعراب عن الأفكار **لا** مناص منه لأنه يقيها التشويه والهجنة لا نريد بهذا أن نقف حجر عثرة في سبيل



تطورها وتطويرها.. أمّا تطورها فأمر طبيعي تفرضه سنن الحياة.. ولا أدل على ذلك من كونها لبست لكل حالة لبوسها عبر القرون الهجرية الخمسة عشر فتغيرت ثروتها المعجمية بالزيادة والنقصان وأميتت فيها دلالات وأحييت أخرى وتعاقبت عليها الأساليب الإنشائية في مختلف العلوم والفنون.. وأما تطويرها فأمر فرضته الحاجة وانتشار الثقافات ومتطلبات الحضارة الدائبة في المسير لكن هذا التطوير نتج عن وعي كامل وإرادة قوية حرة وحاجة ملحة إلى التغيير ولم يحدث عن جهل بقواعد اللغة ومعاييرها وعبقريتها.. أريد أن أخلص إلى أن الكاتب كل كاتب لا يستطيع الاستغناء عن المعاجم عندما يحرر، وعن الرجوع المستمر إلى مظان اللغة على اختلافها في الاختصاص وأن كل عدول عن نظام من نظم اللسان العربي لا يكون إلا عن قصد ولا يحق إلا لمن يدرك دقائق الأمور.





حتّى لا نستكين لعبقريّة العربيّة

افتتاحية العدد: 9

نَشْرُفُ بتقديم العدد التاسع من «مجلّة اللغة العربيّة» إلى القرّاء، شغل بالهم من القضايا الهادفة إلى خدمة اللسان العربيّ بما يصل حاضره بماضيه ويمهّد له السبيل الأمثل لمواكبه عصره، عصر الحضارات الرائدة، والعلوم والفنون المتطوّرة تطورا مذهلا، والتكنولوجيا المهيمنة على العالم، الفارضة نفسها عليه، لأنها لصيقة بحياته، وعلى لغاته لأن اللغة، في أهمّ وظائفها، أداة تواصل بين الأفراد والمجتمعات والعصور وحضاراتها ووسيلة كلّ إنجاز علميّ.. وما من لغة عجزت عن تقوية الرّوابط بينها وبين عصرها إلاّ أسرع إليها التخلّف فالاضمحلال فالزوال.



«مجلة اللغة العربية»، في المجال المرسوم لها، وفي حدود إمكانها، رافد من روافد النشاطات المتعددة المتكاملة التي يقوم بها المجلس الأعلى.. في هذا المجال وفي هذه الحدود تتمّ جهود محرّريها.. والعدد التاسع منها يهدف في مجمله_إلى غاية واحدة وإن ظهرت محاوره متنوّعة.. يرمي إلى خدمة الفصحى بمقالات كرّسها أصحابها لتسهيل اكتساب هذه اللغة في المؤسّسات التعليميّة، بالوسائل الثابتة الطبيعيّة في تعلّم اللغات وتعليمها وأهمّها الممارسة بجميع أشكالها، وتبسيط بعض الموادّ إلى أقصى حدود التبسيط دون إهمال ما ليس منه بدّ، ورفع مستوى التأطير، وتوفير الوسائل الحقيقيّة له، والإفادة من الوسائل

المستحدثة المتطوّرة ومن التجارب الرّائدة في هذا الميدان.. وفي العدد ما هو نظريّ نرجئ الحديث عنه.

بسط أحد المحرّرين موضوع أدب الأطفال في علاقته بالأدب العامّ، وفي أسباب انتشاره في العصر الحديث لاسيّما عند الأجانب، وفي مدى توفّره في الأقطار العربيّة والقضايا التي يطرحها عليها بإلحاح، وفي أسسه وتجلّياته، وفي قيمه التعليميّة والتثقيفيّة والخلقيّة والروحيّة، وفي تكوين الإنسان المعاصر وقد ركز الكاتب مقالته في الدّراسات العالميّة الحديثة وبخاصّة في الأدب المقارن، راميا، بالموضوع المبسوط وبأهمّ روافده من المراجع إلى توسيع آفاق الناشئة من القرّاء والباحثين.

ومن المقالات ما خصص لمفهوم «اللغة الأم» والواقع اللغويّ الجزائريّ وتعدّد لهجاته، والقضايا التي يطرحها في الميادين الاجتماعية والعلميّة التربويّة، ولاقتراح حلول تخفّف من وطأة هذا الواقع أو تساهم في إزالتها.. ومنها ما قدّم مجموعة من النماذج بحث فيها التطوّر الدّلالّي اللغويّ وأسبابه، مؤكدا بذلك لزوم البحث في هذا الموضوع الثريّ لوضع «المعجم العربيّ التاريخيّ» الذي نفتقر إليه والذي يتطلب تضافر الجهود وتعاقب الأجيال وبحوثا هادفة مثابرة وسياسة محكمة لإنجازه ليس بالأمر الهيّن ولا ممّا يحكم فيه باليقين لكثرة ما ضاع من المصادر وما ينتظر النشر والتحقيق ولما يفرض من الدّراسات المتأنّية المركّزة.

ومنها ما بحث في أسباب بقاء العربيّة و «انقراض» اليونانيّة واللاتينيّة وهو من المواضيع الجديرة بالبحث المتقصّي، وقد لفت أنظار الكثير من الباحثين الشرقيّين والغربيين.. ويكادون يجمعون على أنّ العربيّة استطاعت بعبقريّتها وثرائها وما تحمل من عناصر التغلّب على غيرها من اللغات التي احتكّت بها أن تصير أداة كلّ ثقافة وحضارة في المحيط الواسع





الذي نفذ إليه الإسلام دينا.. إلاّ أنني أحذر من الرّكون إلى مجرّد عبقريّة اللغة وثرائها وجعلهما سبب الصّمود لعوادي الدهر كما يقال.. فالعربيّة تطوّرت في اتجاهين مختلفين: تطورت في كنف القرآن فرعاها فحافظت على سماتها، وفتّق طاقاتها في مختلف العلوم والفنون الإسلامية، ومكّنها من استيعاب الحضارات القديمة فاستوعبتها وأسّست لنفسها حضارة أصيلة متفتّحة وتطوّرت تطورا طبيعيّا فاستحالت لهجات دارجة منتشرة في الشرق الأوسط وفي المغرب الإسلاميّ.. وهذا الارتباط الوثيق بالقرآن مع أهميّته الكبرى، سيتلاشى ما لم يحافظ مستعملو الفصحى على كيانهم بتنمية قدراتهم الاجتماعيّة والفكريّة والاقتصاديّة وبفرض وجودهم في هذا العالم الذي لا يرحم ضعيفا.. وهل مُكِّن للغة الإنجليزيّة في البسيطة بغير هذه القدرات؟



وفي العدد عناوين قيّمة، لا يتّسع المجال لعرض مادّتها ولو بإيجاز شديد.. إنما نلفت نظر القارئ الكريم إلى بحثين بارزين:

يعرض أوّلهما دراسة أدبيّة نقدية للمستشرق الألمانيّ ر.. جاير (R.. Geyer) تتناول شعر الأعشى الأكبر ميمون بن قيس وبالأخصّ قصيدتيه «ما بكاء الكبير بالأطلال....» و«ودّعْ هريرة إنّ الرّكب مرتحل....» وكان نقلهما إلى الألمانيّة بعبقريّة ملحوظة ومثل هذه الدراسات الأجنبيّة يثري النقد العربيّ ويعطينا أنموذجا من تصوّر الأجانب لبعض آثارنا الفنّية.

ويبسط ثانيهما، بعنوان «من أصالة الجذور إلى جذور الأصالة: نظريّة النحت الأكبر» مذهبا لغويّا جديدا مخالفا لمذاهب القدماء والمحدثين من الشرق ومن الغرب.. وصاحب النظريّة من أساتذة السوربون ومن كبار الباحثين في الأدب العربيّ الحديث وفي اللسانيّات.. عرفته عن كتب



منذ زمن بعيد فعرفت فيه الجدّ في الدراسة والمثابرة على العمل والطموح إلى الجديد.. والمجلّة تقدّم هذه النظريّة، بمادّتها الأساس وجداولها وخطوطها البيانيّة ورسائمها (histigrammes)، لا لكونها مقتنعة بها، فإنّ ذلك يتطلّب الكفاءة والدراسات المتأنيّة العميقة ومعرفة أصول العربيّة الضاربة في القدم معرفة حقيقيّة، ولا أحد يجرؤ على ادّعاء ذلك، إنما تقدّمها إلى القرّاء محرّرة بالفصحى، مع أنها ليست لغة صاحبها الأصليّة، تقدّمها إليهم للاطّلاع عليها، وإلى المتخصّصين للنظر فيها.





العرب لا ينتجون سوى ٥.. 35 ٪

افتتاحيّة العدد: 13

ها نحن أولاء نقدم إلى القارئ الكريم العدد الثالث عشر من « مجلة اللغة العربية »، آملين أن يجد في محتواه بعض مبتغاه **أو** ما يستحثه على إثرائه وعلى الإسهام في خدمة العربية التي كانت الهدف الأسمى لتأسيس هذه الدورية وفي نشر المعرفة بشتى ميادينها ومختلف مظاهرها، شاكرين لمحرري مقالاته جهودهم الجديرة بكل تقدير، الشاهدة بفضلهم وبرغبتهم في العطاء.



تتوزع العدد خمسة محاور متكاملة تخدم كلها، بموادها وبنتائجها، غرضا واحدا، وإن شئت قلت أغراضا متلاحمة يصعب الفصل بينها:

– تراجم لعلماء بارزين من أبناء هذا الوطن وهبوا حياتهم لمجتمعهم ولتنويره والذب عن مقدساته بما أوتوا من صدق في القول وإخلاص في العمل وبجد مثالي دؤوب أنتج آثارا يعتز بها كل غيور على وطنه ورسخ مآثر بل مناقب أقل ما تفرض علينا أن نلفت إليها الأنظار وأن نعرف بها تعريفا وافيا ونخصها بدراسات مفصلة وننوه بها وبأصحابها تنويها يليق بها وبهم، وفي ذلك اعتراف بالفضل وبذويه.

– ودراسة تناولت بالبحث قضية نقل الثقافات الأجنبية في الأعصر العباسية الزاهرة وفي عصرنا هذا.. وقارنت بين الجهود المبذولة والوسائل المسخرة والنتائج المحصلة في القديم وفي الحديث وأثارت مشاكل تطرح نفسها علينا بحدة وتتطلب منا الكثير الكثير لاسيما في مجالي العلوم والتكنولوجيا.



وألفت نظر القارئ الكريم إلى أننا في حقيقة الأمر لا نكاد ننجز شيئا لا في مجال النقل ولا في غيره.. فالإحصاءات التي نشرتها اليونسكو، لسنة 2004، أثبتت أن الإنتاج في العالم العربي وفي جميع الميادين لا يتجاوز 0.. 35 %بالنسبة إلى الإنتاج العالمي.. والأسباب عديدة معروفة.

– وفي العدد بذرة طيبة تتمثل في نقد «المبرق»: المعجم الموسوعيّ في علوم الإعلام والاتصال الذي ألفه الأستاذ محمود إبراقن ونال به جائزة اللغة العربية لعام 2000.. درسه الأستاذ فرحات بلّولي فعرض محتواه وأبرز أهميته البالغة وعده أول عمل ينجز على صعيد العالم العربي في مجال علوم الإعلام والاتصال، ولاحظ عليه بعد الهنات الممكن تداركها لأن معظمها، فيما أعتقد، راجع إلى الأخطاء المطبعية كما عاب على واضعه قلة اهتمامه بالتراث العربي وهو غزير وعدم استثماره للاشتقاق وهو المصدر الأساس في ثراء اللغة العربية.



– وأنا واثق من أن لِواضع المعجم رأيه أو آراءه في الموضوع ومن أن مثل هذه الملاحظات البريئة البناءة تبين قيمة أثره العلميّ واهتمام مواطنيه به.. لكنّ ما يثلج الصدر أنّ هذه الملاحظات خير مثل لما ينبغي أن يصحب كل إنتاج، مهما كان ميدانه، من دراسات نقدية تثريه.. فتلاقح الأفكار أحسن وسيلة لتقدم العلم ولاكتشاف المنهج القويم.. ولنا أسوة في التراث العربي القديم وفي الإنتاج العالميّ الحديث.

– ومن المقالات ما أبرز دور المؤسسات، مهما كانت طبيعتها، في تمكنيها للغة وجعلها الدّعامة الأساس لتحقيق مراميها والأنماط التي تقوم عليها والسلوك الذي تريد ترسيخه.. ولا يتأتى لها ذلك إلاّ بلغة لصيقة



بالواقع المعيش مؤدّية لمفاهيمه نابضة بحياته مرنة طيعة.. ومنها ما أرّخ لتأسيس معهد العلوم اللسانية وأبرز منجزاته في ترقية اللغة العربية منوّها بوضعه طريقة مثلى للتعليم في مراحله الثلاث مبرزا أهمّيّة « الذخيرة اللغوية العربية » التي كان أوّل داع إليها.

– ويدرس الأستاذ أحمد فريحة أثر الفقهاء في مدرسة النحو الكوفيّ، معتمدا في ذلك بعض الأدلة.. منها أنّ علماء النحو غالبا ما يختلفون إلى حلقات الفقهاء في مساجدهم يأخذون عنهم العلم فتأثّروا بمناهجهم ووضعوا للنحو أصولا أربعة: السماع والقياس والإجماع والاستصحاب، وهي بالضبط ما ورد في أصول الفقه.. ونحن، إذ نشجعه على متابعة مثل هذه الدّراسات في تاريخ النحو وعلى نشرها، واثقون من أنه إن واصل عمله حصّل نتائج بالغة الأهمّيّة أبرزها أنّ النحو العربيّ أصيل نبع من علم الكلام ومن أصول الفقه ومن الفقه نفسه والتفسير والرواية والتدوين.. وأن الكثير من النحاة لا سيّما المعتزلة منهم كانوا مشاركين موسوعيّين كالفلاسفة في العصور المتأخّرة.. لذلك نجد المدارس النحوية كلّها تعتمد الأصول الأربعة المذكورة.



أمّا صعوبة النحو العربيّ وسهولته، وهي المشكلة التي عالجها الأستاذ محمّد الحبّاس في مقاله « النحو العربيّ بين التيسير والتدمير » فقضيّة قديمة جديدة أثيرت منذ القرن الثالث الهجريّ ومازالت تثار إلى يومنا هذا.. طالب القدماء بتيسير النحو وقصْره على ما يقوم اللسان.. فصنفت متون لم تلبث أن أرهقت العقول بالشروح والحواشي والهوامش.. ووقف المعاصرون عند النحو كما تصوّره مبدعوه منذ اثني عشر قرنا بل عجزوا عن التمييز بين النحو العلميّ والنحو التعليمي وظنوا أنّ العربية **لا** يدخل إليها إلاّ من باب النحو بصورته القديمة فكان وبالا على المعلّم والمتعلّم..



وقد بيّن صاحب المقال محقّا أنّ النهج الأمثل لتعليم اللغة يكمن في الطريقة والاقتصار على الأهمّ **و** «حسن التبليغ» كما يقول الأستاذ بشير إبرير في مقاله القيّم «قوّة التواصل في الخطاب الإشهاري».

وينعى الأستاذ جمال العيفة على الوسائل السمعيّة البصرية كالتلفاز والمذياع أنها شغلت الناس عن القراءة رغم ما لها من أهمّيّة في تكوين الفكر وإكساب الملكات وإرهاف الحسّ والسموّ بالروح وتوطيد الصلة بين المجتمعات والحضارات.

ونشير في الأخير إلى أن هذا العدد ضم بعض النشاطات الثقافية والعلمية سواء منها التي قام بها المجلس وحده كالندوات والمحاضرات والإصدارات أم التي ساهم فيها **مع** الأطراف المعنية.





التّرجمة وتوسيع المعارف

افتتاحيّة العدد: **14**

نقدم العدد الرابع عشر إلى القارئ الكريم، مبرزين بطريقة، نرجو أن تكون مبسطة، مضامينه ومجمل مقاصده:

– مقالة تمهيدية لسلسلة من البحوث في علم اللسانيات خصصها صاحبها للمدرسة الوظيفية من خلال « مبادئ اللسانيات العامة: للعالم الفرنسي أندريه مارتنيه، بهدف بسط محتواها وإبراز معالمها وطرائقها وأهدافها للقارئ العربي الذي لم يسعده الحظ على معرفتها في لغتها الأصلية.

– وحث للأساتذة ومحللي النصوص الأدبية على اجتناب الرتابة والنمط الواحد الجاهز المورث للعقم المحجر لفكر التلميذ وعلى النفوذ إلى ما جد في العالم التربوي من طرائق تناول النصوص وتعدد القراءات للنموذج الأدبي الواحد وعلى جعل المتعلم مبدعا دؤوبا في شحذ فكره **لا** مجرد متلق.



– واستنهاض للهمم وحض على العمل الجاد المستمر للّحاق بالعالم المتحضر المبدع في جل ميادين الفكر والذي لم يترك لغيره سوى المعاناة الشديدة في وجود مقابل لمصطلحات وضعها بدون معاناة لأن بيده مقاليدها **لا** سيما في العلوم الدقيقة والتجريبية وفي التكنولوجيا، ويرى صاحب المقالة بحق أن العرب اليوم في وضعية **لا** يحسدون عليها.. ومرد ذلك، في ما أعرف، إلى أسباب تاريخية **لا** تخفى على أحد إلى



عوامل سياسية أورثت أوضاعا اقتصادية واجتماعية وثقافية مزرية، وإلى قلة التبصر وعدم الاكتراث بالإنتاج في حقول المعرفة الضامنة للتقديم الحضاري، والدليل على ذلك أن العلوم العربية الأصيلة بقي الكثير من مصطلحاتها بلا مقابل في اللغات الأجنبية فاعتمدت كما هي **مع** تحريف تقتضيه طبيعة هذه اللغات.

وأثر الترجمة في النهضة الفكرية العربية منذ القرن السادس عشر الميلادي وأهم أطوارها وأبرز معالمها في المشرق والمغرب، ودورها في إحياء اللغة العربية وفي مقاومتها لحركة «التتريك» على عهد العثمانيين، وفي التفتح على العالم الخارجي بالأخذ والعطاء، وفي مساعدتها على التطور مع المحافظة على أصالتها.

- وبحث في حركة الترجمة يتناول انعكاساتها على وضع اللغة العربية الحالي، ويبين أهمية استيعاب الثقافات الأجنبية ونقلها، ويعدد نقائص هذه الحركة وما تتعرض له من مثبطات بل وعراقيل متنوعة، وينعى ضحالة حركة النقل في العالم العربي لا سيما في ميادين العلوم والتكنولوجيا، ويقترح حلولا لتحسين الأوضاع ولجعل الترجمة أداة تقدم حقيقي.

- ودعوة ملحة إلى القارئ العربي والناقد الأدبي المعاصر إلى توسيع مجاله المعرفي لفهم بعض النماذج الأدبية الحديثة التي تعتمد الأسطورة وعلم الأساطير عن بعض مفاهيمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وفي تجلياتها المختلفة وأخذها عن التراث البشري قديمه وحديثه.. فلا تخلو أمة في العالم من أساطير فسرت بها في سالف عهودها حقائق تاريخية أو علمية أو عقدية أو أخلاقية، ومن أدب رفيع نقلها إلينا فأفاد منها، في بعض آثارهم، عدد قليل من أدبائنا، متأثرين بالأدب الغربي المعاصر.

- وعرض لحياة الفقيد (أبو العيد دودو) ودوره القيم المثالي في ميدان



التاريخ الجزائري من خلال آثاره القصصية ودراساته ومما نقل إلى العربية من كتب قيمة في هذا الميدان.

– وإشادة بمعجم «المبرق» أول قاموس موسوعي عرَّب مصطلحات الإعلام.. أحرز به مؤلفه من مجلس اللغة العربية، الجائزة الأولى، وتقدير للجهود المضنية التي بذلها صاحبه في إنجازه، مع نقد خفيف أخوي نزيه لا يهدف إلا إلى خدمة العلم.

– وتعريف بحياة العلاّمة عمر بن أبي حفص الزّمّوريّ (نسبة إلى زمّورة برج بوعريريج) وبأعماله العلمية التراثية.. والمقال عرفان وتعريف بعالم جزائري جليل قل من لا يعرفه.

– ودراسة لظاهرة «الإيقاع» في اللغة العربية شعرها ونثرها، منطوقة ومكتوبة، ولأثر هذا الإيقاع في الأداء وفي الفن وأرى أن هذا الميدان واسع لم يبلغنا منه إلا القليل لأن العربية لم نعرفها في الحقيقة إلا مكتوبة، والكتابة رمز باهت لا يمثل المنطوق إلا من بعيد.. ولفظ «اللسان» دالاّ على اللغة خير مثال لما نريد إثباته.. و «اللغة» من «لغا الصبّي» تكلّم، ونرجو أن يشفع هذا المقال القيم ببحوث أخرى مماثلة أو مقاربة.

– وبحث في الجملة الشرطية العربية وصلتها بالألسنة الحديثة.. ومثل هذه المواضيع ثريّ لاسيما إذا كانت المقارنة قائمة على أمثلة عديدة دالّة.







عالمٌ كدنا ننساه.. .

افتتاحية العدد: 15

شهر نيسان / أفريل ويوم العلم !وذكريات وملتقيات واحتفال بأمجاد الخالدين الواقفين حياتهم على خدمة الوطن وإعلاء كلمة الحق فيه ونشر الثقافة في دياره !وتكريم للإبداع الأدبي !رعاها فخامة رئيس الدولة بمناسبة زيارته لقسنطينة، مدينة العلم ومدينة عبد الحميد ابن باديس، وباشر بعضها بنفسه.



ذلك ما جعلني أجيب، على استحياء، طلب بعض زملائي من المجلس الأعلى، فأذكر بعالم جزائري فذّ كاد الناس ينسونه لأنهم لا يعرفون إلا القليل من حياته وأعماله العلمية، ذلك هو محمد ابن أبي شنب الذي أعطى المثل في اكتساب المعرفة ونشرها وفي البحث الجامعي الدؤوب ففرض نفسه على العالم بآثاره ومآثره.

ولد محمد بن العربي في 12 رجب / 16 أكتوبر 1869 بقرية تقبو بالقرب من المدية وتوفي بالجزائر العاصمة في 27 شعبان 1347 / 8 فبراير 1929، أسلافه من مدينة بروسا / بورسا، بآسيا الصغرى، وكانت في القرن الثامن الهجري، وقبل فتح الفسطنطينية، عاصمة الدولة العثمانية، نزح بعضهم إلى مصر ثم إلى الجزائر وبها استقر وأعقب.

أصهر العربي ابن أبي شنب إلى آل باشتارزي وهم من تركيا أيضا فولد له محمد وكان يفلح أرضا بالقرب من المدية.. ولما بلغ محمد الخامسة أو السادسة من عمره أدخل أحد كتاتيب قريته فحفظ ما تيسر



له من القرآن، وانتقل إلى مدرسة ابتدائية فرنسية ثم إلى معهد ثانوي بالمدية، وأرسل إلى مدرسة المعلمين ببوزريعة فأحرز بعد سنة واحدة شهادة التعليم، وعين، سنة 1888 ولما يتجاوز التاسعة عشر من عمره، مدرسا للغة الفرنسية بقرية تامجارت البدوية، على ثلاثين كلم من المدية، وبعد أربع سنوات من التعليم بها، نقل إلى مدرسة الفاتح بالقصبة، حيث قضى ست سنوات فتحت له آفاق المستقبل، ورسمت له معالم حياته، ومكنته من إثبات عبقريته وإبراز مواهبه الفكرية وأغزر بها من مواهب !

كان يعلم الفرنسية بالقصبة لأبناء « الأهاليّ ويكون نفسه في آن واحد كان يجمع بين تحسين مستواه في الفرنسية فيختلف إلى الثانوية بين الرغبة في اكتساب اللغة العربية وآدابها فلا يفارق المسجد ومدرسة الآداب، ويتابع الدروس الشخصية وأدرك في عهد مبكر وفي ظروف حالكة فائدة التفتح على العالم الخارجي مع المحافظة على الأصالة.

درس العربية والبلاغة والتوحيد والحديث وأنساب العرب والمنطق الصوري والفارسية والعبرية والتركية واللآتينية والإسبانية والألمانية، وترشح لنيل القسم الأول من شهادة الباكالوريا فنجح لأول وهلة وأصيب بالجدري فعاقه المرض عن المشاركة في القسم الثاني من الباكالوريا، فعدل عنه إلى ما كان يدعى « الشهادة التكميلية في العربية » (brevet d ’ arabe) ثم إلى « الشهادة العليا في العربية » (diplôme d ’ arabe).

ومن أساتذته الشيخ عبد الحليم بن سماية، وابن سديرة، وحبر لزمه طويلا ليأخذه عنه العبرية، وأساتذة جامعيون فرنسيون أشهرهم كات وفانيان وباسي.. وفي هذه الفترة عوض مدة سنة أستاذه ابن سديرة بمدرسة الآداب وفي 22 من شهر مايو سنة 1898 عين أستاذا بمدرسة قسنطينة، وبها درس قواعد اللغة العربية والأدب والفقه، وفي سنة 20



من نيسان / أبريل انتقل إلى مدرسة الجزائر العاصمة وبها بقي إلى سنة 1926 يدرس العروض والترجمة وفي عام 1904، تطوع لشرح نصوص من صحيح البخاري، في مسجد السفير بالقصبة.

أسست جامعة الجزائر 1908 فعين محاضرا بها في كلية الآداب مع احتفاظه بمنصبه في المدرسة، وهناك ظهرت عبقريته وسعة أفقه ومقدرته الفائقة في التعليم العالي والبحث العلمي المتعدد الجوانب، العميق الأثر، وفي وفرة إنتاجه.. وفرض نفسه في الجامعة فكان عدد المستمعين إلى محاضراته في تزايد مستمر وذاع صيته في الأقطار العربية وفي الغرب، وتوثقت الصلة بينه وبين العلماء العرب والمتشرقين فكان يراسل الكثير ممن عرفوه في المؤتمرات العلمية العالمية ومن خلال دراساته.. راسل بصفة خاصة مستمرة الإسبانيين كوديرا وبلاسيوس، والإيطالي غريفيني، والروسي كراتشوفسكي، والمصري أحمد تيمور، والتونسي حسن حسني عبد الوهاب، وبعض رفاقه من المجمع العلمي بدمشق، وكثيرا من علماء المغرب الأقصى.



عرف فضله فانتخب سنة 1920 عضوا في المجمع العلمي بدمشق، وحرر رسالة نال بها دكتوراه الدولة بجامعة الجزائر (1922).. وبعد ذلك بقليل خلف رونيه باسي (R.. Basset) على كرسي اللغة العربية وآدابها (1924).. وفي سنة 1928 انتدبته جامعة الجزائر لتمثيلها في مؤتمر المستشرقين بأوكسفورد.

أما آثاره فغزيرة متنوعة، جمعت بن التربية وفن التعليم، والحديث والفقه والأدب، فصيحه وعاميه، وقواعد العربية والعروض وتصنيف المعاجم وجمع الأمثال والتاريخ وعلم الاجتماع وتحقيق التراث ونشره وترجمته.. وقد أحصينا منها سبعة وخمسين أثرا ما بين بحث قصير



وتأليف يبلغ الثلاثة مجلدات مثل «كتاب الأمثال في الجزائر والمغرب» بالمعنى القديم للفظ المغرب.. أضف إليها البحوث الستين التي نشرت في دائرة المعارف الإسلامية القديمة.. وسنعرّف بهذه الآثار في عدد آخر من المجلة لأن «كلمة الافتتاح» لا تناسبها ولأنها في حاجة إلى بعض التفصيل.. أما دائرة المعارف الإسلامية الجديدة التي أخذنا عن نصها الفرنسي جل المعلومات الواردة في هذه الكلمة فخصته بمقال واف وذكرت أهم المراجع التي اعتمدها محرر المادة.

ذكاء وقاد، وطموح قل نظيره، وعزيمة راسخة، ورغبة في المعرفة بعيدة المرامي، وعمل دؤوب لا ينال منه تعب لما رزق صاحبه من بنية جسدية قوية عزيمة راسخة وإخلاص للمبادئ، ذلك ما يميز محمد ابن أبي شنب العالم الفاضل المخلص لوطنه العامل على التعريف بتراثه ونشره في العالم.



ولعل خير ما نختم به هذه الكلمة التي لها ما يتبعها فقرة من خطبة للشيخ البشير الإبراهيمي في حفل تأبين الفقيد محمد ابن أبي شنب بالعاصمة: «مات محمد فأيقن زملاؤه وشركاؤه في الصنعة أنهم فقدوا بفقده ركنا من أركان العلم الصحيح وعلما من أعلام التاريخ الصحيح ومثالا مجسما من الأخلاق العالية والخلال الرفيعة، لا !بل فقدوا معيارا من أصدق المعايير لقيم الروايات وعينا لا تغرّ صاحبها بالسراب، **لا** بل فقدوا عقلا هذبه العلم وعلما هذبه العقل فأنتجا خير النتاج، **لا** ! بل فقدوا مثالا كاملا من حياة العمل والنشاط والعبادة للعلم والفناء في العلم».



نعم.. العربيّة تطوّرت

افتتاحية العدد: **16**

كثر الجدال في اللغة العربيّة الفصحى.. فمنهم من يزعم أنها بقيت متحجرة أو كالمتحجّرة طوال خمسة عشر قرنا.. وآية ذلك أنّنا مازلنا نفهم معظم شعر امرئ القيس وجرير البحتريّ والمتنبّي وأبي العلاء المعرّيّ.. ولا يفوتنا إلا القليل من القرآن والحديث ونثر الجاحظ وابن العميد والشريف الرّضيّ.. بينما يعجز الفرنسيّون أو الإنجليز عن فهم كتّاب القرن السادس عشر وشعرائه أمثال رابليه وشكسبير.



والحقيقة أنّ العربيّة تطوّرت كثيرا، كما تطوّرت اللغات الغربيّة، لكنّها سلكت اتّجاهين: اتّجاها رعاها فيها الدّين، وبخاصّة القرآن الذي يُتلى آناء الليل وأطراف النهار ويفسّر باستمرار، وبلغته نهضت العلوم والفنون على اختلاف ميادينها وازدهرت الآداب وشرعت القوانين والأحكام وبرزت الصّحافة وغيرها ممّا يقرأ يوميّا، وعليها أسس التعليم وكل ما كان لغة رسميّة.. هذه اللغة حافظت على معياريّتها عبْر القرون.. ونرى أنّها ستحافظ عليها ما آزرها القرآن والشريعة الإسلامية.

لكن هذه اللغة وفي هذا الاتّجاه تطوّرت تطوّرا مدهشا بالّرغم من محافظتها على معياريّتها.. فقدت الكثير من مفرداتها وصيغها الصرفيّة لاسيّما في ميادين الجموع والأوزان الصرفيّة والدلالة.. فقد يحدث أن تجد في «لسان العرب» ثلاثة وعشرين جمعا للكلمة الواحدة نتيجة لتعدّد اللهجات، وصيغا عديدة للّفظ الثلاثيّ الواحد اسما كان أم فعلا أم



حرفا.. ودلالات لا تكاد تحصى.. وخير مثال لذلك المادّة « ضرب »: خصص لها ابن منظور في اللسان أحد عشر عمودا.. بل خذ أيّ مادة من موادّ المعاجم المبسّطة تجدْ نفسك لا تعرف إلاّ النزر من دلالاتها.

خفّت اللغة إذنْ وسلستْ على يد الكتّاب والشعراء وعلماء البلاغة والنقّاد الذين عملوا جاهدين على تنقية اللغة من كلّ ما يمجّه « الذّوْق السليم » وهذا من أهمّ سمات تطوّر الفصحى في ظلّ القرآن.

وكان العرب منذ العصور الجاهليّة السحيقة، وبفضل الرحلات التجاريّة وغير التجاريّة التي وصلتهم بفارس والرّوم والحبشة واليهود والنّصارى اقتبسوا الكثير من مختلف اللغات وعرّبوها وتبنّوها ولهجتْ بها ألسنتهم، وعدّوها من لسانهم.. وأثر ذلك في معاجمهم، ومن هذه الألفاظ ما ورد في القرآن الكريم كـ « الأب، وإبليس، وأساطير، وإستبرق، وإفك، واللاّت (من الأشوريّة)، والإنجيل، والتنور، والتوراة، والجبّار، والأجداث، والجنّة، وجهنّم، والحجّ، والخمر، والرحمن، والرّحيق، والزّيتون، والأسباط، والأساوير، والصيّام، والصّلاة، و الزكاة، و الأصنام، وغير ذلك ممّا صار عربيّا بكثرة الاستعمال وتقادم العهود.. ورد في القرآن كما ورد غيره ممّا لم يعهده العرب وهو عربيّ خالص تغيّرت دلالته بالتوسّع وأنواع المجاز والاستعارة وضروب الكناية وما إلى ذلك مّما يدركه المختصّون في علوم القرآن.



فتحت الشّام والعراق ومصر والمغرب بدلالته القديمة وبخاصّة الأندلس، كما فتحت فارس والسّند، وتكونت الحضارة العربيّة الإسلاميّة ثّم ازدهرت وامتزجت الشعوب واللغات والثّقافات وتلاقحت وكان بعضها لبعض ظهيرا في النهوض بالحضارة الجديدة وإثرائها وجعلها تراثا عالميّا اعتراف به القاصي والدّاني.



وجاء عصر الاقتباس من الحضارات القديمة يونانيّها وفارسيّها وهنديّها فترجم من اليونانية على سبيل المثال لا الحصر ما يربو على 105 كتب في الفلسفة والأدب والمنطق والطبّ.. منها 8 لأفلاطون و19 لأرسطو و10 لأبقراط و48 لجالينوس وبضعة وعشرون في الرياضيّات والنجوم لإقليدس وأرخميدس وبطليموس وأضرابهم ونقلوا من الفارسيّة نحو 20 كتابا في التاريخ والأدب، و30 من السنسكريتيّة ومعظمها في الريّاضيّات والطبّ والنجوم والأدب و20 أو يزيد من السريانيّة أو النبطيّة أغلبها في السحر والطّلّسمات ما عدا كتاب الفلاحة النبطيّة في الزراعة ومن الكتب ما نقل عن اللاّتينيّة والعبريّة (راجع في كلّ هذا فهرست ابن النديم).

وسعت العربيّة هذه الثقافات ونقلتها بجرأة وأمانة وأسّست عليها حضارة متميزة وبما أنّ اللغات تختلف في التصوّر والتعبير عن الأشياء وفقا لأصحابها ولمعتقداتهم وتجاربهم وتاريخهم وللأرض التي يتقلّبون فيها وجدت الفصحى بعض الصعوبات في التعامل مع بعض المفاهيم التي لم تخطر ببال العرب لقلّة زادهم في مثل هذه المعارف فركبوا الصّعْب وطوّعوا لغتهم للغات الرّافدة واخترعوا ما لم تكن تقبله الأجيال السابقة.

أدخلوا أداة التعريف على الضّمير فقالوا «الأنا» واخترعوا ما ندعوه بالمصدر الصّناعيّ فاستنتجوا «الأنانية» (والعرب تسمّيها الأثرة) والهوية ومنها «بطاقة الهويّة» في عصرنا هذا، والإنسانية ومثل ذلك مّما نراه طبيعيّا ولا يفهمه الأصمعيّ وعمرو بن العلاء بل أدخلوا أداة التعريف على الجملة فقالوا «اللاأدرية» من «لا أدري» و«اللاّشعور»، وأثروا اللغة الفصحى بآلاف الكلمات والدّلالات التي لا عهد للقدماء بها.

رافقتْ هذه الحركة حركة أخرى لا تقلّ عنها أهمّيّة وبعد أثر، حركة التّدوين وتأسيس العلوم الإسلامية وغير الإسلامية فظهرت العلوم اللغويّة

والنحويّة وعلم الكلام والفقه والأصول ومصطلح الحديث والبلاغة والعروض والفلسفة والرياضيّات والفلك وما إلى ذلك مّما لا يكاد يفهم منه القدماء شيئا فلو بعث أحد الصحابة رضي الله عنهم وسع الخليل يتحدّث عن الأسباب والأوتاد والزحافات والعلل والعروض والضّرْب وأنواع الخرْم والحذو والتوجيه والردْف والتأسيس، وسيبويه يبسط للمستمعين إليه الإعراب والبناء والمتمكن والأمكن والرّفع والنصب والجرّ والجزم والنائب عن الفاعل والتنازع واشتغال العامل عن المعمول، لو سمعهما يصولان ويجولان في هذين المضمارين وقيل له إنّ لغتهما لغتُه لأيقن أنّ بهما مسّا من الجن ولتبرّأ من هذه اللغة.. أيقال بعد هذا إنّ العربيّة لم تتطوّر إلا قليلا ؟

وما يفهم الخليل وسيبويه من الألسنيّة والوظيفيّة والبنويّة والتوزيعية والإسقاط في اللسانّيات والطبّ والفلسفة ؟ بل ما يفهمون من « السّوسيو . ثقافي »، و « السّوسيو . نصي »، والسوسيو . لسانّي « وغيرها مّما يشبه الولد الذي تدعوه أمّه الفرنسية Maurice ويدعوه أبوه المسلم صالحا، الولد الذي: تنازع العرب فيه والفرنسيس » على حدّ قول الأمين العمودي في سينيّته الشهيرة، الولد الذي « نصفه صالح والنّصف موريس » على حدّ قوله أيضا ؟



وتطوّرت العربية خارج القرآن والشريعة الإسلامية تطوّرا حرّا أفقدها معياريّتها وانسلخت من الإعراب وضاع منها المثنّى وكثير من الصيغ الصرفيّة والدلالات وتقلص معجمها وعسرت كتابتها وتعددت لهجاتها فلا تكاد تنتقل من مكان إلى مكان لا يبعد عن الأول إلاّ بمقدار عشرين ميلا حتّى تعرف أهله بطريقة أدائهم لما كان لغة فصحى وبألفاظهم وأسلوبهم الخاصّ بهم.. هذا بقطع النظر عن لغات الأقطار العربية



ولهجاتها.. أيقال بعد هذا إنّ العربيّة لم تتطوّرْ إلاّ قليلا؟ فإن كان يقصد بالتطور التطوّر العلمي فالعربيّة تطوّرت بفضل الساهرين عليها تطوّرا ملحوظا في الأعصر العبّاسيّة وفي القرنين التاسع عشر والعشرين وما علينا إلاّ أن نتابع جهودهم وألا نترك غيرنا يقولون لنا وجها لوجه: ومتى تطوّر العرب حتّى تتطوّر لغتهم؟ سؤال لا يتحمّله غيور على شرفه ولا يريد أن يجابه به من يظنّون أنّ داءهم لغتهم مع أنّهم داؤها والوازرون وزرها؟







في الثقافة وأشياء أخرى

افتتاحيّة العدد: **17**

فكرت فيما عسى أن أفتتح به هذا العدد من المجلة فلم أجد خيرا مما جعلناه نصب أعيننا، وعقدنا العزم على إنجازه هذه السنة سنة «الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007» ورحت أفكر فيما يعني لفظ «الثقافة» وأبحث في المعاجم العربية المطولة والموسوعات الفلسفية المستفيضة، فلم أظفر بطائل، بل وجدت نفسي في بحر لا ساحل له، وجدت في إحدى الموسوعات الفلسفية أن باحثين إنجليزيين خصّاها، سنة 1947، بدراسة نقدية تتناول مفهومها وتعريفاتها في شتىّ الآثار الفكرية العالمية قديمها وحديثها فوجدا لها أكثر من مائتي (200) تعريف يختلف كل منها عن غيره فقلت: «مالي و لمفهومها وتعريفها؟ ولم أدخل في هذه المتاهة.. يكفيني تجليها في وطني وفيما أنجزه المجلس الأعلى للغة العربية الذي أشرف بالانتماء إليه، وما عقد العزم على تحقيقه في هذا المجال الرحب».



استعدت الجزائر لهذا الحدث البارز، ووفرت له الوسائل الكفيلة بنجاحه فكانت بحق «عاصمة الثقافة العربية» ولّبت دعوتها الوفود الشقيقة والصديقة وأقيمت الحفلات البهيجة الكاشفة عن المواهب الإبداعية الساحرة، ونظمت المعارض الشيقة البهيجة، والندوات الفكرية الثرية، وتجاذبت الأفكار وتصاهرت وعمت الغبطة وتوحدت الغاية وكل ذلك بفضل ما بذل ولاة الأمور في بلاد البطولة والأمجاد، والساهرون



في المقام الأول على الثقافة ونشرها وإثرائها والتمكين لها، والمؤسسات الفكرية والدينية والاجتماعية، والمهتمون برعاية الفنون الجميلة من المبدعين فيها وممن يثرونها ويحمونها من النسيان.

وأشيد، على وجه الخصوص، بالدور الريادي الذي يقوم به المجلس الأعلى للغة العربية في نشر الثقافة بأسمى دلالاتها وفي التمكين للغة العربية بما يخدمها أساسا، ينظم الملتقيات الفكرية الوطنية والدَولية والدُولية لمعالجة قضايا بالغة الأهمية أو لتكريم شخصية علمية بارزة والتعريف بآثارها ومآثرها على الصعيدين الوطني والعالمي أو لإحياء ذكراها، ويشجع التأليف والمؤلفين في الميادين الحساسة بما يخصص من جوائز وما ينشر من أعمال، وهي كثيرة لا تتسع لحصرها كلمة افتتاح وليس من شأنها أن تتضمن ذلك.



ومما يلفت الأنظار، ويجدر بنا أن ننوه بمنشورات تخدم الثقافة الشعبية بلغتيها العربية والأمازيغية أو ترفد الفصحى وتطورها لاسيّما في الميادين الاجتماعية الحضارية والعلمية التكنولوجية، وما أحوجها إلى ذلك !واكتفى بذكر ثلاثة منها لما رأيت لها من أهمية في مادتها وفي معالجتها:

1 – أعمال الملتقى الوطني المنعقد بمدينة تيارت يومي 13 – 14 أكتوبر 2002 بعنوان «مظاهر وحدة المجتمع الجزائري خلال فنون القول الشعبية» وبرعاية فخامة رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة، وهو الذي افتتحه بخطاب توجيهي قيِّم، دار هذا الملتقي على أربعة محاور: دلالة فنون القول الشعبية على وحدة المجتمع الجزائري في ماضيه وحاضره والأشكال التعبيرية الشعبية وتحديات العولمة، وقيم الهوية الوطنية في فنون القول الشعبية، والبناء الفني في أشكال الأدب الشعبي.. وشارك فيه عدد كبير من خيرة الباحثين بمداخلات ثرية ممتعة زادتها ثراء،



كما زانتها نماذج قيمة من الشعر المعاصر الشعبي منه والفصيح.

هذا وللثقافة الشعبية واللغات الدارجة عامها وخاصها جوانب أخرى مهمة تدعونا إلى دراستها والبحث المعمق فيها من زوايا عديدة: لسانية وتربوية وأخلاقية واجتماعية، بل اكتشفت منذ بدأت أمارس التعليم أنني لم أنتبه إلى بعض أسرار الفصحى إلا بالتفكير الطويل في العامية التي تمازجني وأمازجها وأعرف الكثير من خباياها في نطاق المحيط الذي نشأت فيه وفي نطاق لهجته أو لهجاته، ثم إن الكثير من تراثنا الشعبي كالأمثال والقصص يضمحل يوما بعد يوم بانتشار التعليم وانقراض الجيل السابق وكر الدهر نحو لداتنا كما يقول البحتري بل لم يبق منهم إلا القليل، زودني أحد أقاربي ذات ليلة بسبع مائة وخمسين (750) وفي أقل من ثلاث ساعات فهل بقي في هذا الجيل من يبلغ مثل هذا العدد المذهل وفي مثل هذه المدة؟ لذلك أهيب بأبناء وطني أن يرعوا تراثنا الشعبي بجمعه قبل فوات الأوان.

2 - «المبرق»: المعجم موسوعي (عربي ـ فرنسي) للإعلام والاتصال للدكتور محمود إبراقن، من الباحثين المرموقين والأساتذة المبرزين، وعمل ناهيك به من عمل !رصد فيه صاحبه الأغلب الحديث من مصطلحات الإعلام والاتصال وما يمت إليها بأوثق الصلات ونقلها إلى العربية بدقة ومهارة فائقتين، وعرف كل مصطلح أورده، وساق له الأمثلة التي تزيل عنه كل غموض، وقد أحرز الدكتور إبراقن بهذا الإنجاز الملحوظ الثري المثري جائزة اللغة العربية التي نظمها المجلس الأعلى للغة العربية لسنة 2001، ونلتمس منه أن يراجعه وينقحه ويضيف إليه في كل طبعة جديدة ما لم يرد في هذه الطبعة، وقد سبقني إلى هذا الطلب السيد رئيس المجلس الأعلى، إنما أردت أن أضم صوتي إلى صوته.

3 – «اللغة العربية في تكنولوجيا المعلوميات» (تطور واعد.... وتطوير متواصل) وهي مجموعة المحاضرات التي ألقيت في ندوة دولية نظمها المجلس بتاريخ 28 – 29 / 12 / 2002 وفي مجال علمي دقيق امتاز له العصر وتميز، وتقدم فيه علينا غيرنا وبه تحكم وتمكن، شارك فيه عدد من المؤسسات ومن الباحثين المتخصصين من الجزائر والمغرب ومصر والأردن وأميركا وفرنسا، وكان للندوة صدى واسع ونتائج جد إيجابية، ومما استدعى انتباهي مداخلة الأخ الفاضل موسى زمولي الخبير في تكنولوجيا المعلومات، وعنوانها «مساهمة العلماء العرب في علم التعمية (الشفرة) ومشكل الوقاية المعلوماتية على شبكة الانترنيت»، وهي دراسة ممتعة ثرية ذكر فيها أن الفيلسوف الكندي أول المشتغلين العرب بعلم المعميات، ومن اعتقد ذلك من العرب **أو** من المستشرقين اعتمد كتاب «الفهرست لابن النديم ذكر فيه (ص 365) أن الكندي صنف» رسالة الأسماء المعماة «وتبعه في ذلك غيره كما ذكر أنه» من الصعب العثور على المخطوطات العربية حول علم التورية نتيجة وجود نسخ قليلة جدا، ويعود هذا إلى طبيعة استعمالاتها للأعراض السرية والمخابراتية «وأفيده، معتمدا اختصاصي، بأن اللجوء إلى هذه الطريقة لم تكن حكرا على السياسة، بل هي من علم الكلام لجأ إليها الشيعة الاثنا عشرية في تفسيرهم للقرآن واستغلوها للدفاع عن مذهبهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، أما السبعية فلم يتركوا فيها لزائد من مزيد، وكان ذلك ابتداء من القرن الثالث عصر هشام بن الحكم (ت.. نحو 190 / 805) أكبر المنظرين للإمامية الإثنى عشرية التي لجأت إلى جل وسائل التعمية التي ذكرها القلقشندي وغيره.. وإن الأمثلة والطرائق كثيرة في مناقب آل أبي طالب، لابن شهراشوب، (4 / ص 300 – 307)، تعتمد أساسا،





ترديد الحروف ودلالتها، وحساب الجمل، واقتصر في الطريقة الثانية على مثالين من التفسير – **{كنتم خير أمة أخرجت للناس}** (سورة آل عمران، الآية: 110) , تساوي 2741 ومعناها: » وهم النبي رسول الله والأئمة الاثنا عشر أهل البيت أمناء الله سلام عليهم « لأن قيمتها 2741 كذلك – **{قل لا أسألكم عليه من أجر إلا المودة في القربى}** (سورة الشورى، الآية: 23) تساوي 1183، ومعناها: » هو ود الاثني عشر « لأن قيمتها 1183 أيضا.

وتفنن الفرس في علم المعمى فنظم الشريف المعماني سنة 908 من الهجرة بيتا واحدا شرحه في مجلد كبير واستخرج منه ألف اسم بطرائق غير التي استعملها متكلمو الشيعة (كشف الظنون 1741 – 1742).



يطول بي الحديث لو ذكرت كل ما بذل المجلس من جهود في خدمة اللغة العربية والعلم والثقافة بوجه عام، إنما أذكر ببعض العناوين مثل « معجم المصطلحات الإدارية » و « أهمية الترجمة وشروط إحيائها » و « دليل المحادثة الطبيّة وهو سادس » الدلائل المنشورة في سنة 2006 والتي تتناول العديد من مجالات الفنون والعلوم الدقيقة المعاصرة، وستتلوها معاجم أخرى لم يتم إنجازها وملتقيات ثقافية مبرمجة لسنة الثقافة العربية.





نفهم المتنبّي ولا يفهمون شكسبير

افتتاحيّة العدد: **18**

كثيرا ما طالب بعض المفكّرين من العرب وبخاصّة المصريّون أن نحلّ العامّية محلّ الفصحى متعلّلين بأن الفصحى سجينة الرسميّات والصحافة والعلوم والآداب، لا تعرف طريقها إلى البيت والشارع ومرافق الحياة اليوميّة ولا يدرك جزءا قليلا منها إلاّ من قضى السنين الطويلة في تعلّمها.. هي إذن كاليونانيّة واللاتينية لغة ميّتة والميّت من اللغات ما دفن في الكتب، وكفن في الكاغذ، وبعث من حين إلى آخر في الوسائل السمعية البصريّة، ولم يعرف الحياة الحقيقية، الجديرة بأن يقال فيها حقيقية، ولا عرفته.. هل سمعتَ يوما ما شخصين يتشاجران أو يبكيان بالفصحى رافعين الفاعل، ناصبين المفعول به، مراعيين قواعد النسبة؟.. لو فعلا لعجزا ولسبقا غيرهما إلى الضّحك.. ذلك أن لغتهما غير طبيعيّة، غير راسخة فيهم.

يقولون: لم لا نأتسي بالفرنسيّين والإسبان والإيطاليّين وغيرهم من الشعوب فنطوّر الحيّ وندفن الميّت مترحّمين عليه؟ والحيّ في نظرهم لغة التخاطب المصريّة التي لم يرض بها أغلب المصريّين وفي مقدّمتهم طه حسين وأضرابه، وحاربوا الدّعاة إليها لأنهم يعلمون علم اليقين أنها لغة الشعب ومرآة ثقافته وأنها لو اعتمدت لقطعت الصلة بيننا وبين ما يجمع بين أفراد الأمة الواحدة من دين، وأدب وعلوم مزدهرة، وحضارة



راقية، وماض عريق، وتاريخ حافل بالأمجاد، ولغة من أثرى لغات العالم إن لم تكن أثراها كما نصّ على ذلك علماء الغرب.. قال ريجيس بلا شير: «إنّ ثراءها يضرب به المثل».. وكان أطبّاء القرن الثالث عشر الميلادي يفخرون في الغرب بتطبيقهم طبّ ابن سسنا ولا يستطيعون تعاطي مهنتهم إلاّ بتعلّم العربيّة.

يعرف الغربيّون اللّغة الحيّة بأنّها المستعملة في الحياة اليوميّة العامّة وفي المدرسة والمؤسسات الإداريّة والآداب والعلوم والفنون وبأنها اللغة الوحيدة أينما كانت ومهما كان مستعملوها.. هي لغة واحدة بمستويات شتّى لئن كانت اللغة الحيّة هي المستعملة في الحياة اليوميّة فاللغات الشعبيّة كلّها حيّة سواء أكانت في أدغال ماداغشكر، أم في شواطئ نهر الأمازون لا يفهمها إلاّ عدد قليل ـ أو كثير ـ من قبائل الهنود الحمر، أم في أيّ مجهل آخر من مجاهل القارّات الخمس.. لا أراهم يعدّون لغة حيّة إلاّ لغاتهم الأروبييّة القليلة التي تنطبق عليها هذه المواصفات والتي يشجّعون أبناءهم على اكتسابها ويوفّرون لهم كلّ الوسائل العصريّة لحذقها.



اللغة الحيّة في نظري هي الحاملة لوسائل الحياة، الرّاسخة المتجذّرة، المتجدّدة تجدّدا مستمرّا، القادرة على استيعاب الثقافات العالميّة مهما اتسعت ومهما كان عمقها.. كذلك كانت العربيّة عبر العصور وعبر الحضارات وكذلك بقيت لما فيها من عناصر البقاء.. إنما توقف أصحابها قرونا فأصابها بعض الوهن.. لكنها استعادت قوتها ونشاطها منذ النهضة الأخيرة وهي تتقدّم بخطى ثابتة في مختلف الميادين وستزداد حيويّة كلّما ازداد أصحابها يقظة وكلّما علموا علم اليقين أنّ اللّغة إن حفظوها حفظتهم، لأنها هويتهم ورمز كيانهم وسرّ نجاحهم..



ولا يستطيعون حفظها وإثراءها إلا **بالإبداع الفني العلميّ التكنولوجيّ** الذي قهرنا به غيرنا وبلغوا فيه شأوا بعيدا حتّى حصرونا في سجن الترجمة والمعاناة من تعريب ما أنتجوا وما وضعوا من مصطلحات في مختلف مبادين الحضارة العصريّة.

من مزايا العربيّة التي وسمتها بالرّسوخ والتّجذّر أن أغلب المثقفين المعاصرين يفهمون الجاحظ وأبا حيّان التوحيديّ والبحتري والمتّبي مع أن دانتي وشكسبير ورابليه، على قرب العهد بهم، يعاني الغربي من فهم نصوصهم لأنهم كتبوا بلغة شعبيّة سريعا ما تزول ومن مزايا العربيّة التي وسمتها بالتطوّر والتجدّد أنّ القدماء لو بعثوا لما فهموا إلاّ القليل من الفصحى المعاصرة وكيف يفهمون ما استحدث بعدهم من مصطلحات العلوم والفنون العربيّة وغير العربيّة وما لا عهد لهم به الدلالات اللفظيّة فيما استعملوه بمعنى آخر كالقطار (الإبل المشدود بعضها إلى بعض على نسق واحدا خلف واحد)، والدبّابة التي عرفوها من خشب وجلد، والسيّارة (القافلة) وغير ذلك كثير، وفيما استحدث بعدهم كالمعهد والكلّية والجامعة ووزارة التعليم العالي والحكومة ورئاسة الدولة، وفيما « نصفه طير ونصف بشر » كالشوراقراطيّة وإن أريد بها شيئ من المزاح الساخر، وفي التراكيب التي تنكرها أسماعهم من جمل أو ضمائر تدخل عليها أداة التعريف كاللاّأدريّة واللاّشعور والأنا والهو والأنانية والهوية، أو التراكيب التي هي إلى الأنجليزية أو الفرنسية أو لغة أخرى أقرب منها إلى العربية فمن زعم أنّ الفصحى لم تتطور واهم.

أما العامية أو العاميات العربيّة فتستمدّ قوتها من الحياة الطبيعية والحياة الطبيعية لا تقهر ولذلك لم يدع أحد إلى مناهضتها بل دُعِيَ إلى تبنيها وتنقيتها من الشوائب والرّفع من مستواها وإثرائها للتقريب بينها وبين



الفصحى.. وكان ذلك هو الهدف من الملتقى الدولي الذي نظّمه، في هذه السنة، المجلس الأعلى للغة العربية ووزارة الثقافة مشكورين.

وكان ملتقى جد ناجح.. والمعاجم العلميّة والتكنولوجيّة والإداريّة والمنشورات والبحوث التي رأت النور بفضل المجلس والمسابقات السنويّة والملتقيات التي يسعى جاهدا لتنظيمها تخدم كلها هذه القضيّة.

الشوباشي وسيبويه...

افتتاحية العدد: 19

لفت نظري في المقالات المنشورة في هذا العدد من «مجلة اللّغة العربيّة» مقالة للفاضلة فريدة بن فضّة، من تيزي وزو، تنقض ما ورد في كتاب «لتحيا اللّغة العربيّة: يسقط سيبويه» (هكذا رسم العنوان) لشريف الشوباشي، الط.. الرابعة، 2004 , مصر.

لا أعرف الكتاب ولا أريد أن أبدي رأيا مفصّلا فيما لم أطالع لأنّ ذلك مناف للمناهج العلميّة، إنما أعالج ما أوردتْ من القضايا المنسوبة إلى الشوباشي وما أعلم علم اليقين أنّ بعض معاصرينا، لئلاّ أقول الكثير منهم، يتبنّاه.



يظهر من نماذج الكتاب المثبتة في المقالة بين علامات التنصيص أو المشار إلى صفحات الكتاب المتضمنة لها أنّ الشوباشي ينعى على المتزمّتين من العلماء والأدباء غلوّهم في الدعوة إلى الحفاظ على اللغة العربية كما وردت في المعاجم العربيّة القديمة وكما قعّد قواعدها سيبويه ومّن نهجّ نهجّه، وإلى تنقيتها من الشوائب الطارئة عليها المنافية لعبقريّتها ومعاييرها.. ويبيّن أنّ العربيّة كما عرفها سيبويه ودعّم أركانها وكما نجدها عند الجوهريّ والأزهريّ وابن سيده وابن منظور وأضرابهم لم يعد يعرف منها المثقّفون المبرّزون إلاّ القليل القليل ولم تعد تستعمل إلاّ كتابة.. فهي لسان ميت أو في حكم الميت على أكثر تقدير، شأنها في ذلك شأن اللاتينيّة في أوائل النهضة الأوروبيّة: ضاقت رقعتها شيئا فشيئا فأصبحت



حكْرا على العلوم والفنون ولو تلبث أن استعصت حتّى على نخب المثقفين المجيدين لها فاسبتبدلوا بها لهجاتهم المحلّية وطورّوها إلى أن صارت لغة العامّة ولغة المثقفين لسانا واحدا موحدا يفهمه الصغير والكبير، لسانّ التواصل اليوميّ والإبداع في الميادين الفنيّة والعلمية والتكنولوجية.. وفاقونا بلغات ثريّة طيّعة ينوطون بها المستحيلَ فلا يعجزها المستحيلُ.. واللّغة أداة الرقيّ والتحضرّ.. بها تتطوّر الحضارات وبها تتفوّق الأمم لأنّ اللّغة هي التي تطور الإنسان (؟ (!.. وآية ذلك أن الإنجليزيّة أنتجت همنجواي (John.. Steinbeek.. E.. Hemingway)

وأمثالهما ..وأظنّه أراد أنّ اللّغة تساعد الإنسان على التطور بما توفّر له من المعارف التي نقلت إليها وبوسائل التعبير التي اكتسبتها بجهود أهلها، أوْ لا فلا معنى لما يقول، لأنّ اللّغة نتاج الفكر وأداة إنتاجه والعكس غير صحيح.

وراح يقارن ـ فيما يفهم من مقالة الزميلة الفاضلة ـ بين العربيّة القديمة، «لغة سيبويه»، لغة البدو والبداوة، المثقلة بالمترادفات التي تفوق الحصر ولا تغني عن أهلها شيئا بل ترهقهم وتثقل معاجمهم، لغة لم تعد تصلح للعصر ولا أمل لها في أن تكون من لغاته، لغة لم تتغّير قواعدها منذ خمسة عشر قرنا وأنّى لها أن تتغّير وهي عند أصحابها من المقدّسات وبها نزل قرآنهم !وهل في اللغة من قداسة؟ لغة يتبرّم بها العربيّ بله الأعجميّ ويدرسها الدّارس المجد الدؤوب عشرات السنين فلا يكاد ينال منها شيئا، بينما تنقاد له الإنجليزيّة في مدّة لا تتجاوز الستّة أشهر، لغة يصدق في تعلّمها قول شاعرهم الأعشى:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يَضِرها وأوْهى قرنه الوعِلْ

ولعلّ الشوباشي لا يرمي إلا إلى تبصير المتزمّتين من اللغويين المبالغين



في الحفاظ على ما يسمّيه لغة سيبويه ومعاييرها كما وردت في «الكتاب» وكما كانت في «القرن الخامس» والقرون الأولى من ظهور الإسلام، وإلى الدعوة الصادقة إلى تطوير العربية تطويرا جذريّا سريعا، كلّف ذلك ما كلّف، لتساير العربيّة عصرها مسايرة حقيقيّة وإلا أدركها الاضمحلال والزوال وأنه لا يقصد إحلال اللّهجات العربيّة أو إحداها محلّها.. وأرجو أن أكون مصيبا فيما ظننت لأن من الداعين إلى التخلّي عن الفصحى ولو في الرسميّات والعلوم والفنون من سبقه إلى ذلك ودحض رأيه بمختلف الحجج وبالواقع الراهن.. فهل يدعو الشوباشي كذلك إلى الاستغناء عن الفصحى؟ وهل يراها «محنّطة لا يمكن النهوض بها» كما يستشقّ من كلامه؟

نعم! كانت العربيّة لغة بدوية لم تبلغ مستوى اللّغة الإغريقيّة أو الفارسيّة أو الهنديّة وكانت لهجات متباينة متقاربة في آن واحد كلهجاتنا العربيّة المعاصرة فتوحّدت في ما دعي باللّغة المثاليّة وزادها القرآن توحدا وأثراها.. ودرستْ دراسة لم يسبق لها مثيل وقعدت قواعدها تقعيد محكما ذاع صيته واخترق الأزمنة والآفاق حتّى قال المستعرب ريجيس بلا شير مترجم القرآن وأستاذ اللغة العربيّة بجامعة السوربون: «لم أجد في العالم أمّة درست لغتها كما درس العرب لغتهم» وفي العربيّة نفسها: «هي لغة يضرب المثل بثرائها» وقال في النحو العربيّ: «إنه نحو مثاليّ» وكان لسيبويه في ذلك الفضل الأكبر وهل درس سيبويه إلاّ لغة عصره من العرب الخلص؟ وهل يفعل الغربيّون نحاة كانوا أم لغويّين غير ذلك في لغاتهم؟ هل زعم سيبويه، وهو يرى لسان معاصريه يتطوّر يوما بعد يوم، أنّ اللغة ثابتة أو مقدّسة؟

العربيّة من أثرى لغات العالم التي نعرفها يشهد بذلك القاصي والداني.. هي ثريّة بمفرداتها التي تبلغ 180000 مادّة أوردها ابن منظور



«لسان العرب» وبما لم يورده مما استدرك عليه أو لم يستدرك عليه أو لم يستدرك لعدم تدوينه أصلا، وبكثرة دلالات اللّفظ الواحد وهو أمر طبيعيّ شائع في لغات العالم المزدهرة آدابها لطغيان المجاز على الأدب، والأدب العربيّ، كغيره من الآداب، طافح بالتعبير المجازيّ والكنايات والصفات التي لا تلبث أن تصير أسماء بكثرة الاستعمال وتصبح مترادفات أو كالمترادفات، وما إلى ذلك ممّا يجعل اللغة خصبة متعدّدة دلالات ألفاظها في صيغة الجذر الواحدة ولعلّ المعاجم العربيّة من أبرز المعاجم التي تعتمد الأدب لاسيّما الشعر وللشعر أسلوبه فلا تكاد تجد في القديم منها لفظا غير مشفوع بما يوضح معناه من المنثور والمنظوم والمنثور.. ألم يقل لاروس صاحب المعجم الفرنسيّ الشهير: «معجم خال من الشواهد هيكل عظمي»؟ بيد أنّ في المعاجم العربيّة عيبا لا يمكن إنكاره.. وهو العدد الهائل من المترادفات التي لا تزيد في اللغة «إلا ما تزيد الباشوية في طه حسين» كما قال الشيخ البشير الإبراهيميّ، لعدم الفرق بينها ولأن أصلها لهجات حشيتْ بها المعاجم الكبرى.. وهو، آنذاك، شرّ لا يدّ منه وإلاّ بقي الكثير من النصوص غامضا في بعض أجزائه ومن الشرور التي لا مفرّ منها في تلك العهود كثرة الجموع وفيض الصيغ في المادّة الواحدة، لكنها لهجات أيضا وكلّها عربيّ لا يمكن الاستغناء عنه.. ومن الجموع ما هو لهجة.. ومنها ما يؤدّي معنى لم نعد نهتدي إلى سياقاته ولطائف أسراره.. فعاميّتنا مثلا، وفي الرقعة الواحدة من البلاد، مقتصدة في الجموع فإن تعدّدت صيغ الجمع في اللّفظ الواحد أدركنا الفروق بينها.. «النساء والنسوة والنسوان والنساوين» تختلف على مستويات القلّة والكثرة والعاطفة يدرك ذلك من مارس اللّغة وخبر الأداء والسياق.. وأنا واثق من أنّ بعض الجموع في





الفصحى وفي غير اختلاف اللهجات، كانت تتجاوز القلّة والكثيرة إلى التعبير عن العاطفة أو عن شيء آخر مّما نجهله اليوم لعدم وسائل إدراكه.

لكنّ المعاجم المعاصرة أصبحت في حلّ من الهجات القديمة فلا تجدها مرهقة بالغريب وكثرة الصيغ والجموع في اللفظ الواحد تخلّصت ممّا ضعف صلتنا به أو انقطعت، وثريت بالمستحدثات وستزيد ثراء على مر السنين.. ولا ينكر الجهود المبذولة منذ النهضة الحديثة إلاّ مكابر.

ومن عيوب أصحاب المعاجم العربيّة القديمة، التي لا تغتفر اعتماد اللاحق على السابق اعتمادا يكاد يكون كلّيّا وقصر المادّة اللغويّة على الأدب وما يخدمه مّما يدعى العلوم الآلية، وعلى العلوم الشرعيّة وما إليها، وإهمال الكثير مما سمّوه باللغة المحدثة ومن مصطلحات الفلسفة والرياضيات والفلك والطب والعلوم التجريبية والطبيعيّة التي عرفوها.. ولا نريد مثالا على ذلك إلاّ ابن منظور (ت 711 / 1311) في كتابه «لسان العرب» الخالي من المصطلحاتت التي ذكرناها مع وجودها قبله بقرون لكنّ المعاجم المتخصّصة موجودة في التراث، وفي شتّى المعارف، مثبتة في «كشف الظنون» وتكملته «إيضاح المكنون» وما شاكلهما، مطبوعة أو مخطوطة وما ضاع منها جد كثير.

وللغة جانبان: لفظي يخضع بسهولة للتطوّر في الدلالة بالتوسّع والمجاز وغيرهما وقد يضمحل اللّفظ ويزول لقلّة استعماله **أو** للجهل به **أو** ليحلّ محلّه لفظ آخر يفرضه تغير البيئة وما يستجدّ من أسباب التطوّر والحضارة.. حدث للعربية في هذا الجانب ما يحدث لغيرها من اللغات فلا تجد مثلا وعلى سبيل الافتراض جاهليّا أو إسلاميّا أو أمويّا أو عباسيّا يفهم مقالة صحفية أو تعليمة وزاريّة أو تعليقا سياسيّا في وسائلنا السمعية البصريّة لا ستغلاق دلالات معظم



الألفاظ عليه ولوكانت من لغته.. لا يفهم منها إلاّ ما نفهم من قول الشنفرى في لاميّته « سعار وإرزير ووجر وأفكل ».. **أيقال بعد هذا إنّ العربية لم تتطور ؟**

أمّا الجانب الآخر فتركيبيّ ثبّت دعائمه سيبويه ومن حذا حذوه من فطاحل العلماء.. والتركيب بطيئ التحوّل في جميع اللّغت وهو أهمّ مساعد على حفظها ومع ذلك طوّع العرب لغتهم لترجمة الفلسفة اليونانية والسياسة الفارسيّة والحكمة الهنديّة لم يتحرجوا من إدخال أداة التعريف على الضمائر والجمل ومن اختراع المصدر الصناعيّ فقالوا « الأنا والهُوَ والأنانّية والهوية واللاّأدريّة والشخصية والإنسانيّة ».. وضحوا لنا طرائق نتبعها اليوم في نقل العلوم الدقيقة والتكنولوجيا ونبيح لأنفسنا الزيادة عليها والتصرّف في لغتنا كما نشاء، من المحافظة على أصالتها وكما تشاء لنا مقتضيات العصر وتحديّاته وقد أنجزت مؤسساتنا العلميّة والعاملون من علمائنا الكثير ممّا سبقنا إليه غيرنا من أسباب الحضارة، وفي مقدّمتها مصطلحاتها.. **أيقال بعد هذا إن العربية « جسد ما فيه روح »** ؟ لقد كان الأطباء الغربيون في القرن الرابع عشر الميلاديّ يفخرون بانتسابهم إلى ابن سينا وطّبه وكانوا يشترطون في تعلّم الطبّ والإجادة فيه تعلّم العربيّة وإجادتها.. فلِمَ يراد أن تدال اللغات الأجنبية اليوم من لغتنا ؟ لست أستجيب لداعي العاطفة، فالعلم والمنطق لا يعبآ بالعاطفة إنما أحاول جاهدا أن أتبيّن الحقيقة ما استطعت إلى ذلك سبيلا وأذكر معاصري ممن رموا العربية بالجمود، أذكّرهم بقول عزيز أباظة، في إحدى مسرحيّاته، وعلى لسان بعض الرّهبان: أنتم المسلمين حمّلتم الإسلام أثقالكمْ وأنتم نيام.

أما كتاب سيبويه فلم يوضع للقرن العشرين أو الواحد والعشرين فلم



نحمل صاحبه أوزارنا؟ والحقيقة التي لا مراء فيها أنّ الشوباشي يقصد بسيبويه الفصحى التي يرى قواعدها «من قبيل اللوغاريتمات» ويعدّها السبب الرئيس لصعوبة العربية بالنسبة إلى اللغات الغربية وما هي بالصعبة لأن اللغة ممارسة يوميّة دائمة لا مجرّد قواعد نحوية.. ومن ظن الأمر كذلك صدق فيه المثل الشعبيّ: «رمى الشجرة فأخطأ الغابة».. وقد بيّنت في عدد سابق من هذه المجلة دور أهلها في العجز عن جعلها كالإنجليزية أو الفرنسيّة أو غيرهما من اللغات المتقدمة اليوم، وحاولت رسم المعالم التي تعبّد مسالكها فلا داعيّ إلى التكرار.







لماذا الغلبة للعربيّة ؟

افتتاحية العدد: 22

يحتفل المجلس الأعلى للغة العربية، بعد عشرة أيّام، إن شاء الله، بذكرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أكبر مصلح بالجزائر بعد الإمام عبد الحميد بن باديس.. بل هو صنوه ورفيقه في الدّرب ومؤسّس الحركة وداعمها وحامل لوائها، بعد مغادرة إمامها دنيانا، إلى أن من الله على الجزائر بالاستقلال بجهود أبنائها وبقيادة رشيدة.

والمجلس الأعلى، كما عهدته، من خيرة العارفين بفضل الرجال وأقدارهم، ومن السبّاقين إلى تكريمهم والتعريف بمناقبهم والحثّ على اتخاذهم أسوة فيما يخدم الإنسان والإنسانيّة ويمكن للحياة الفاضلة وللعيش الكريم الأبيّ على الاستعباد والخنوع وعلى الموت في مظهر الحياة، تلك نتيجة حتميّة لمهامّه ومراميه ومنتجاته المعرفية والثقافية.. فهو مركز إشعاع للبحوث العلمية والتكنولوجية في أوسع ميادينها وبما نحن في أمس الحاجة إليه لنحيا حياتنا الضروريّة لعصرنا، والأدبية في أسمى تجلّياتها ومهما كان مصدرها.. وهو منطلق لكلّ ما يحافظ على اللغة العربية ومسرح لتطويرها وكسر قيودها وإثرائها بما يضمن لها ولنا العيش في زماننا لا في الأزمنة الغابرة.

مـــا مــضـى فـــات والمـــؤمـــل غـيـب
ولـــك الـــســاعــة الـــتي أنـــت فـيـهـا



وهذا لا يعني نسيان الماضي فهو تراثنا وزادنا ومفخرتنا ولا الرّكود في الحاضر فإن الحاضر قائد إلى مستقبل من الضروريّ التطلّع إليه والتهيؤ له.. وهذه سنّة الكون وقاعدته التي لا تنخرم ولا تتحمّل شذوذا وإن كان «الشذوذ يدعم القاعدة»، كما يقال.

المجلس الأعلى والحركة الإصلاحية في الجزائر وغير الجزائر من البلاد العربيّة وإن اختلفت منطلقاتهما وظروفهما التاريخية والثقافيّة ومراميهما البعيدة يتقاطعان في مجال اللغة العربيّة – العامل المشترك بينهما كما يقول علماء الرياضيّات – ويهدفان إلى غاية واحدة: التمكين للغة العربيّة بما يخدم الدين فيبعث الأمة بعثا جديدا، وهو تعبير إصلاحيّ، وبما ينظمنا في سلك حضارتنا المعاصرة مع المحافظة على هويّتنا، وهو الشائع على ألسنة «المجلسيين».

ولم أر من خدم اللغة العربيّة في القرن العشرين كالإمامين محمّد عبده وعبد الحميد ابن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي سنحتفل بذكراه في شهرنا هذا لذلك أقصر عليه كلمتي.

يبرهن الشيخ محمد البشير في مقالة نشرها بتلمسان في العدد الرّابع من «جريدة السنّة» (1352 / 1933) أنّ الإسلام دين الفطرة السليمة والفضيلة السامية، دين جمع بين مطالب الروح والجسم، وتناءى عن التطرّف والتعصّب للجنس، فعرفت فضائله العرب وغير العرب وتقبلّوه بصدق وإخلاص ودوّخوا جزء كبيرا من العالم فأخذوا وأعطوا وكوّنوا حضارة واسعة الأطراف طيبة الجنى فكان لها الأثر العميق فيما خلّفها من الحضارات.

واللّسان العربيّ لسانه وترجمانه الذي لا يخون إن عرفت أسراره وسبرت أغواره ولا يفهم الدين إلا من عرف هذا اللّسان، لأن الدين




واللغة وحدة متماسكة، وكأنهما وجهان لعملة واحدة.. والعربيّة من أثرى لغات العالم، وأنقاها وأقواها.. فما احتكّت بها لغة إلاّ كانت لها الغلبة، والتاريخ شاهد على ذلك وسعت كتاب الله فإن عجزت عن بعضه طوّعها.. وبما أن الآيات يفسّر بعضُها بعضا ويفسّرها الحديث فالمرجع الوحيد للدّين القرآن والسنّة، وهما أصل الشريعة المحمّدية.. فمن طلب هذه الشريعة في غير هذين المرجعين فقد ضلّ وأضل.. ومن لم يعمل بمجرّد تعاليمهما ولم يفهم مقاصدهما العليا في لغتهما حاد عن الطريق الأمثل.

لذلك نجد الشيخ البشير عندما أوفد إلى تلمسان وفتح بها «دار الحديث» يركّز في تعليمه على التفسير وشرح الموطأ للإمام مالك، يهذب بهما الأخلاق وينشر الفضيلة وينشىء الصغير على التربية الفاضلة ويبيّن للكبير مضارّ التقليد الأعمى و«التسليم» المطلق وينافح عن العربيّة ضدّ مناوئيها لجهلهم بها وبُغض لها أشربوه بعوامل هدّامة مما أجاد الاستعمار الفرنسيّ غرسه في نفوسهم احتقروها وحقّروها لأبنائهم ولمواطنيهم.. وكان بعبقريّته الفذة ومعرفته الواسعة باللغة وقوّة عارضته، وبسحر بيانه، يبيّن لهم في محاضراته المرتجلة التي تزينها أنواع المجاز ويرصّعها السجع أحيانا أنه لا يعجز العربية شيء مما يزعمون أنّه متوفّر في الفرنسيّة أو في غيرها من لغات الغرب.. هو الذي حدّث بذلك في بعض مقالاته.. يقول: ولقد بدأت دروسي ومحاضراتي في تلمسان بالعربية الفصحى وأخذت نفسي بذلك أخذا أصل به إلى حدّ الإغراب.. وكان لي من وراء ذلك الالتزام غرضان: أحدهما إقامة الدليل للمتعلّمين باللّغات الأجنبية على أنّ الفصحى لا تعيا بحمل المعاني مهما تنوّعت وعلت وأنها تبد اللّغات في ميدان التعبير عن الحقائق والخيالات والتصوّرات،





وقد بلغت من هذا الغرض ما أريد ... « وأورد أنّ التزام الفصحى سهّل على المستمعين من العامّة فهم الفصحى سهّل على المستمعين من العامّة فهم الفصحى وبعث فيهم الرغبة في تعليم أبنائهم هذا اللّسان الذي كانوا يجهلون قيمته ومزاياه.

ويحمل على من يسمّون أنفسهم ّعلماء السنّة «مبينّا لهم أنهم **لا** يعرفون من اللّسان العربيّ إلا قشورا ليست منه في شيء ولا هي قادرة على النهوض بالتعليم كما ينبغي أن يكون.. ذلك أنّهم يأخذون اللّغة عن متون العصور الوسطى وشارحيها والمحشّين لشارحيها » وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم «.

ويأسف لقلّة زاد أدبائنا الجزائريّين، في العصور التي سبقت عصرنا، من العربيّة ولضعف مواهبهم ولضيق أفقهم فلا ترى في إنتاجهم إلاّ إشادة بـ « مناقب » حاكم مستبدّ يجري عليهم جراية استعبدتهم.. ولا يرقى شعرهم إلى مستوى ما نسمعه ممّا يلهينا به « المدّاحون » في الأسواق أمّا الفقهاء فلا يصدرون إلا عمّن سبقهم ولا يعرفون ما التعليل وما الجدل، بل يعدّون التعليل المنطقيّ اجتهادا وباب الاجتهاد مغلق عند المسلمين منذ قرون مثلما أغلق في وجوههم باب العلوم والأخذ بأسباب الحياة لأن هذا الباب الموصد فتحه غيرهم وسبقوهم إلى الإبداع وإلى توسيع مجالات الحياة الكريمة.



وممّا لفت نظري وشدّني إليه مقالة طويلة ثريّة ارتجلها في اليوم الثالث من اجتماع عامّ لجمعية العلماء المسلمين (1934) بحضرة الإمام ابن باديس وكان طلب منه الرئيس أن يهيئ مقالا يعرض فيه الحالة العلميّة بالجزائر، فارتجله متعلّلا بأنه لم يجد الوقت لكتابته.. بيّن في المحاضرة أهمّيّة الإصلاح العلميّ بمعناه العامّ المتعارف وعرّف مبادئه الصحيحة



وعلّل عجز الجزائر آنذاك على القيام بإصلاح علميّ مؤسّس على تلك المبادئ.. وبيّن أن ذلك العجز في الإطارات والكفاءات عامّ في الأقطار المغربية الثلاثة.. ويقترح على الجمعيّة بعض الحلول للتّخفيف من وطأة هذا الوضع: منتدى سنويّا عامّا بقسنطينة، عاصمة العلم الشرقيّة، يستفاض فيه البحث عن وسائل النهوض بالتعليم، وعكاظا علميّا بمدينة الجزائر يمتدّ إلى ما فوق الأسبوع و «تتبارز» فيه المواهب الإبداعية لاسيما الخطابة الوعظية.. ينص في هذه المحاضرة أنّ العلم والأدب أفل نجمهما منذ خراب أمصار العلم الكبيرة بجاية وتلمسان ولم نظفر بعد المائة الثامنة للهجرة إلا بمقدّمة ابن خلدون و «بدائع السلك» لابن الأزرق، وآثار الأخضريّ، وغير ذلك ممّا يعدّ على الأصابع، ورحلات لا يعتد بها وينعى على مواطنيه ضعف الميل إلى الابتكار، والكسل في المطالعة.

وصفوة القول إنّنا، إن تجاوزنا ذلك إلى إنشائه «معهد ابن باديس»، وتكثير مدارس التعليم ورعايتها، وحدبه على القائمين عليها، وإيفاد الطلبة إلى جامعات الشرق الأوسط – ومثل ذلك كثير – عرفنا مدى خدمته لنشر التعليم وخدمة العربيّة



عن الترجمة مرّة أخرى

افتتاحية العدد: 23

قرّرت إدارة المجلس الأعلى للغة العربيّة، وهي السبّاقة إلى مثل هذه المشاريع الطموحة، قرّرت أن تشفع المجلّة الأولى «مجلة اللّغة العربيّة» بدوريّة ثانية خاصّة بالترجمة في أوسع معانيها واختارت للإشراف على إنجازها ثلّة من الباحثين الجامعيّين الذين عُرفوا بكفاءتهم وتميّزهم وامتيازهم في هذا الميدان الخطير.. ونَشْرُفُ بتهنئة إدارة المجلس الأعلى للغة العربيّة بهذا المولود الجديد سائلين اللّه أن يبارك لها فيه وأن يعين على مهامّها الساميَة المضنية الهيئةَ المسئولة عن رعايته.

سمعت، فيما سمعت من النشرات المتلفزة، جزءًا من الكلمة القيّمة التي أعلن فيها سيادة رئيس المجلس الأعلى دواعي إنشاء المجلّة الجديدة، وذكّر بدور الترجمة في تطوّر الحضارات البشريّة، وبأنّ الأرض، بما رَحُبَتْ، صارت منزلا واحدا يؤوي أسرة واحدة هي البشريّة.. فمن كان من الأمم خارج المنزل صَعُبَ أن يُعَدَّ من البشر ؛ أو كما قال.

نعم !الترجمة والأخذ والعطاء أساس التقدّم والتطوّر.. ولا يظنّنّ أحد أنّ الإغريق ابتدأوا العلوم ابتداءً رغم عبقريّتهم.. بل كانت حضارتهم حلقة في سلسلة التطوّر الحضاريّ البشريّ.. أخذوا عن المصريّين والبابليّين والأشوريّين وعن الفينيقيّين بخاصّة، أخذوا عنهم بوساطة الاحتكاك، وعن الهنود في القرن الخامس قبل الميلاد لا سيّما في الحروب التي خاضها الإسكندر المقدونيّ ضدّ فارس (إيران) وما



وراءها شرقا إلى حدود باكستان.. وكانت أفغانستان أرهقت جيوشه فضجّت، فاضطُرَّ إلى الرجوع إلى إيران.. وهو الذي أسّس الإسكندريّة (= مدينه الإسكندر)، وكانت غرّة في جبين الدهر بفلاسفتها كأفلوطين صاحب «التُّساعيّاتّ» التي كان لها الأثر الأكبر في الفلسفتين العربيّة والمسيحيّة، وفيلون الإسكندريّ، وإقليدس الذي ندَرِّسُ نظريّاته إلى اليوم.

وجاء الإسلام وفُتِحت الممالك ودَوّنَ عمر بن الخطّاب الدّواوين فاضطُرّ العرب البُداة إلى تسييرها بلغة أجنبيّة وبكُتّاب فرْسٍ لا يعرفون إلاّ القليل من العربيّة.. فلما دخلت سنة 87 هـ.. عرّب عبد الملك بن مروان الدواوين بقرار سياسيّ لا رجعة فيه، وعمل اللّغويّون على تحسين مستوى هؤلاء الكتاب في اللّغة العربيّة فاستقام الأمر وعرّبت الدواوين.



ولمّا أُديلَ من بني أميّة وبني مروان واحتكّت الأديان والثقافات وتصارعت الفِرَقُ وجد المنظّرون أنفسهم في أمسّ الحاجة إلى المنطق اليونانيّ فنشأت حركة الترجمة مع المتكلّمين لا سيّما المعتزلة.. وأخذ الخلفاء العبّاسيّون على كاهلهم هذه المهمّة وتبعهم في ذلك الوزراء أمثال البرامكة، والأمراءُ وأعيان الدولة، فَنُقِلَتْ فلسفة الإغريق ورياضيّاتهم وعلم الفلك وحكمة الهند وحسابهم وسياسة الفرس.

وجد النقلة صعوبات في نقل بعض التصوّرات والمصطلحات رغم ثراء العربيّة التي يضرب به المثل، ورغم مرونة الصرف العربيّ، عانوا ما نعاني اليوم في نقل العلوم الغربيّة والتكنولوجيا، وكأنّني أسمعهم يرَدِّدون مَثَلَنا العامّيَّ: «تحرَثْ والاّ تتكسَّرْ» (والخطاب للمحراث رمز اللّغة).

لم يتحرّجوا من تطويع لغتهم والتجديد فيها (المصدر الصناعيّ كالإنسانيّة، وإدخال أداة التعريف على الضمير كالأنا والأنانيّة، وعلى



الجملة كاللاّأدريّة.... .. وأرانا اليوم نَقْفُوا أثرهم عن جهل بلغتنا، وهو الأكثر، وعن علْم بها، وهو القليل.

ازدهرت الحضارة العربيّة الإسلاميّة في معظم الميادين وتمثّل العلماء ما نقلوا وما نُقِلَ إليهم وطوّروا العلوم التي لم يكن لهم عهد بها لولا الترجمة.. وهم مخترعو علم التحليل الرياضيّ ومطوّرو ما ورثوا عن غيرهم في الطبّ والكيمياء وعلم الفلك.. وكثيرا ما نجد في الفرنسيّة والإنجليزيّة وغيرهما من اللّغات ألفاظا عربيّة لا نهتدي إلى أصلها إلاّ بالمعاجم الغربيّة لشدّة تحريفها في اللّسان الأعجميّ.. ولا أذكر مثالا لذلك إلاّ كلمة Vega التي تدور حولها الشمس فيما يقول علماء الفلك.. أوردت هذه المعاجم أنّ اللّفظ عربيّ أصله «النسر الواقع».



وما نَقَصَ أدبَنا إلاّ ما لم نقدُرْه حقَّ قدره ولم نترجمه كالأدب المسرحيّ اليونانيّ فأضعنا بذلك الشيء الكثير ولم نعرف بواكيره إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.. والحقيقة أنّه لم يزل غريبا في العالم العربيّ رغم بعض المحاولات الجادّة.

ومن الآثار الحسنة للتّرجمة أنّها «غربلت» العربيّة ونقلتها من البداوة إلى الحضارة ومن طغيان اللّغات عليها بكثرة اختلافها في الصيغ والدلالات إلى لغة موحّدة دقيقة.. ولا أدلّ على ذلك من مقابلة «المخصّص» لابن سيده بكتاب «القانون في الطبّ» لابن سينا.. تقابل بينهما فيما يتعلّق بجسم الإنسان فلا تكاد تجد في الأوّل لفظا واحدا غير مختلف في دلالته أو صيغته، بينما يدهشك الثاني بدقّة مصطلحاته ووفرتها ووضوحها.. ذلك أنّ ابن سيده لغويّ يهمّه لسان العرب بجميع مظاهره وابن سينا عالم أخذ عمّا تُرجِم من بقراط وجالينوس وغيرهما واجتهد ونمّى مواهبه فبلغ من العلم شأوا بعيدا، والعلم يفرض



الدقّة والوضوح.. وقديما قيل: «كان علم الطبّ ناقصا فأكمله الرازي وكان غامضا فأوضحه ابن سينا».

بهرت الحضارة العربيّة الإسلاميّة الغرب، وكان آنذاك يغطّ في نومه، وبشهادة الغربيّين أنفسهم.. وأدرك الفاتيكان بعد الاستيلاء على الثروة العلميّة في الحروب الصليبيّة وبعد ما عرفوا من ازدهار الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس.. فندبوا من اليهود ومن علمائهم وفلاسفتهم نقل العلوم إلى اللاّتينيّة.. وأسّسوا لذلك هيئات علميّة تكفّلت بالترجمة، وكانت العربيّة آنذاك لغة عالميّة مثلها مثل الأنجليزيّة اليوم.. بل كان محظورا على الأطبّاء امتهان الطبّ إن لم يعرفوا العربيّة، لأنّ مرجعهم كان محصورا في كتابي «الشفاء» و «القانون في الطبّ» لابن سينا.. وكان الطبيب الإيطاليّ يفخر بانتمائه إلى ابن سينا.



دامت حركة الترجمة من العربيّة خمسة قرون، ثمّ انطلقت النهضة الغربيّة الثانية في القرن السادس عشر.. وما زالت الترجمة من العربيّة ومن غيرها إلى اليوم، وهي عندهم ضرورة حيويّة كالتنفّس والغذاء والراحة للجسم.. فلا تجد كتابا يصدر في العالم مهما كانت لغته إلاّ بادروا بترجمته لأنّهم عرفوا —كما عرفنا في زمن غابر – أنّ الترجمة تثري الفكر وتفتح آفاقا جديدة وأنّ الإنسان إنسان بقوّة فكره وبقدرته على التحكّم في الطبيعة وهيمنته على العالم.. ولولا إدراكهم لقيمة الترجمة لما نقلوا إلى لغاتهم «مثلّثات» قُطْرُب وجميع المتون التي نظمت في العربيّة على صعوبة ترجمتها.

الترجمة أساس الحضارات بل هي الحياة لأنّها تعرّفك نفسك وما يجري في الكون وما حلقات التطوّر البشريّ وما ماضي الكون.. الترجمة الواعية تهبك الحياة الحقيقيّة والعيش الكريم لأنّها رافد أساس من روافد



المعرفة والتقدّم ولأنّها تحفظك من أن تكون عالة على غيرك: يبدعون ويقهرونك باختراعاتهم ويستعبدونك حتّى يخيّل إليك وإليهم أنك ما خلقت إلاّ لتكون عبدا لهم.

الغاية نبيلة والطريق طويل شاقّ يتطلّب الوعي وتضافر الجهود في مشارق الأرض ومغاربها والتضحية والاعتماد على النفس والطموح الذي لا يعرف حدّا ولا يقبل التواكل.. وقد سبق أنّ نقل العلوم العربيّة الإسلاميّة إلى الغرب كلّفهم خمسة قرون من الجهود.. «لكنّنا بخير والحمد لله» كما قال طه حسين في إحدى جلسات مجمع اللّغة بالقاهرة.. تداركنا الكثير الكثير ممّا فاتنا.. ولئن صدق الحدْس ولم يخطئ الظنّ فإنّنا عمّا قريب محقّقون ما نصبو إليه.. «إنّهم يرونه بعيدا ونراه قريبا».. «أمّا الذين في قلوبهم مرض»، ولا ألقي الكلام على عواهنه، فيرونه مستحيلا.

وأخيرا أكرّر التهنئة بالمولود الجديد داعيا لمن تعهّد برعايته أن يثبّت اللّه خطاه إنّه سميع مجيب.







في الشّعر..

افتتاحية العدد: **24**

كثيرا ما أسمع في الملتقيات التي تُعْقَدُ، هنا وهناك، وفي ندوات جامعيّة، قصائد ممّا يُدْعى بالشعر الحرّ **أو** يرى أصحابه مخلصين أنّه كذلك، معجبين بإبداعهم إلى أقصى حدود الإعجاب، جاهدين مجتهدين في إبراز روعته وجماله بما أوتوا من قدرة في الأداء الصوتيّ.



وكثيرا ما أسألُ المترشّحين إلى شهادة دكتوراه الدولة عن تعريف الشعر الحرّ، في دراستهم لبعض نماذجه، وعن نشأته وأسبابها وعن تطوّره في النصف الثاني من القرن العشرين فأجدهم لا يعرفون عن ذلك شيئا.. بل رأيتهم لا يّميّزون بينه وبين ما سمّاه بعضُ أدباء المهجر، في القارّة الأميريكيّة، بالقصيدة النّثريّة وحذّروا من أن يُخْلَطَ بينها وبين النّثر.

فإلى طلبتي أوجّه هذه الكلمة، لا هيّابا ولا وَجِلا، لأنّني أستاذهم ولأنّهم عرفوا مقدار محبّتي وإخلاصي لهم وإلى من أكنُّ له المودّة والتقدير من شباب وطني الذي «لو شُغِلْتُ بالخُلْد عنه.... »

وأقرّر صادقا، ورغم ما توحي به مقدّمة هذه الكلمة، أنّني لا أفضّل الشعر العموديّ على الشعر الحرّ ؛ فلكلّ منهما عباقرة وسبّاقون، وفي كلّ منهما متطفّلون على الفنّ والفنّ يتبرّأ منهم.. وقديما قيل:

وَكُلٌّ يَدَّعي وَصْلا بِلَيْلى
ولَيْلى لا تُقِرُّ لَهُ بذاكا.



عكف الأدباء العربُ بعد اطّلاعهم على الآداب الأجنبيّة من أوروبيّة وهنديّة وفارسيّة على نقلها إلى العربيّة فانقاد لهم النثر واستعصى عليهم الشعر كما استعصى على غيرهم.. فَلِكُلّ لغة خصائصها ولكُلّ جنس تفكيره وعاداته ولكلّ شعر مقاييس وطرائق في التعبير ودلالات رمزيّة لا يشاركه فيها غيره لانتمائه إلى حضارات متباعدة وثقافات هي نتيجة البيئة بأوسع معانيها والبيئة جغرافيّة كانت أم ثقافيّة أم اقتصاديّة تختلف من أرض إلى أرض ومن عصر إلى عصر ومن عِرْق إلى عرق.

نقلوا الشعر الأجنبيّ إلى النثر العربيّ للمحافظة على روحه ومعانيه وجماله فهمدت روحه وبَهتتْ معانيه وشاهَ جمالُه فَمُجَّ لزوال رونقه.. ما كان شعرا بإيحاء كلماته ومتعةً بتأثير موسيقاه فَقَدَ وسائله فأخطأ مرماه.. ولم يسلم من كُلّ ذلك إلاّ النزر القليل من النماذج الشعريّة الرفيعة كمقاربة المنفلوطيّ لقصيدة «الصلاة» (La prière pour tous) للشاعر الفرنسيّ فكتور هيجو.. ولا عجب في ذلك فالمنفلوطيّ مبدع النثر الحديث وأسلوبه إلى الشعر أقرب منه إلى النثر.

عدلوا عن النثر إلى الشعر العموديّ معتمدين مبادئ العروض كما قرّرها الخليل فأرهقهم البحر الواحد وأعنتهم الرّويّ وعجزوا عن التوفيق بين النصّين الأجنبيّ والعربيّ فنوّعوا في البحر وفي الرّويّ كما فعل الأندلسيّون قبلهم في موشّحاتهم فما أغنى عنهم ذلك فتيلا.. كثرت هذه المحاولات في أواخر العشرينيّات وفي الثلاثينيّات وبالأخصّ في الدوريّات وفي مقدّمتها مجلّة «الرسالة» التي كان يديرها أحمد حسن الزيّات.

وجدوا أن لا شعر بلا موسيقى وبدون وزن فراح المنظّرون يقترحون الحلول لمشكلة نقل الشعر الأجنبيّ إلى الأدب العربيّ.. ومن جملة ما

اقترحوا المحافظة على الأوزان الخليليّة وإرسالُ الرويّ، فنشأ ما سُمِّيَ آنذاك بالشعر المرسل.. وهو ما يُلْتَزَمُ فيه البحر ويختلف الرويّ من بيت إلى آخر تبعا للمعنى.. ومن نماذجه بعض المقطوعات في مسرحيّة «عنترة» لشوقي.

تحرّر الشعر المرسل من الرويّ، ولا أقول من القافية لأنّ الرويّ غيرُ القافية، ولم يتحرّر من العروض فكان ذلك عقبة في سبيل الترجمة ومَدْعاة لنفور القارئ من هذا النوع غير الْمُجدي رغم سهولته.. وقديما لم يعدّ الأدباء الرجز شعرا حقيقيّا مع أنّه مؤسَّس على رويّين متتابعين فيبقي محصورا في نظم المتون العلميّة.



ومن الشعراء من آثر مقاربة المعنى على الترجمة «الصّادقة» وإن كان الصدق الصادق مستحيلا في الترجمة نثرا كانت أم نظما ؛ إنّما يُسْتَعْمَلُ اللّفظ على سبيل التجوّز.. وتدعى هذه الطريقة تطويعا.. والتطويع الناجح إبداعٌ ثانٍ وإن تَرَسَّمَ فيه الْمُطوِّع خُطى الشاعر الأصليّ.. تغلب فيه الروح العربيّة ومقوّماتها وخصائصها وأسُسُ جمالها الفنيّ.. فهي نقل من بيئة إلى بيئة وهي تعريب لا ترجمة.. ومن خير ما رأيت في ذلك، على كثرة نماذجه، تطويع حافظ إبراهيم لقطعة من مسرحيّة «ماكْبث» لشكسبير.. تقرؤها فتجزم، لولا مطلعها، أنّها من نفحات المتنبّي أو البحتريّ أو أبي تمّام.. غير أنّ هذا النّوع من المقاربات يقتضي العبقريّة الفذّة والموهبة الشعريّة المتميّزة وعناية اللّه.. وهي من النادر.

في ثورة عارمة على القصيدة العموديّة أو شبه العموديّة وعلى العروض الخليليّ دعا بعض الشعراء والمنظّرين إلى التحرّر من أغلال البحور المركّبة والحرف الواحد رويّا والبيت بشطريْه وبعروضه وضربه.. ودعوا إلى ما سمّوه «الشعر الحرّ».



البحور التي استساغها الشعراء ونظموا عليها من الجاهليّة إلى يومنا هذا تنقسم في النظريّة الخليليّة إلى بسيط ومركّب.. فالبسيط ما أُسِّسَ على تفعيلة واحدة كالكامل (متفاعلن)، والهزج (مفاعيلن)، والرمل (فاعلاتن)، والمتقارب (فعولن)، والرجز (مستفعلن)، والمتدارك (فاعلن).. والمركّب ما رُكّب من بحرين كالطويل المؤلّف من المتقارب والهزج (فعولن مفاعيلن أربع مرّات)، والمديد المكوّن من الرّمل والمتدارك (فاعلاتن فاعلن أربع مرّات: في النظريّ)، والبسيط الجامع بين الرجز والمتدارك (مستفعلن فاعلن أربع مرّات).

أقصى المنظّرون للشعر الحرّ البحور المركّبة ولم يعتمدوا إلاّ البسيطة فلا نجد فيه إلاّ تفعيلة واحدة لازمة في القصيدة كلّها.. ولم يحتفظوا لا بالرويّ ولا بعدد التفاعيل كما قرّرها الخليل وثبّتها الأدب العربيّ طوال القرون الستّة عشر.. لذلك نجدُ التفعيلة الواحدة يختلف عددُها من بيت إلى آخر.. وبرّر المنظّرون كُلّ ذلك بأسباب عديدة لا يتّسعُ المقام لذكرها.. وكان فيهم المقتصدُ كنازك الملائكة والمغالي كالكثير من اللّبنانيّينَ المتأثّرين بالآداب الغربيّة الدّاعين إلى التجديد الكامل في الصورة والمضمون.. وسنعود إلى هذه القضيّة ودواعيها ببعض من التفصيل وفي مناسبات أخرى.



إنّ ما دعاني إلى إيثار هذه القضيّة ما سمعت أو قرأت لطلبتي ولبعض الناشئة من إبداع يرونه « شعرا حرّا » وليس منه في شيء لأنّهم لا يلتزمون بمبادئه.. رأيتهم ينثرون ظانّينَ أنّهم ينظمون، أو يمزجون النثر بالنظم معتقدين صادقين أنّ الحريّة في هذا المزج، أو ينتقلون من تفعيلة إلى أخرى جاهلين أن الشعر الحرّ لا يسمح لهم بذلك، أو غير منتبهين، لعدم تمكّنهم من الوزن ومن موسيقى الشعر العربيّ.



والحقيقة التي لا مراء فيها أنّ الوسيلة الوحيدة للإبداع في الشعر، مهما كانت الطريقة المتّبعة فيه، الموهبة، وهي من اللّه، والتمرّس بنماذجه السامية الخالدة تمرّسا حقيقيّا قوامه المثابرة والحسّ المرهف والبديع الجميل الذي جُبِلَتِ النفوس على حُبّه.



دعستُ على غطش..

افتتاحية العدد: **25**

عنك أيتها العربية الفصحى من أنك لغة ميتة محنطة لم تعودي صالحة للخطاب إلا عند المجيدين لك، وقليل ما هم، لأن ألسنة الناس لا تطاوعهم بسهولة فلا تجازف بالدخول معك في متاهات « التعبير الحر المنطلق الخلاق » الذي لا تعجزه حقيقة أو مجاز ولا يكبله إعراب أو اشتقاق ولا يرسف في قيود الجائز وغير الجائز ؟ أصحيح أنه لم يبق إلا التكبير عليك أربعا ؟



تابعت في قناة « الجزيرة » حصة من حصص الثلاثاء بعنوان « الرأي والرأي المعاكس » حصة ناقش فيها المشاركان « الخصمان » أحقية الصحافة في استعمال العامية في ما نشرت وتنشر من يوميات في قطر عربي مسلم، دافع أحدهما عن عدم جدوى الفصحى في الصحافة وفي نشرات الأخبار مهما كانت وسيلتها لأنها موجهة إلى الشعب والشعب لا يفهم إلا « لغته » فإن خاطبته بغير لسانه أضعت وقتك ووقته ولم تبلغ هدفك بل كنت غير مخلص لمهنتك وهي أمانة في عنقك.

دافع أحد « الخصمين » عن هذا الرأي دفاع المستميت منطلقا من واقع قطره وغيره من الأقطار الشقيقة وواقع اللسان العربي في العصر الحديث.. مقررا أن وظيفة اللغة مهما كانت أن تساير الحياة في كل مجالاتها وفي مختلف مظاهرها وأبعادها الحضارية.. وليس اللسان العربي الفصيح من هذه الوسائل ما يعتد به وما في غيره من الألسنة التي



دوخت العالم.

أجابه مناظره بأن جهله بالعربية هو الذي دفعه إلى محاربة الفصحى.. وانتصاره هو «وأمثاله» للعاميات على اختلاف لهجاتها وخطرها على الإسلام والمسلمين لا سيما العرب منهم، وإن استحكم فيهم داء الخلاف إلا في اتفاقهم على ألا يتفقوا، وأن هذه النظرية سبقهم إليها في المشرق الأوسط، في أوائل القرن العشرين بعض الدعاة إلى العاميات فلم ينجحوا في مسعاهم.

ورأيي المتواضع أن تقريب الفصحى من شعب «لا يفهم منها شيئا أو يكاد» إقرار بتفشي الجهل في هذا الشعب وبفشل نظام التعليم فيه – وما أكثر ما فشل هذا النظام في ربوعنا!– وأن العلاج يكمن في تقريب الشعب من الفصحى لا العكس.. ذلك توحيد «للناطقين بها» وتمكين لهم ولها وسبيل إلى الرقي بأنفسهم وبها في ميادين المعرفة والتقدم الحضاري وهل في وسع العاميات عربية الجذور في مشارق الأرض ومغاربها.. مختلفة الشكل والأداء أن تستوعب الثقافات قديمها وحديثها منفردة منعزلا بعضها عن بعض لأنها لا تكون لغة واحدة بأية حال من الأحوال؟

إن الذي يحصر الصحافة في نقل الأخبار إلى الشعب ويخضع لغتها إلى مستواه ليس له أدنى تصور لمفهومها وغاياتها ودورها في خدمة الشعب على جميع الأصعدة والرقي به إلى مصاف الشعوب الحية.

لا يتقدم الشعب بتفشي الأمية فيه ولا بما ندعوه «محو الأمية» الذي لا يزيد على أن يجعله قادرا على التهجي.. والصحافة الجديرة بأن تسمى صحافة والتي يحذقها صاحبها في «مدارسها العليا» وبثقافة واسعة ودربة متواصلة ليست لهذا النوع من الناس.. بل يتقدم الشعب





بمدارس حقيقية راقية بنظامها التربوي الوافي بغرضها ومحتواها المساير لعصرها ولمستجداته وبإطاراتها البشرية الكفيلة بأداء واجبها على أحسن وجه ووسائلها الكافلة لكل نجاح بما تبعث من روح الإقبال على التعلم وبما تيسر من مهنة التعليم.

النظام التربوي بفلسفة مبادئه ووجاهة طرائقه ومحتويات برامجه وملاءمتها للعصر، يضمن نجاعة التعليم وتيسيره ونظامنا التربوي في أغلب الأقطار العربية، إن لم يكن فيها كلها، بعيد عن حياتنا التي يفرضها علينا عصرنا بتطوره السريع المستمر وبما يجد فيه كل يوم وفي شتى مجالات المعرفة ولا أدل على ذلك من المصطلحات النحوية والصرفية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري والتي ما زلنا نجترها في تعليمنا رغم استغلاقها على المعلم بله المتعلم.. ذلك ما جعل تلامذتنا ينفقون ما يربو على العشرين سنة ولا يعرفون إلا القليل من لغتهم.. بل ترى المثقفين منا ضعفت فيهم الملكة اللغوية فطالعونا بالمنكرات وحذا حذوهم تلامذتنا وطلبتنا.



نسينا أو أنسانا الشيطان أن اللغة ممارسة يومية ودربة متواصلة كالسباحة والسياقة والرياضة وليست قواعد جافة يحفظها التلميذ ولا يفهمها.. أولا فلم قيل ويقال في الأقطار العربية «مدراء» في جمع «مدير» ولم يقل أحد «مسلاء» و«ممناء» في المسلمين والمؤمنين مع أن الكلمات الثلاث على وزن أفعل؟ - ذلك أننا ألفنا في صغرنا أن نسمع كل يوم «ياحباب ربي !يالمومنين !» وحفظنا «أفلح المؤمنون» ومن حفظ «الحاقة ما الحاقة؟» أو «فإذا جاءت الطامة الكبرى» أو سمع الشعب يقول «طامة كبيرة» اقشعر جلده عندما يسمع في كل إذاعة عربية لفظ «المحاصصة».. من عرف أن اللغة العربية ممارسة يومية كما ذكرنا لم يحتج أن يقول:



وأكـــــاد أبـعـث سـيـبـويـه مــن الـبـلـى
وذويــــــه مـــن أهـــل الـــقـــرون الأولى
وأرى حمـــــارا بــعـــد ذلـــك كـلـه
رفـــع المـــضـــاف إلـــيـــه والمـــفـــعـــولا

ما لهذا المعلم وسيبويه وأضرابه إن كان له ضرب ؟ ألا يكفيه أن يجعل تلميذه يمارس العربية بالوسائل البسيطة ؟ المبسوطة في الكتب التربوية الحديثة وأن يختار من المواد ما يفرضه العقل والواقع وأن يغرس فيه حب اكتساب المعرفة ويقربه من محيطه ومحتواه، ويجعل النحو تعليميا لا علميا على أن لا يهمل الجانب العلمي كلما تقدم في المعرفة وتجاوز المبادئ التي تقوّم اللسان.



اللغة التي أتحدث عنها واسعة المجال، متعددة المراحل، متعاقبة الأجيال، ولكل جيل لغته.. فلو بُعث جرير والبحتري وأبو العتاهية لأنكروا لغتنا وبعض تراكيبها وألفاظها مثل: « المدرسة والأدب والأديب والأستاذ والكلية والجامعة والقطار والسيارة والطائرة والرحلات الجوية والنشرة الجوية ونشرة الأخبار والوطن والوطنية والشخصية والدراسة » الموضوعاتية « و « جلس » عوض " قعد « وما إليها لأنها ليست منهم ولا هم منها وهل يفهم أساتذة جامعاتنا قول الشنفرى:

دعــســت عــلــى غــطــش وبــغــش وصـحـبـتي
ســـعـــار وأرزيــــــــز ووجـــــــر وأفــكـــل

هل يفهمونهما إلا بشرح القدماء وهل يهزّهم البيت كما كان يهز معاصري قائله ؟ ومع ذلك حفظت البيت عندما شرحت لنا « لامية العرب » مرتين في السنة الأولى من الإعدادي وفي الثانية من الثانوي.. هل كنا محتاجين إلى مثل هذه اللغة البعيدة عن محيطنا يوم كان قطرنا



محتلا وكنا نقول «المشينة والطوموبيل والكار والتراكتور والروسور والكريك» وغير ذلك من الكلمات التي أنكرها الحاسوب الجامد وأنا أكتبها برسمه خطا أحمر تحتها كما أنكر الشنفرى نفسه وخمس كلمات من بيته لأنها ليست من بيئته ولأن رحمه منها «كرحم الفيل من ولد الأتان» يقول علماء التربية المعاصرون الراسخون في فن التعليم: «إذا وجد المعلم في النص أكثر من ست كلمات يجهلها تلاميذه فليكن على يقين من أن النص فوق مستواهم».

لست من الذين يتنكرون لأساتذتهم ولا يذكرون إلا عيوبهم فلهم علي فضل كبير، ولست ممن لا يعجب بالأدب العربي قديمه وحديثه بل أفضّله على كل أدب.. إنما أهيب بالمسؤولين عن العملية التربوية أن يهتموا بالأولويات ويبسطوا التعليم ويتدرجوا من السهل إلى الصعب، وأن يجعلوا اللغة ممارسة لا حشو أدمغة بما لا غناء فيه، كما أهيب بالصحفيين أن لا يجعلوا اللغة النيرة تابعة لشعب يزري بها وبنفسه، وأن يذكروا دائما قول بشار وهو يقود أحدهم إلى منزل يجهل مكانه:

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم
قد ضل من كانت العميان تهديه







نعيش عصرًا بغير لغة..

افتتاحية العدد: 26

عهدنا المجلس الأعلى للّغة العربيّة سبّاقا إلى الغايات في مجال التّمكين للّغة العربيّة والمحافظة على صفائها بتنقيتها من الشوائب التي ما زالت تَشينها منذ سبعة قرون، وعلى ترقيتها إلى مصافّ اللّغات المعاصرة التي فرضت نفسها على العالَم، وعلى تعريف أهلها أنّها هويّتهم ومَغْناهُم بها يحيون وإليها يلجؤون عندما يؤُمُّ كلٌّ ملجأَه.



ملتقيات وطنيّة ودَوْلِيّة ثريّة بنتائجها وأغراضها، وتعريب لمصطلحات علميّة دقيقة لصيقة بالعصر وبحياتنا اليوميّة، ومنشورات عديدة مختلفة الأغراض مختلفة الفنون، ومسابقات تُنظَّمُ ويُشَجّع أصحابها، وتكريم لعلماء مبرّزين أحياء وأموات وما إلى ذلك ممّا اشتهر به المجلس.

في هذا السياق نظّم الملتقى الأخير بعنوان «التخطيط اللّغويّ» بمحاور ثريّة تخدم اللّغتين الوطنيّتين في مستقبل نرجو أن يكون قريبا وأن تجد هذه المحاور المساعي الحميدة التي تحقِّقها.. وفي هذا السياق أيضا خطر ببالي أن أبدي رأيي المتواضع في المعاجم العربيّة التي نتصفّحها يوميّا وفقا لاهتمامنا الثقافيّ المعرفيّ ولما يشغلنا في أداء مهامّنا.. وكثيرا ما نجد أنفسنا مضطرّين إلى الرّجوع إلى المعاجم المعاصرة ثنائيّة اللّغة أو ثلاثيّتها لوجود ما نبحث عنه ممّا يحيط بنا بل وما يلاصقنا محسوسا كان أو مجرّدا.. وكثيرا ما نجد أنفسنا أيضا في لغة غيرنا نحاول تعريبها ما أمكننا ذلك أو النّقل إليها بما يوافق ألسنة أهلها

وطرائقَ تفكيرهم وأذواقَهم وميولَهم.

وكانت لغة قدماء العرب أقرب إلى بيئتهم وأدلّ على حياتهم وعلى معارفهم ومشاعرهم.

وكانت معاجمهم خير دليل على ذلك لا تجد فيها، على سَعَتها، إلاّ ما له أوثقُ الصلات بهم.. أحبّوها إلى درجة التقديس وتفانوا في خدمتها وفي إثرائها باستعمالها في شتّى ميادين حياتهم وبالتّأليف بها وشهد لهم بذلك القاصي والدّاني حتى قال ريجيس بلاشير أستاذ اللغة والآداب العربيّة بجامعة السوربون: «لم أجد من الأمم من خدم لغته كالعرب».

وحضرت ذات يوم درْس الأستاذ هنري لاوُسْت الذي خلف ماسينيون على منصبه في الكوليج دي فرانس، وكان موضوع محاضرته دراسةَ الْحِجاج في كتابَي «منهاج السنّة» لابن تيميّة و «منهاج الكرامة» لابن المعلّم المعروف بالعلاّمة الحلّيّ.. فلمّا أنْهى محاضرته رآني جالسا فقصدني، وكان يعرف اهتمامي الشديد بالمذاهب الشيعيّة وآدابها، وتجاذبْنا أطراف الحديث عن ابن تيميّة والعلاّمة الحلّيّ والشريف الرّضيّ والقاضي عبد الجبّار المعتزليّ إلى أن قال لي: «أمثال أولائك العمالقة لن يعودوا إليكم».. بهذه الكلمة «القاضية» حكم على المعاصرين بالْعُقْم.

دوّن القدماء لغتهم جيلا بعد جيل واهتموا بالخاصّ بموضوع واحد وبالشّامل، وبالمتضاد وبالمؤتلف، وبالمترادفات والفروق بينها، وبالاشتقاق في الأعلام وغير الأعلام، وبالأصيل وقواعده، وبالمعرّب والدّخيل.. وغير ذلك كثير كثير ممّا ذكر حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» وممّا نطالع في «ملحقاته».

وجاء الفيروزابادي ب «قاموسه المحيط» بمداخله البالغة مئة وستّين



ألف مدخل، وابن منظور ب « لسان العرب » وعدد مداخله مئة وثمانون ألفا.. ونقتصر على هذا المعجم لأنّ غيره داخل فيه.. ذلك أنّ المؤلّفين العرب يذكرون مراجعَهم لأنّ اللّغة تقتضي ذلك ولأنّ الأمانة العلميّة تفرضه.. وكان ذلك عادة متأصّلة في المؤلّفين المفسّرين منهم والمحدّثين والأصوليّين والفقهاء والمؤرّخين وأصحاب المعاجم والأدباء.. لذلك نجد الجوهريّ في « الصّحاح » يصف الجاحظ وابن قتيبة بأنّهما حاطبا لَيْلٍ لعدم ذكر مراجعهما فيما ألّفا في التاريخ واللّغة.. ولذلك كانوا يحرّمون القراءة من المصحف مباشرة.. ويقول الجوهريّ إنّ « التّصحيف » من المصحف « والتّصحيف اللَّحن.

ويعيب المعاصرون ومنهم أحمد أمين على ابن منظور تضخيم اللّغة بذكره الصيغ العربيّة الكثيرة في اللّفظ الواحد وجموعه المتعدّدة واللّهجات فيه والدلالات المختلفة المتضاربة أحيانا وما إلى ذلك ممّا يجعل القارئ في حيرة من أمره واللّغةَ مضطربة تقريبيّة.. والحقيقة أنّ الأمانة العلميّة والواقع يفرضان ذلك.. فالعاميّة الجزائريّة كالعربيّة لهجات ودلالات مختلفة في كثير من الأحيان.. يقال في شرقها « ماكلْ شاربْ » وفي غربها « كالي شارب » ويقال في سطيف « جاي » وفي تلمسان « ماجي ».. كلٌّ يجتنب تحقيق الهمز بطريقته.. فأيهما الجزائري آلسطيفيّ أم التلمسانيّ ؟ و « يشيخ عليك » ليس لها نفس الدّلالة في كلّ أصقاع الجزائر.. فبأيّ علّة تثبت لهجة أو صيغة دون الأخرى والكلّ جزائريّ.. وكيف تفهم الناطقين أو المبدعين والمؤلّفين بلغة لم تثبتها في معجمك ؟

ويعيب المعاصرون على القدماء ترتيبهم المداخل وفقا لجذورها لا حَسَبَ الحروف كما يفعل الغربيّون.. والطريقة العربيّة جامعة لكل ما يجمعه جذر واحد.. أما الطريقة الغربيّة فلا ترى فيها العلاقة بين ما هو





من أصل واحد مثل capital , capitaine , décapiter , capitation
capiteux , capon , capet , cape , chapitre, وهلمّ جرّا.

ولا يُجْلَبْ علينا بأنّ البحث في المعاجم العربيّة عن الألفاظ صعب.. إنّما يكون صعبا على من لم يبلغ مستوى الأساسيّ الثاني وفي كلمات قليلة كالإبَةِ والْمِقَةِ واللُّمَة والفئة من النّاس، المتعلّقة بقاعدة صرفيّة واحدة وجدتُ أنّ معظم المثقّفين يجهلونها.. ووجدت من طالباتي من لا تعرف دلالة اسمها مثل أسماء تبحث عنها في الهمزة ويُخَيَّلُ إليها أنّها جمع اُسْمٍ ولا معنى لتسمية البنت بالاسم مجموعا ؛ إنّما هي من وسمَ والصّفة منها وَسْماءُ أُبْدلتْ فيها الهمزة من الواو.. والوَسامة والجمال أليق بالمرأة.. نصّت المعاجم على ذلك.. ووجدت من تكتب اسمها بالألف عوض الهمزة مثل آسيا ظنًّا منها أنها اسم القارّة المعروفة مع أنّها من أسا الجرحَ يأسوه فهو آسٍ وهي آسِيَةٌ (تأسو الجراح المعنويّة).

عيب المعاجم العربيّة المتأخّرة، ومنها «لسان العرب» أنّها بقيت محافظة على متن العربيّة كما عُرِفت قبل القرن الثالث وأنها لم تساير عصرها.. فلا تجد فيها ما جدّ من ألفاظ الحضارة في عصرها.. ولو دَوّن ابن منظور مثلا ما دخل العربيّة من جديد في مختلف الفنون المستحدثة في عهده وقبل عهده لعرفنا واقع تطوّر العربيّة ولما فاتنا الكثير منها.

وعيبها كذلك أنّها كثيرا ما تخطئ في اشتقاق اللفظ.. تعدُّه عربيّا وهو أجنبيّ.. إنّما استدركته البحوث اللّغويّة المعاصرة.

وما زلنا نحن العرب نعيش عصرنا بغير لغة عصرنا ونستعمل من «ألفاظ الحضارة» ما لا يمتّ إلى لغتنا بصلة بل هو بلغة من أخذنا عنه الاسم والمسمّى ومن كان يحكمنا ويمنعنا من تعلُّم لسانه، ولو مَوّه علينا الحقائق، ويناصب لساننا العداء جهارا لا سيّما في الجزائر حتّى



ظنّ أشقّاؤنا أنّنا فرنسيّو الجنسيّة فرنسيّو اللّسان.. وآيةُ ذلك أنّني كنتُ ذات يوم مع أخي وزميلي عبد المجيد حنّون بجامعة القاهرة فتناولتُ الكلمة لأشرح لأساتذة الأدب العربيّ أسباب زيارتنا وما كدتُ أفوهُ بجملة أو جملتين حتّى صاح أحدُهم بلا تحرّج: «الحمد للّه الذي أنعم علينا بأن نسمع اليوم بآذاننا جزائريّا يخاطبنا بالفصحى».. فالحمد للّه على ما أنعم.







ثغرات في المعاجم

افتتاحيّة العدد: **27**

كنّا تحدثنا في العدد السابق عن ثراء اللّغة العربيّة ووفرة معاجمها وتنوّعها ومحاسنها وبعض مساوئها.. ونتابع حديثنا عنها.. وأوّل ما نلاحظ على مؤلّفيها تصورهم للّغة العربيّة وإعجابهم بها إلى حد التقديس وقصرها على القرون الثلاثة الأولى ممّا عدّوه «عصر الاحتجاج»، ورأوا فيما تلا هذا العصر لسانا حديثا، غير جدير بالاهتمام.. وآية ذلك أن ابن منظور محمّد بن مكرم، المتوفّى سنة 711، جمع في كتابه «لسان العرب» المادّة اللّغوية العامّة التي توفرت له من المعاجم السّابقة لمعجمه.. أخذ من «كتاب العين» كما رواه تلامذة الخليل ومن كتابي «المخصّص» و «المحكم» لابن سيدة «(ت 458) و « التهذيب» للأزهري و" صحاح « للجوهري، وغيرها كثير، لذلك قيل إن لسان العرب يكاد يغني عنها جميعا.. ونقول إنّه بشهرته وبكثرة رجوع النّاس إليه ثبّت مساوئ مراجعه – أو كاد – زهاء سبعة قرون.

حصر هو ومن أخذ عنهم المادّة المعجمية في لغات البدو على كثرة اختلافها في الجاهليّة وفي القرون الثلاثة الأولى، ممّا سمّوه «عصور الاستشهاد» فأهملوا الفصيح من لغة عصرهم المسموعة والمكتوبة ودونوا لغة لم يعرفوها إلاّ رواية وبأخذها خلفا عن سلف، كما أهملوا الكثير من المصطلحات العلمية والفنيّة التي كانت تزخر بها مختلف المؤلفات في الفلسفة والرياضيات والطبّ والفيزياء والكيمياء وما إليها.. وأكثرها

معرّب أو صناعيّ أو دخيل، معروف في عهد ابن منظور مستعمل.. ولو عنوا العناية الكاملة بما سموه «المولد» لسهّلوا لنا البحث عن جل ما أخذت العربية عن غيرها من اللغات التي احتكت بها بالجوار أو بالأسفار لأغراض تجاريّة أو بالتّرجمة أو بغير ذلك، وذكروا أصله بكلّ تدقيق.

ورأيُنا أن أصحاب المعاجم كانوا يعنون بالعرب الأعراب كما في نداء أهل المدر لأهل الوبر: «يا أخا العرب !وكتسمية المؤرخين، من قدماء ومحدثين شرقيّين وغربيّين، دول الحمدانيّين والمرداسيين والعقيليين و الكلبيين بالشام، في القرنين الرّابع والخامس» الإمارات العربيّة "، قاصدين بذلك العرب الخلص من البدو ومازال اللفظ مستعملا بدلالته القديمة في العاميّة الجزائرية نقول: " فلان عرْبي « نريد أنه ساذج سليم الطويّة، تنطلي عليه حيل أهل المدن ولست أدري مدى انتشار اللّفظ بهذه الدّلالة في وطننا ومعرفة النّاشئة له.



وكانت الأسر الحضرية القديمة تنشئ أولادها بالبادية **لا** كتساب اللّغة.. وكان علماء اللّغة يأخذون مادتهم من أفواه البدو في منازلهم الأصليّة **أو** القريبة من الكوفة والبصرة.. ومنهم من وفرت له الظروف ذلك مدّة طويلة قال الأزهريّ المتوفى سنة 370 هـ وصاحب «التهذيب في اللّغة: » امتحنت بالأسر سنة عارضت القرامطة الحاجَّ بالهبير، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عربا نشؤوا في البادية ... يتكلّمون بطباعهم البدويّة، ولا يكاد يوجد في منطقتهم لحن أو خطأ فاحش فبقيت في أسرهم دهرا طويلا ... واستفدت من محاورتهم ومخاطبة بعضهم بعضا ألفاظا جّمة ونوادر كثيرة أوقعت أكثرها في كتابي ... « (ابن خلّكان، الرقّم 611).

وكان علماء اللّغة لا يعدّون عربيّا محضا إلاّ ما كان في معظمه بدويّا خالصا، في الإبداع النّثري والشّعري وفي غيره من الآثار.. لذلك نجد



الميداني يَفصِلُ في كتابه الشهير بين الأمثال «العربيّة» وبين ما يسمّيه بأمثال المولّدين رغم كونها عربيّة خالصة بالدّلالة التي نعطيها اللّفظ في العصر الحاضر.. فالمثل «كهرّة تأكل أولادها» يعده مولّدا مع أنه ينص على أنّ «السّيّد الحميريّ هو الذي قاله.. والسّيّد الحميري من شعراء القرن الثّاني الهجريّ، توفي سنة173 هـ.

ولا نرى ابن منظور يستعمل كلمة العرب إلاّ بهذا المعنى.. يدل على ذلك عنوان معجمه «لسان العرب» ومادته التي أخذها أخذا كاملا عن سابقيه، ومعرفته لكثير من الألفاظ الأجنبية المعرّبة لأنه اختصر «كتاب الأدوية المفردة» لابن البيطار (ت.. 646 هـ) ولا أشك في أنّه عرف أيضا كتابه «المغني في الأدوية المفردة.. » وكان ابن البيطار حجّة في معرفة أنواع النّبات وتحقيقها وصفاتها وأسمائها بلغاتها الأصليّة وأماكنها، طاف في البلاد العربيّة وبلاد الإغريق وبالممالك الروميّة من أقصاها إلى أقصاها باحثا عن الأعشاب وخصائصها والموادّ الطبّيّة والصّيدلة، وكان طبيبا.. لذلك كانت مؤلّفاته مفعمة بالألفاظ الأجنبية الدّخيلة والمعرّبة، مردودة إلى أصلها مشروحة شرحا وافيا لكنّ أثر ذلك جد باهت في «اللّسان».. والأمثلة على ذلك كثيرة لا يتحمّلها الموضوع.



وهذا لا يعني أنّ المعاجم العامّة خالية خلوّا تامّا من ذكر المعرّب والدّخيل، فقد ترد فيها بعض الكلمات إلى أصلها العبرانّي، أو الآراميّ أو الفارسيّ أو الحبشيّ أو القبطيّ أو اليونانّي أو اللاتيني أو الرّوميّ لكنها قلّما تدقق في ذكر الأصل، مكتفية في معظم الأحيان بأنّ اللّفظ «دخيل» أو «عجميّ».. يقول ابن منظور في النّرجس مثلا: النرجس، بالكسر، من الرّياحين معروف وهو دخيل.. «وقد تعد الأعجميّ عربيّا.. يقول ابن منظور أيضا في المادّة» سرط " و " والسّراط السبيل الواضح، والصّراط



لغة في السّراط، وإن كانت السّين هي الأصل ... قال (الفراء) : وهي بالصّاد لغة قريش الأوّلين التي جاء بها الكتاب ... وقيل إنّما قيل للطريق الواضح سراط لأنّه كأنّه يسترط المارة لكثرة سلوكهم لاحِبَهُ ... « مع أن اللّفظ لاتينيّ الأصل (strata) وبما أنه دخل العربيّة قديما جهل أصله.

ولم يجعل اللّغويّون من الاشتقاق علما مستقلاّ إلاّ في كتب خاصّة.. منها، قبل ابن منظور، « المعرّب من الكلام الأعجميّ » للجواليقيّ أو ابن الجواليقي أبي منصور موهوب بن أحمد، (ت.. 540) ومنها، بعده، « المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرب » للسيوطيّ (ت.. 911)، و « شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل » للخفاجيّ شهاب الدين أحمد بن محمّد، (ت.. 1069).



بيد أن الجو اليقيّ تلميذ الخطيب التبريزيّ شارح ديوان أبي تمّام لم يهدف إلى عمل علميّ خالص.. إنّما كان يرمي إلى تمييز الفصيح من الدّخيل والتمّكين للعربية التي ضعف مستواها في عصر السلاجقة، شأنه في ذلك شأن الحريريّ صاحب دّرة الغواص في أوهام الخوّاص «، والمعرّيّ وتلامذته وشرّاح دواوين تّمام والبحتريّ والمتنّبي وغيرهم.

كانت الحضارة العربيّة متفتّحة على غيرها كسائر الحضارات الخالدة، وكانت اللغة العربيّة في تجدّد مستمرّ تقرض وتستقرض وتفيد وتستفيد.. وهو أمر طبيعيّ وأسمح لنفسي، ملتمسا العذر من القارئ الكريم، برواية تجربة لي في ذلك.. كنت أبحث عن أصل كلمة « الجاوي »، وكنت خمنت أنه نسبة إلى جزيزة (جاوة) فأردت أن أتحقّق من ذلك فرجعت إلى كتاب من كتب الاشتقاق الفرنسيّة فوجدت أنّ اللّفظ benjoin مأخوذ من اللاّتينيّة benzoeوأنّ الكلمة اللاّتنية تحريف للفظ عربي « « لُبان جاويّ ».. وأحال صاحب المعجم على كلمةbenzine ..



فلما رجعت إليها وجدتها كذلك من «لبان جاويّ» ومنه أيضا البنزوات والبنزول والبنزيل والبنزان والأنجليزيّة والإسبانية والإيطاليّة مع اختلاف الرّسم في كلّ لغة ووجدت هذا الاشتقاق في المعاجم اللّغوية العامّة.. فلمّا بحثت عن اللّفظ «بنزين» في المعاجم العربيّة المعاصرة وجدت أنّ منها ما لا يذكر أصلها كمعجم متن اللّغة لمحمّد رضا، والمعجم الوسيط، ومنها ما يجعله من الفرنسيّة كصاحب المنجد.. وهو محقّ في ذلك لأنّ اللبنانيين أخذوا من الفرنسية.. هذا مصير " اللّبان الجاويّ «: انتقل من العربيّة إلى اللاّتينيّة، حيث حرف، فاللّغات الغربية ثّم عاد إلى أصله محرّفا متغير الدّلالة، منسوبا إلى غير أهله وهذه ظاهرة لغويّة عالميّة.. ينتقل اللّفظ من لغة إلى أخرى ثّم يعود إلى أصله منسوبا إلى غيره.. والأمثلة على ذلك كثيرة بين الفرنسيّة وبين الأنجليزيّة، أو بين غيرهما من اللّغات.



وصفوة القول أن أصحاب المعاجم العامّة لم يعالجوا العربيّة في تطورها مع المحافظة على الفصيح.. بل قصروا همّهم على فترة وجيزة من تاريخها واستوفوا دراستها وفقا لتصوّراتهم.. وحذا حذوهم المعاصرون في معاجمهم العامّة لكنّ هذه المعاجم أقل اضطرابا من القديمة لاختصارها.

أمّا المعاجم المتخصّصة فكثيرة متنوّعة في مواضيعها واسعة في مجالاتها برّز فيها مؤلّفوها وبلغوا بها حدّا لم يبلغه إلاّ المعاصرون من الأمم المتقدّمة في الميادين الثقافية الحضاريّة نطالع «الفهرست» لابن النديم، و «كشف الظنون» لحاجي خليفة، وكتب الطبقات والمعاجم الجغرافيّة والأدبيّة والعلمية وتواريخ البلدان والمدن والحضارة العربيّة الإسلاميّة ومختلف الموسوعات القديمة والحديثة العربيّ منها والأجنبيّ فتدهشنا ضخامة التراث ولا نكاد نصدّق ما نجد في هذه المظانّ، وغيرها كثير.



ولو وصل إلينا التراث العربيّ الإسلاميّ كاملا، على امتداده في المكان والزمان واختلاف ميادينه وموادّه لرأت البشرية منه ما يدهشها.. لم يصلنا منه إلا زهاء العشر على أكثر تقدير، وما بقي مازال في معظمه مخطوطا موزّعا بخاصّة على العواصم الغربيّة.. ألّف ابن منظور فيما يقال مئتي (200) كتاب فأين هي؟ وحرّر القفطيّ ستّة وعشرين لم يبق منها إلاّ اثنان: مختصر من كتابه الكبير «تاريخ الحكماء» الذي ترجم فيه لأربعمئة وأربعة عشر طبيبا وفيلسوفا وفلكيّا مع نصوص يونانيّة ضاع أصلها، و «إنباه الرّواة على أنباه النّحاة» ضاع منه الكثير.. وأين ما ألف الجاحظ والكندي والفارابيّ والرّازي وابن سينا والغزاليّ وابن رشد وابن تيميّة والنصير الطّوسيّ الذي جمع أربع مئة ألف كتاب ممّا نهب من بغداد والشّام والجزيرة أيّام هولاكو، وأضرابهم ممّن لا يعدهم حصر؟ أين أولائك الذين فال عنهم المستشرق لاووست (laoust) :



«أمثالهم لن يعودوا إليكم» قالها في حديث جرى بيني وبينه، وقد ذكرته في العدد السّابق من هذه المجلّة.





حاجتنا إلى معرفة أسمائنا..

افتتاحيّة العدد: **29**

كان المشرفون على « مجلّة المجلس الأعلى للّغة العربيّة » بيّنوا للقارئ الكريم وللأفاضل من الرّاغبين في المساهمة فيها بنشر بحوثهم أنّها ترمي إلى أن تكون دوريّة ثقافيّة تهدف إلى خدمة اللّغة العربيّة والتمكين لها، داخل الوطن وخارجه، وِفْقا للمعايير العلميّة الحديثة ولمقتضيات العصر، وأنّ ما يكفل لها النجاح بحوث تتّسم بالأصالة والعمق والحداثة وتُتابع ما جدّ في العالم من دراسات متميّزة تمتّ بأوثق الصلات إلى اللّسان العربيّ وروافده وتحقّق التواصل المعرفيّ أساسَ كلّ حضارة.. ولا يكون البحث أصيلا عميقا حديثا ما لم يُجْتَنَبِ فيه الجمع المحض والسطحيّة العقيمة، وما لم يكن له علاقة باهتماماتنا الراهنة وبما يتطلّبه العصر، وما لم يكن مرآة لهذا العصر، تعكس حضارته بكلّ أبعادها وأسسها الفكريّة وطاقاتها الإبداعيّة.

تتوخّى المجلّة كلّ ما يكفل لها الحياة والازدهار لتصبح مثابة لكتّاب العربيّة وملتقًى لأقلامهم ومعرضا لآرائهم، وتحاول أن تجمع ألوانا مختلفة من الدراسات في الميادين التربويّة واللّغويّة المحضة والأدبيّة والعلميّة والتاريخيّة وكلّ ما ينشر الثقافة ويرفد اللّسان العربيّ.

من أثرى المواضيع وأوكدها معالجةُ مشاكل التعليم ودراسة أسبابها، والتفكيرُ في النهوض به وفي إصلاحه إصلاحا حقيقيّا جديرا بجعلِه تعليما فعّالا يساير العصر.. ومن المقالات التي ترسل إلى المجلّة



لنشرها ما يهتمّ بهذا الجانب لكنه في أغلب الأحيان لا يتجاوز وصف الواقع، والواقعُ معروف لا يجهله إلاّ من لا صلة له بالميدان، ولا ينفذ إلى الأعماق، والسطحيُّ قليل من كثير.

ومن المقالات ما يتناول قضيّة لغويّة أو نحويّة درسها القدماء بإسهاب وأفاض فيها المحدثون، ولغزارة مادّتها وسعة انتشارها في مختلف الكتب يرى صاحب المقال تلخيصها لتعميم فائدتها، والتلخيص مهما كان ناجحا لا يرقى إلى مستوى البحث.. والبحث في ما لا علاقة له أكيدةً بالحاضر من الكماليّات.

نعم !درس حسن حسني عبد الوهّاب «صوغ أفعل التفضيل من الثلاثيّ»، وهو من فطاحل علماء الجمهوريّة التونسيّة، ونشر الدراسة في «مجلّة المجمع اللّغويّ» بالقاهرة ؛ ودرس أنستاس الكرمليّ، وهو من هو في معرفة اللّغات وفي التمكّن من اللّغة العربيّة، درس «النّسبة إلى فَعيلٍ» ونشر الدراسة في المجلّة نفسها.. وكان سيبويه والزمخشريّ وغيرهما من كبار النحاة قتلوا الموضوع بحثا.. لكنّ العالِمَيْنِ التونسيّ والعراقيّ صحّحا ما ورد في كتب النحو أو على الأقلّ أكملا نقصها ووسّعا مدارك المعاصرين في مثل هذين البابين من أبواب النحو.. وتصدّى الكرمليّ لكثير من الألفاظ العربيّة «اليونانيّة الأصل» وبيّن أنّ اليونان هم الذين أخذوها عن العرب.. لا نطلب من الباحثين النّاشئين في الجزائر أو في غيرها من البلاد العربيّة أن يكونوا في مستوى من ذكرت.. إنّما أردت أن أقول بأنّ الدّراسة، قَدُمَ موضوعها أو جَدَّ، ومهما كانت مادّتها، لا بدّ من أن تتّسم بجزء ولو قليل من الجدّة والإبداع.

من المواضيع التي تخصّنا، نحن الجزائريّين، معرفة أسمائنا وألقابنا وكُنانا ولغاتنا ولهجاتها وأسماء أُسَرِنا وأراضينا ومدننا وحيواناتنا وغير ذلك ممّا





هو منّا أو لصيق بنا، مشتقّ من إحدى لُغَتَيْنا أو معرّب أو دخيل.. لا تجد شعبا من الشعوب الراقية إلاّ خصّ مثل هذه المواضيع بالبحوث الْمُعمّقة المستفيضة وبالمعاجم المرموقة.. وأقرب ما نستشهد به معجم لاروس الخاصّ بشرح أسماء الأسر الفرنسيّة، ومعاجمنا الشهيرة كـ «الاشتقاق» لابن دُرَيْد، و «معجم البلدان» لياقوت الحمويّ و «معجم ما استعجم» لأبي عبيد البكريّ وغيرها كثير في تراثنا.. ما أحوجنا إلى فِرَق علميّة مؤهّلة تجوب بلادنا طولا وعرضا وتبحث بحثا متأنّيا شاقّا مرهقا مثمرا في آخر أمره لتشرح لنا ولغيرنا ما ورثنا من أسماء ومسمّيات.. وتكون الحصيلة معاجمُ علميّة جادّة جُمعت مادّتها عصرا بعد آخر وكانت ثمرة الجهد والصبّر على المعاناة.. مثل هذه البحوث يتجاوز حدود المجلّة في كلّه لا في بعضه.. فكثير من الكتب الحديثة نُشر مقالات في الصحف والدوريّات ثمّ جمع وطبع.



المادّة اللّغويّة جدٌّ ثريّةٍ ومجال البحث فيها واسع متنوّع الفروع متنوّع الطرائق.. لكنّ الباحث لا يتحكّم في موضوعه إلاّ إذا كان متمكّنا من المادّة التي يدرسها، واسع الأفق، غير مقصور على لغة واحدة مهما كان ضليعا بهذه اللّغة، وكان مشاركا في الفنون الأساسيّة كالفلسفة وبخاصّة المنطق، واللّسانيّات الحديثة والتّاريخ والأدب بأوسع معانيه والحركات الفكريّة المعاصرة وما إلى ذلك ممّا لا يستغني عنه أيّ باحث.

قد يقالُ: ما للفلسفة وللّغة العربيّة؟ وما لأرسطو وللمبتدإ والخبر والفعل والفاعل؟ – خير ما يبيّن حقيقة المسند والمسند إليه بطريقة علميّة سهلة جذّابة ما ورد عن المعلّم الأكبر فيما سمّاه بـ «المقولات العشر» التي **لا** يخرج عنها أيّ إسناد في لغتنا وفي معظم اللّغات إن لم يكن فيها كلِّها.. لذلك قال القدماء: المسند والمسند إليه والموضوع والمحمول



؛ جعلوا الجوهر مسندا إليه وموضوعا والعرَض مسندا ومحمولا.. وما زال الفرنسيّون يسمّون الفاعل موضوعا (sujet) كما سمّاه اليونان وعلماء المنطق عندنا.

أمّا اللّسانيّات العامّة والخاصّة فلا لغة ولا نحو ولا بحث بدونها.. وقد يقال أيضا إنّ سيبويه وأضرابه من مؤسّسي النحو العربيّ لم يكونوا من علماء اللّسانيّات ولا احتاجوا في تقعيد القواعد إلى ما نتشدّق به اليوم من هذا العلم الذي أخذناه عن الغربيّين.. فأقول إنّهم كانوا يصدرون عن الحسّ السليم وذلك ما جمع بينهم وبين علماء اللّسانيّات.. أوْ لا فما بال HJELMSLEV يستشهد بهم في حديثه عن «الخطاب» (Discours) ويخطّيء علماء الغرب؟



هذا في بعض الخصوصيات.. ومن الخصوصيّات أيضا، وعلى سبيل المثال، دراسة الفيلسوف الإنجليزي المعاصر J.L. Austin لجزء ضئيل ممّا نسمّيه «الجملة الإنشائيّة» بأضيق دلالاتها في الخطاب العاديّ.. درسها في اثنتي عشرة محاضرة نشرها في كتاب دعاه «حين يكون القول فعلا» (150 صفحة).. ترجم الكتاب إلى اللّغات الغربيّة ولا أعرف أنّه نُقِلَ إلى العربيّة مع أهمّيّته البالغة وخصب مادّته وشحذه للفكر وتنبيهه للهمم.. فهل يوليه الباحثون اهتمامهم ويزوّدون به المكتبة العربيّة؟ ينقلونه نقلا حقيقيّا ب «لسان عربيّ مبين» وبأمثلة مستقاة من الأدب العربيّ القريب الْمُتناوَل وبأوسع معانيه لا بأمثلة إنجليزية كما نجد في بعض الترجمات المعاصرة.

واللّسانيّات في عمومها تلقي ضوءًا جديدا على التّراث العربيّ وتبرزه في أجمل حلله وفي أبهى تجلّياته.. لكنّ مثل هذه الدراسات في القطر العربيّ لم تزلْ ضئيلة محتشمة، والدراسات الجامعيّة في تعليمنا العالي



وفي بعض الأحيان، واهية الصّلة بالألسنيّة لجهل الطلبة باللّغات أو لعدم تمكّنهم ممّا درسوا منها.

واللّغة في تاريخها وفي تطوّرها وفي علاقتها بغيرها من اللّغات وصلتها بما تفرّع عنها من اللّهجات المحلّيّة وفي أخذها وعطائها مجال واسع للبحث.. فهل من يخوضه بمعطيات جديدة وبما توفّره العلوم المعاصرة للباحثين؟





تفاصيل لكنّها مهمة..

افتتاحيّة العدد: 30

رآني ذات يوم متبرّما بمقالة أُرسلت لتنشر في «مجلّة اللّغة العربيّة» وطُلِب منّي تقويمها ؛ فقال: «ما بك؟» قلت: «إنّ مجلّة اللّغة العربيّة مرآة للّغة العربيّة الأصيلة أو لما ينبغي أن تكون اللّغة العربيّة.. وهذه المقالة لا أكاد أجد فيها فاصلة أو نقطة أو غير ذلك ممّا تقتضيه قواعد الرسم المنطقيّة وما تتطلّبه النصوص لتكون واضحة لا يشوبها لَبْسٌ، خفيفة لا يثقلها عيب، منسجمة في تناسقها، صحيحة في تركيبها ؛ وإن وُجِدَ فيها شيء من ذلك فهو نابٍ أو في غير محلّه.. لا أرى صاحبها يدرك أهمّيّة الفصل والوصل أو يحسن الربط بين الجمل أو بين عناصرها أو يميّز بين همزة القطع وبين همزة الوصل أو يسأل سؤالا صحيحا في صورته وفي مضمونه أو يتحاشى التعبير العامّيّ أو ما ورثناه عن اللّغات الأجنبيّة فيما نقلنا من آدابها» أو يحتكم إلى العقل فيما يرتكب من أخطاء منطقيّة.. ورحتُ أسرد عليه الأمثلة ممّا وجدت من هنات في المقالة.

قال: أهي من الأهمّيّة بهذا المقدار؟ وما علاقة الفاصلة والنقطة بالمعنى؟ وهل كان القدماء يعرفون ذلك؟ – قلت من الجاهليّة.. وذلك طبيعيّ يعرفه العامّ والخاصّ بالسليقة وبالفكر ويقوم الوقف وعدمُه في كلامنا اليوميّ مقام الفاصلة والنقطة.. فما بالُك بمن كانوا يتْلون القرآن آناء اللّيل وأطراف النهار ويتدبّرون معانيه؟ ويتعلّمون ما كان ينبغي أن يوقَف عنده في تلاوته.. وقد ألّف العلماء بأُخَرَةٍ في الوقف وبيّنوا أنّ فيه



الواجب والحرام والمستحبّ والمكروه وجعلوا في رسم المصاحف رموزا تدلّ على لزوم الوقف والنهي عنه وما فيه الوقف أولى وما فيه الوصل أولى وغير ذلك ممّا نراه اليوم في المصاحف على اختلاف طبعاتها.. أليس ذلك ما نسمّيه اليوم فاصلة أو نقطة أو نقطة وفاصلة أو نقطتين أو غير ذلك ممّا يوضّح المعنى ويدفع اللّبس؟

روى بن النحّاس أنّ الرسول (ص) قال لأحد الخطباء: «بئس الخطيب أنت» حين قال: «من يطع اللّه ورسوله فقد رشد ومن يعصهما» ووقف.. وكان ينبغي أن يصل كلامه فيقول «ومن يعصهما فقد غوى».. ولولا أنّ القارئ الحاذق يعرف الوقف لما استقام قوله تعالى: ".. ولم يجعل له عِوَجًا قَيِّمًا.. «لأنّ العوج لا يكون قيّما.. فالواجب أن يوقَف بعد» عوجا «ثمّ يُبْتَدَأ» قيّما ".

ولْنكتبْ ونقرأْ بطريقتين الآية السابعة من سورة يوسف:

« ولقد همّتْ به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربّه» (يوسف: 7) :

»ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه.«

»ولقد همّت به، وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه«.

الطريقة الثانية طريقة الفصل بين «همّت به» وبين «وهمّ بها» تبيّن بضوح أنّ يوسف عليه السلام لم يهمّ بها لأنّه رأى برهان ربّه.. وهو قولٌ أغلب الْمُفسّرين.

ومن أراد المزيد من الأمثلة فليرجع إلى المصحف وكتب علوم القرآن.. إنّما ضاع الرسم الصحيح من النصوص العلميّة والأدبيّة في عصور الانحطاط وذلك ما ورثه معلّمونا ممّن لم يدرسوا دراسة عصريّة فلم يكترثوا بقواعد الرسم لأنّهم يجهلونها.. حتّى إنّك لتقرأ النصّ فلا تفهمه إلاّ بصعوبة، وقد لا تدرك منه شيئا، وقد تحكم على أسلوبه بالْهَلْهَلَة



أو بأنّه غير عربيّ.. وما رأيك فيمن يكتب الْمَثَل «تسمعُ بالْمُعَيْدِيّ، خيرٌ مِن أن تراه» فاصلا بين المبتدإ والخبر، غير منتبه إلى أنّ الإسناد لا يتحقّق بفصل المسند عن المسند إليه أو يثبت النقطة قبل انتهاء الجملة لأنّه لا يعرف معنى النقطة أو لا يفصل بالنّقط بين الجمل أو يسهو عن كلّ ذلك طَوالَ الفقرة فيُدخِلُك عمارة لا باب فيها ولا نافذة فتختَنِق.. وإن كنتَ في ريب ممّا أقول فَلْتعلمْ أنّ فاصلة واحدة فرّقت المسلمين سُنّة وشيعة من القرن الثّاني الهجريّ إلى يومنا هذا.. اختلفت مشاربهم ومذاهبهم فيما سمّوه بالإمامة الكبرى فاختلفوا في قوله تعالى « **فأمّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيَتَّبِعون ما تشابهَ منه ٱبتغاءَ الفتنةِ وٱبتغاءَ تأويلِهِ وما يعلم تأويلَهُ إلاّ اللّهُ، والرّاسخونَ في العلم يقولون آمنّا به كُلٌّ من عند ربّنا**» (آل عمران 7).. فأهل السنّة كلّهم يقفون بعد» إلاّ اللّه «ثمّ يستأنفون، والشيعة قاطبة يَصِلون ويقرؤون» إلاّ اللّهُ والراسخون في العلم " ؛ والراسخون في العلم الأئمّة الأُثنا عشر أو السبعة، لأنّ الأئمّة عند كلتا الطائفتين الشيعيّتين معصومون من الخطإ والخطيئة، متفرّدون بعلم التأويل.. ومحرّرو المعاهدات الدوليّة يلجؤون إلى هذه الفواصل وإلى غيرها من الوسائل كالتعريف والتنكير والعطف بالحرف وتركه، لتضليل خصومهم ممّن لا يجيد لغاتهم أو لا ينتبه إلى الدقّة في التعبير وإلى خطورتها.

قال: ألا يكون الفصل والوصل إلاّ بهذه الطريقة؟ قلت: وبطرق أخرى كالضمير وكالعطف بالحرف وبغير الحرف.. لكنّهم لا يحسنون استعمالها لأنّها غير واضحة في أذهانهم ولأنّهم قلّما يحفظون النماذج الرفيعة وقلّما يتدبّرونها.. ألا ترى صاحب المقالة يقول: «وكان ذكيّا وعالما ومتواضعا ومحبوبا»؟ – الذوق السليم والقواعد العربيّة لا تُجيز

مثل هذا التركيب لأنّ هذه الصفات لا تتنافى.. وما كان كذلك امتنع فيه العطف بالحرف كما امتنع في قولنا «هو الغفور الرحيم» و «هو العزيز الحكيم».. ليس سواءً أن أقول «فلان كاتب شاعر» و «فلان كاتب وشاعر».. الكتابة وقرض الشعر لا يتنافيان في المثال الأوّل وهما عكس ذلك في الثّاني وفي اعتباري.. شأن الْجُمَل في ذلك شأن المفردات.. متى كانت الجملة الثانية نفس الجملة الأولى كأن تكون تفسيرا لها أو بيانا امتنع العطف.. وقد لاحظت أن صبياننا بالجزائر لا يخطئون في هذا.. يقولون مثلا: «عليّ سبّ الدين قال....» ولا تجد من يقول منهم «وقال» لأنّ قال وما بعدها تفسير لِ «سبّ الدين».. أيصيب الصبيّ في لغته الدارجة ونخطئ نحن الراشدين في الفصحى !؟

وقال صاحبي: «وما أهمّيّة تحقيق الهمز وعدمه فيما تسمّيه همزة القطع وهمزة الوصل؟ وهل يضير المعنى أن أقول الإستثناء والجملة الإسميّة والإعتماد والإبن عوض الأُستثناء والجملة الأُسميّة والأُعتماد والأُبن؟ قلت: لا !لكنْ ما تقول في تلميذ يكتب أو يقول la eau , le œil , le appel عوض l ’ eau , l ’ œil , l ’ appel قال: غريب عن الفرنسيّة لا يعرف منها شيئا.. قلت: لِمَ ترى هذا منكرا في الفرنسّة ولا ترى» باسمك اللّهمَّ «كذلك في العربيّة؟ أبلغَ بنا الزهد في لغتنا بل احتقارُها إلى هذا الحدّ؟

إنّ قواعد همزة القطع وهمزة الوصل من برنامج الطور الثاني من التعليم الأساسيّ، ومع ذلك نجد المذيعين في القنوات العربيّة في مشارق الأرض ومغاربها وطلبة الجامعات وأصحاب المقالات في مختلف الدّوريّات لا يتقنونها ويرتكبون فيها من اللّحن ما أراه خطرا على النّاشئة، والناشئةُ تسير على خطى الراشدين ظنّا منها أنّهم على هُدًى.. تشبّ على اللّحن





فتشيب عليه.. أين نحن من ذلك الأعرابيّ الذي كسدت سلعتُه بسوق الكوفة وراجت سلعة بعض الأعاجم بالقرب منه، وكان يسمع لحنهم، فصاح متألّما، متعجّبا: «يا ربّ !يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح !».



وقفة مع خمسينيّة الاستقلال

افتتاحيّة العدد: **31**

خمسون سنة مرّت على تحرير الجزائر من احتلال غاشم قبض عليها بيد من حديد ورام أن يطمس هويّتها بالقضاء على مقوّماتها وبالنيل من مقدّساتها: الدّين والمعرفة والأرض.. أمّا الدّين فاستعصى عليه بل زاد رسوخا في النفوس، وأمّا الأرض فاستُرجِعت بكفاح مرير ما وَهَنَ وما انقطع، وأمّا المعرفةُ فكانت المجال الخصب الذي أُطلِقت فيها يدُه بلا رحمة ولا هوادة.



لم تَحْظَ الجزائر في عهد الاحتلال التركيّ، وفيما نعلم، بمدارس تعليميّة عصريّة أو غير عصريّة لا بالعربيّة ولا باللّغة التركيّة.. فلمّا احتلّها الفرنسيّون وقبضوها بالحديد والنّار اتّبعوا فيها سياسة التّجهيل فحظروا على الشعب تعلّم اللّغة الفرنسيّة إلاّ بما يسمح بتسيير إدارتهم في بعض مرافق الحياة، لا سيّما فيما يُخوِّل لهم الاتصال بمن احتلّوا.. فإن سمحوا بتعلّمها فبمقدارٍ وفي مؤسّسات يدعونها المدارس الأهليّة وبشهادات خاصّة «بالأهالي» ولا قيمة لها في الإدارة الفرنسيّة لأنّ حامليها، ممّن سُمِحَ لهم بالتعليم في هذه المدارس الأهليّة، لم يكونوا موظّفين كغيرهم من الفرنسّيين الأصليّين أو الأوروبيّين بل كانوا يُدْعَوْنَ «مساعدين أهليّين».. ودام ذلك إلى أواخر الحرب العالميّة الثانية، إلى سنة 1945 بالضبط.. في تلك السنة قرّرت الإدارة الفرنسيّة تعليم اللّغة العربيّة بالمرحلتين الابتدائيّة والإعداديّة بمعدَّل ساعة في الأسبوع، ووحّدت



الشهادات المدرسيّة وسوّت المعلّمين والأساتذة الجزائريّين بغيرهم من الغربيّين في الوضعيّة والرّاتب.. كان ذلك بأثر من الحرب الهنديّة الصينيّة ومن الحركات السياسيّة الصّاعدة.

ومِمّا يدلُّ على سياسة المحتلّ في تجهيل الشعب الجزائريّ أنّ الجامعة المركزيّة، وكانت المؤسّسة الوحيدة للتعليم العالي لم يكن بها من الطلبة الجزائريّين، قُبَيْلَ حرب التحرير، إلاّ زُهاء المائتين (من ثمانية ملايين ساكن) مقابل خمسة آلاف فرنسيّ (من مليون أوروبّيّ).. أمّا طلبة اللّغة العربيّة وآدابها فلم يكونوا يتجاوزون العشرة.

تحرّرت الجزائر من ربقة الاستعمار فغادرها المعلّمون والأساتذة الفرنسيّون، وكانوا الأغلب، فبقيت المدارس الجزائريّة بدون إطارات بشريّة ذات كفاءة عالية.. فواجهت الدّولة أوّل مشكلة وأعوصها في ميدان التعليم.. وكانت ثانيةُ المشاكل حقّ الطفل الجزائريّ في التعليم ؛ وكان محروما منه حرمانا يمكن أن نصفه بالتّامّ ؛ وثالثتُها البنى التحتيّة من مدارس وتجهيزات في كامل القطر مدنه وأريافه ؛ ورابعتها تعريب التعليم الابتدائيّ فالثّانويّ بطريقة منهجيّة منطقيّة لا تُدخِل الضيم على أحد.

وجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام المثل الشعبيّ « تدخّن ولا طافية »، ووجدنا أنفسنا كذلك مضطرّين إلى العمل به و « بالضرورة المبيحة للمحظورات »، فتابعنا عمليّة التعليم بمن وجدنا من إطارات بشريّة جزائريّة وكانوا أقلَّ من القليل للأسباب التي ذكرناها، وبمن عاد من الفرنسيّين خائفا حذرا لا يكاد يصدّق ما وجد من طمأنينة وترحيب في بلاد غادرها بعد ما فعل الأفاعيل بشعبها، لكنّه الدّرهم يسعى إليه الإنسان حيثما وجده، ولكنّها المعرفة يضحّي من أجلها الْحُرُّ بكلّ غال.





وطلبنا المساعدة من الأقطار الشقيقة فأعانونا بما توفّر لديهم من معلّمي المرحلة الأساسيّة وأساتذة الثانويّ والعالي.. ولم يكن ذلك كافيا لمشروع طموح واسع المجال بعيد المرامي، متعدّد الجوانب، فاضطُررنا اضطرارا إلى الاستعانة بحاملي الشهادة الابتدائيّة من مواطنينا العاطلين عن العمل أو بمن هم «في مستواها»، وبمن يرقى مستواه الثقافيّ إلى الشهادة الأهليّة في واقع الأمر أو بالتقدير، وبخرّيجي جامعتي الزيتونة والقرويّين أو جامعات الشرق الأوسط والغرب من بعثات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين.

مزيج بل أخلاط من الإطارات البشريّة في تكوّنها الحقيقيّ وفي تكوينها الفعليّ وفي نجاعة عملها، مع انعدام من يوجّهها في المجالين التربويّ والثقافيّ ومع قلّة الوسائل التعليميّة وما أكثرها !ونقص فادح في عدد المؤسّسات التعليميّة، وعدد كبير من الأطفال البالغين سنّ الدراسة.

كان على المسؤولين أن يجدوا الحلول العاجلة لهذه المشاكل الملحّة، فشيّدوا المدارس الابتدائيّة بالمدن والأرياف، ودورَ المعلّمين بكُبرُيات المدن، ومركز تكوين لمفتّشي التعليم الابتدائيّ، بالعاصمة ونظّموا مسابقة سنويّة للتخرّج منه، وفترات تدريب مهنيّ للمعلّمين وللمفتّشين، كما شيّدوا مراكز جامعيّة تحوّلت بالتدرّج إلى جامعات.. وأنشأوا مركزا تربويّا لتأليف الكتب المدرسيّة وتوزيعها، و لجأوا إلى «نظام الدوامين» لاستيعاب العدد الهائل من التلاميذ، وتساهلوا في التوظيف وفي بعض المسؤوليّات.

وكان عليهم كذلك أن يُحِلّوا اللّغة الوطنيّة محلّها من التعليم.. فقرّروا تعريب هذا التعليم بالمرحلتين الابتدائيّة والثانويّة وتعريبَ بعض التخصّصات في الجامعة.. ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن لنقص كبير في




الإطارات ولما أحدث التعريب — وما أحوجنا إليه – !من مشاكل راجعة إلى أسباب مختلفة.. لكنّ المسؤولين مضوا قُدُما فحقّقوا ما أرادوا ولو ببعض الهنات.

وتفتّح التعليم على العالم الخارجيّ والثقافات العالميّة فتقرّر تعليم أهمّ اللّغات المعاصرة والتمكين له في المراحل الثلاث.. وفُتِحَ بالمراحل الأساسيّة والثانويّة والعليا العديدُ من الأقسام لتعليم اللّغات الأوروبيّة لا سيّما الفرنسيّة منها والإنجليزية.. وأنشئت الجامعات ودور المعلّمين العليا ومعاهد الفنون الجميلة ومراكز التكوين المختلفة وعرفت –ولا جهلتْهُ !– النموّ والازدهار.

وأقيمت مراكز البحث الجامعي وغير الجامعيّ ووُفِّرَت وسائلُه ورُصِدَتْ له الاعتمادات الماليّة الكفيلة بإنجاحه.. وتعدّدت البعثات إلى الخارج فكانت خير مَعينٍ للرّفع من المستوى المعرفيّ وتحسين الأداء.. ولولا أنّ بعض أعضاء البعثات لم يعد إلى وطنه لكانت العمليّة من أنجح سياسات التعليم والتعاون الثقافيّ.



وكانت المرأة الجزائريّةُ مستضعفة رهينة المنزل فتحرّرت وبرزت إلى الوجود ودخلت معترك الحياة فهي اليوم شريكة الرّجل سواءً بسواء أو تكاد.. ومهما يكن من أمر فالمدارس حافلة بالتلميذات والطالبات، بل لا نكاد نجد في بعض أقسام جامعاتنا وفي بعض الأحيان إلا البنت.

خمسون سنة مضت، وها نحن أولاء نحتفل بها وبمن بذل حياته لبعث الجزائر من جديد، آملين بأن نكون خير خلف لخير سلف، وبأنّ الأجيال الصاعدة تُنشِد مفتخرة صادقة راسخة في إيمانها:

«ورثـــنـــا الْــمــجــد عـــن آباء صِـــدْقٍ
ونـــــورِثُـــــه إذا مــتــنــا بَــنــيــنــا».



رآها حبّة وأراها قبّة

افتتاحيّة العدد: **32**

قال صاحبي: والاْستفهام؟ قلت: «خَطْبٌ يَطِمُّ وأمرٌ **لا** يتمُّ» وأنا أُعاني منه ومن طلبتي منذ عشرات السنين.. لم يجدوا في مرحلتَيِ الأساسيّ والثانويّ من يدرّبهم على استعماله استعمالا صحيحا فجهلوا أبسط قواعده مع أهمّيّته في اللّغة وفي التعليم لأنّ الدرس الحيّ مبنيّ على مشاركة التلميذ فيه، مبنيّ على السؤال والجواب.. فإن كان التلميذ يسمع طَوالَ خمس عشر سنة وفي مقتبل عمره أسئلة لا تمتُّ إلى العربيّة بصلة ويجيب بما لا علاقة له بها قضى باقِيَ حياته رهينا لهذا النقص.



سمعت المعلّمين يسألون وشاهدت الأولاد يردّدون ويسجّلون في دفاترهم وفي أذهانهم: «هل غاب عليٌّ أم خالد؟» (1) و«هل لم أقُلْ لك فكِّرْ قبل أن تجيب؟» (2) و«هل سيأتي أخوك صالح؟» (3) و«هل إن ذهب أبوك إلى العاصمة تذهبُ معه؟» (4) و«هل جاء أم يجئ؟» (5) و«هل الكسلُ ينفعك؟» (6).. ستّة أنواع من الجمل الاستفهاميّة تتبرّأ منها العربيّة.

تتبرّأ من الأولى لأنّ السائل طلب أن يُعَيّنَ له مَنِ الغائبُ.. وهلْ لا تكون إلاّ للتَّصديق ؛ لا يجاب عنها إلاّ بنعم أو بلا.. والجواب عن المثال بنعم أو بلا لا يستقيم معه الكلام.. المقام في هذه الجملة للهمزة لأنّ الهمزة تكون للتصديق وللتعيين.. قال صاحبي: يقال إذن «أغاب عليّ أم خالد؟».. قلتُ: وهذا غير صحيح أيضا لأنّه يخالف المنطق والروح



العربيّة.. يخالف المنطق لأنّ المسئول عنه هو الذي يلي حرف الاستفهام وهو الذي تقابله بما يكون بعد أم.. وأنت في هذا المثال تقابل الفعل غاب بخالد، كأنّك تقول أغاب أم خالد؟ وليس هذا مرادك.. ثمّ إنّ الروح العربيّة تدعو إلى مقابلة شيء بشيء يناسبه: الاسم بالاسم، والفعل بالفعل، والصفة بالصفة، والمكان بالمكان، والزمان بالزمان، وهكذا دواليك.. تقول مثلا: أعليّ جاء أم خالد؟ – أدخل في الجماعة أم ركب رأسه؟ – أطويلا وجدته أم قصيرا؟ – أفي المنزل رأيته أم في المسجد؟ – أصباحا لقيته أم مساءً؟ هذا ما تُسيغه الروح العربيّة.. فالصحيح والأعْرَبُ أن تقول في المثال الأوّل: «أعليٌّ غاب أم خالد؟».

ممّا سبق ينتج أنّ أم لا تدخل على هل إلاّ إذا كانت للإضراب مثل بلْ.. قال: وما الإضراب؟ قلت: أن تسأل سؤالا ثمّ تتراجع عنه تراجعا حقيقيّا أو لغرض بلاغيّ وهو الأعمّ.. كقوله تعالى: «قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنّور؟» (الرعد: 16).. أترى أنّه سأل سؤالا بِهَلْ ثمّ أضرب عنه وسأل سؤالا بنفس الحرف؟ قال: فما تقول في قول إيليا أبي ماضي:



هـــــل أنا قـــــائـــــدُ نـفـسـي
في حـــــيـــــاتي أم مـــــقـــــودْ؟

وقول ميخائيل نُعَيْمَة:



يا نَـــــهْـــــرُ هـــــل نـضـبـتْ ميـا
هُـــــك فـانـقـطـعـتَ عـــــنِ الخـريـرْ
أم قـــــدْ هـــــرِمـــــتَ وخـــــار عَـــزْ
مُـــــك فـأنْـثـنـيْـتَ عـــــنِ الْـمـسـيرْ؟



وقــول شـوقـي في مـسـرحـيّـة مجـنـون لـيـلـى: هَـــلِ الْــمُــنــادون أهْــلــوهــا وإخــوتُهـا أمِ الْمُنادون عشّاقٌ مَعاميدُ ؟

أدخلوا كلّهم أم على هل دون أن تكون للإضراب.. قلتُ: كلُّهم لحنوا.. أمّا إيليا أبو ماضي وميخائيل نُعَيْمَة فلأنّهما من شعراء المهجر.. وشعراء المهجر مشهورون باللّحن حتّى قال فيهم طه حسين ما مُفادُه: «ولَمّا عجزوا عن إصلاح لحنهم جعلوا اللّحن قاعدة».. وأمّا شوقي فلحنُه نادرٌ كلحن المتنبّي.. وقد يكون نزّلَ هل منزلة الهمزة فأدخل عليها أم وهو استعمال قليل ينبغي ٱجتنابُه.

أمّا المثال الثّاني «هل لَمْ أقلْ لك فكِّرْ قبل أن تجيبَ ؟» فغير عربيّ لأنّ هل لا تكون للتصديق السلبيّ، وبعبارة أخرى، لا تدخل هل على الفعل المنفيّ، بخلاف الهمزة.. لذلك صحّ أن يقال: «ألَمْ أقلْ لك.... ؟» وامتنع نحوُ «هل لَمْ أقلْ لك ؟».

والثالث «هل سيأتي أخوك صالِحٌ ؟» ممتنعٌ لأنّ هل تُمَحِّضُ المضارع للاستقبال، فمن الخطل أن يدخل عليها حرف دالٌّ على الاستقبال.. أمّا الهمزة فلا تمحّضه للاستقبال مثل «أتظنّه قائما ؟» يريد في الحاضر.. ولا أرى من يقول «هل سيأتي....» إلاّ كمن يقول «تقدّم إلى الأمام» أو «تأخّر إلى الوراء» أو «وسائر الناس الآخرين»، لأنّ التقدّم لا يكون إلاّ إلى الأمام والتأخّر لا يكون إلاّ إلى الوراء.. والسّائر الباقي من سأرَ: بَقِيَ.. فإنْ طرحتَ ثلاثة من عشرة بقي سبعة لا غير.. فالسّائر واحد هو السبعة، ومن المحال أن يكون هناك «سائرٌ آخرُ».. ما أكثر من يقع في الخطإ غير مدقّق لمعاني الألفاظ !



والرابع: «هل إنْ ذهب أبوك إلى العاصمة تذهب معه؟» غيرُ جائز أيضا لأنّ هل لا تدخل على الشرط ولا على إنّ بخلاف الهمزة كما في قوله تعالى: «**أفإنْ مِتَّ فَهُمُ الخالدون**؟» (الأنبياء: 34) وقوله: «**أئنَّكَ لأنتَ يوسفُ**؟» (يوسف: 90).

والخامس: «هل جاء أم لَمْ يجئ؟» عبثٌ لأنّ المجيء المسئولَ عنه موجود مرّتين.. فما قبل أم (هل جاء) كافٍ.. ثمّ إنّ التعبير عامّيٌّ (جاء وَاْلاّ ما جاشْ؟).

والسادس: «هل الكسلُ ينفعك؟» لا يجوز لأنّ هذا الاستعمال يحرِمُ الفعل من مجاورة عشيقته.. ألم يَنُصَّ النحاة على أنّ هل «عشيقة الفعل؟».. وهذا معنى البيت المشهور بيتِ الزمخشريّ:

كَـهَـلْ إذا مـا رأتْ فعلا بِحَـيِّـزِهـا
حَـنّـتْ إلـيـه ولا تـرضـى بِـفُـرْقَـتِـهِ.

فالصحيح أن يقال: «هل ينفعك الكسلُ؟».

يذكّرني هذا أنّ أحد المترشّحين إلى شهادة الدكتوراه، في الثمانينيّات من القرن الماضي، فرّق في رسالته بينهما فقلت له في المناقشة: أترضى أن يجلس أحد بينك وبين عشيقتك؟ قال: لا !قلت: فَلِمَ فرّقتَ بين الفعلِ وعشيقتِه هَلْ؟»

قال صاحبي: إنّ المتنبّيَ والحريريّ، وهما مَنْ هما، فعلا ما تنهى عنه.. قال المتنبّي:

هـلِ الْحَـدَثُ الحـمـراءُ تـعـرف لـونَهـا
وتـعـلـم أيُّ الـسّـاقِـيَـيْنِ الـغـمـائـمُ؟





وقال الحريريّ في المقامة الزَّبيديّة:

لَحــاكَ الله هــل مـثـلـي يُـبـاعُ
لِـكـيْ مـا تَـشـبـعَ الْـكَـرِشُ الجِْـيـاعُ؟

قلتُ: فعلوا ذلك للضرورة الشعريّة، وللضرورة أحكام.. ولذلك قال النّحاة: « **لا** تدخل هل على أُسم بعده فعلٌ في الاختيار.. معنى ذلك أنّهم لم يجوّزوه في النّثر وكلّما وجدوه في الشعر قدّروا له فعلا يدلّ عليه ما بعده.

قال صاحبي: الآن أدركتُ الكثير ممّا كنت أجهل من قواعد الاستفهام وصرت أفرّق فيه بين الصحيح والْغَيْرِ الصحيح.. قلتُ: ويْلَك !عرّفت لفظا **لا** يُعرَّفُ لِتوَغُّلِهِ في التنكير.. ألم تقرأ قوله تعالى «اِهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوب عليهم....»؟ إنّ اللّفظ «غير» لا يُعرّفُ أبدا.. يقال «بين الصحيح وغير الصحيح».. قال: بل أقرأ الآية اثنتين وعشرين مرّة في اليوم وقد أقرؤها في غير صلواتي إلاّ أنّني أقرأ ولا أتدبّر.. ولكن، قل لي، ألا تخطئ أنت فيما تكتب؟ قلت: كثيرا كثيرا وأودّ أن أكرّرها مرّتين أُخريين، ولو كنت لا أخطئ لما حذّرت غيري ممّا وقعت فيه ونبِّهْتُ إليه.. وأرجو أن أثاب على ما أفعل في سبيل العربيّة.. قال: زدني !قلت: في لقاء ثالث إن شاء اللّه.







فهرس الكتاب











في اللسان والبيان

مقالات وافتتاحيات

الدكتور مختار الأحمدي نويوات

لن نغالي إذا قلنا في غير اعتداد إنّ كلّ فكرة يتضمنّها مقال أو افتتاحية للأستاذ نويوات، عبارة عن مشروع كتاب مختزل في كلمات، فالرّجل يمتلك حسّ إنتاج « العصير » الفكري، وتركيز الرؤية في عدد قليل من الجُمل، دون أن يُشعرك بالملل، ثم إنّ الكمّ الهائل من المعلومات التي يستقيها من مصادر عديدة، ومن اجتهاد قلّ نظيره، يجعل المقال منجزًا وفق معمار هندسيّ بديع، إذ يختار لكل فكرة ما يشتهي من ألفاظ، ولا يسعى إلى تنطّع أو دوران على الذات، كمن يدور بحبل على جبل، ليقول لك « كم السّاعة الآن ؟ »...

إنّ هذه الشذرات من فكر وعلم الأستاذ نويوات، هي غيضٌ من فيض، فالرجل عالم بكلّ المعايير، وما نقرأه في هذا الكتاب، إنّما هو محصّله جهد لخدمة العربيّة وآدابها، وتذكير بمآثر من خدموها أمثال ابن أبي شنب وموسى الأحمدي نويوات وأبو العيد دودو، وفي ذلك تأكيدٌ على أنّ الجزائر بإسهامها القويّ في المشترك الحضاري العربي والإنسانيّ، إنّما هي حجرٌ صلدٌ وثابت في هذا البنيان، لذا وجب استحضار الذّاكرة كي تكون معلمًا للأجيال، ومنارة على رؤوس الأشهاد..

منشورات

المجلس الأعلى للغة العربية



شارع فرانكلين روزفلت الجزائر

ص ب 575 الجزائر ديدوش مراد

الهاتف: 24 07 23 21 213+

الفاكس: 07 07 23 21 213+

www.csla.dz